

السابقون

جمع وترتيب
فضيلة الشيخ





السابقون

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ١٦٤٨٦/ ٢٠١٠

الترقيم الدولي: 4 - 157 - 429 - 977 - 978



للطبع والنشر والتوزيع

الإدارة: ٤٤٧١٥٥٠٦ - ٠١٠١٦٦٨٠٦٧

١٥ ش ١٥ مايو - شبرا الخيمة

ف / ت / ٤٤٧١٥٥٠٦ - م / ٠١٠١٥٩٢٢٧١

٥ ش ابن البيطار خلف الجامع الأزهر

ت / ٢٥١٤١٧٠٤

موقعنا على الإنترنت:

www-daraltakoa.com

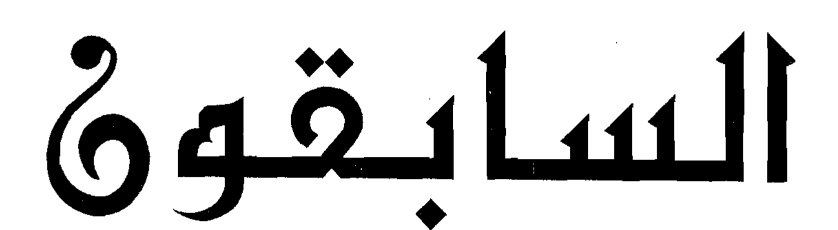
E-mail: webmaster@daraltakoa.com

التوزيع

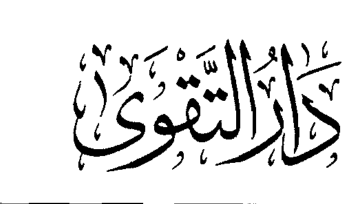
اليقين - شبرا الخيمة: ٤٤٧٣١٨٢٤

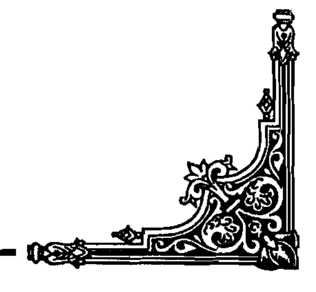
المدينة المنورة - مدينة نصر: ٢٢٧٥٥٣٠٤

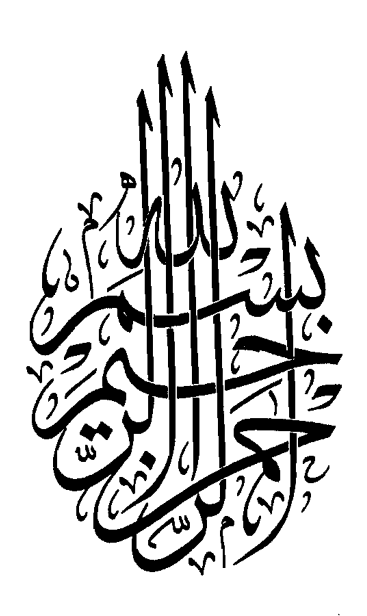
مكتبة الشامي - بالإسكندرية: ٠٣٤٩٦٠٦٢٠

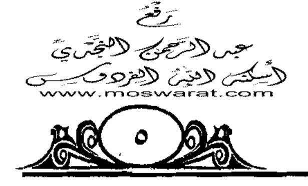


الشيخ
محمود المصري
أبو عمار









كن مع السابقين

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾[٣].

ـ أما بعد ـ:

فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى وإن خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أما بعد..

فهذه بعض الدروس التي قدمتها على إحدى القنوات الإسلامية في شهر رمضان منذ خمس سنوات...فكلفت أحد إخواني من طلاب العلم،

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (٧٠، ٧١).

أن يُفرغها استعدادًا لنشرها عسى أن ينتفع بها مسلمٌ أو مسلمةٌ فيكون ذلك في ميزان حسناتنا أجمعين.

فمرحبًا بكم إخوتي وأخواتي وأحبائي في الله مع سلسلة جديدة؛ نتدارس فيها سويًّا ما تستقيم به أمورنا وتنصلح به أحوالنا في الدنيا والآخرة في ظل كتاب ربنا ﷻ وسنة نبينا ﷺ.

وفي الحقيقة عندما بدأت أُفكر وأسأل نفسي: في أي شيء يمكننا أن نتحدث بما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع وتتم به الفائدة - إن شاء الله تعالى-؟

فلم أجد خيرًا من الحديث حول السابقين إلى الله تعالى وأصحاب الهمم التي تعانق السحاب ومن ثَم فإن عنوان هذه السلسلة المباركة والتي أسأل الله -جَلَّ في علاه- أن ينفع بها كل من قرأها «**السابقون**»، ولقد استلهمت هذا العنوان من آية في كتاب الله -جل وعلا-، والتي ما أجمل أن نتفكر فيها وهي: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[1].

ولقد جاء في تفسير هذه الآية خبرٌ عجيبٌ تذهب لسماعه العقول.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها عندما سُئلت عن معنى هذه الآية..أتدرون ماذا قالت هذه العابدة العالمة الزاهدة التي نزلت براءتها من فوق سبع سموات بقرآن يُتلى ويتعبد به الناس ربهم -جل وعلا- إلى قيام الساعة؟

---

(١) سورة فاطر: الآية: (٣٢).

قالت لسائلها: فأما السابق بالخيرات فهم رسول الله ﷺ ومن كانت لهم معه صُحبة، وأما المقتصد منهم: من ساروا على دربهم حتى لحقوا بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك!!

إذا كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول هذا الكلام فماذا يقول المفرطون والمقصرون أمثالنا؟!!

والذي يتأمل في سياق الآية يجدها قد قسمت الناس إلى ثلاثة أقسام:

١- ظالم لنفسه: ببعده عن ربه تبارك وتعالى ..بوقوعه في الشرك، أو في أنواع المعاصي والذنوب، وفي الجملة بتقصيره في حق نفسه وظلمه إياها، وكذلك بظلمه للناس فهو في نهاية الأمر أيضًا ظُلمٌ لنفسه؛ فهو بذلك يهدي إليهم حسناته ويتحمل عنهم سيئاتهم كما في حديث المفلس، وفيه قال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ؛ فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[1].

٢- مقتصد: فهو بالكاد يفعل ما يُطلب منه من الفرائض دونما زيادة أو نقصان.

٣- سابق بالخيرات: عنده همة عالية، مقبل على ربه -جل وعلا- وعلى طاعته وابتدار أوامره؛ فهو لا يرضى بمجرد دخول الجنة، وإنما هو يسعى إلى الفردوس الأعلى؛ كما أمرنا حبيبنا ﷺ أننا إذا سألنا ربنا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

الجنة أن نسأله أعلى الدرجات، كما عند البخاري أن الحبيب النبي ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**»(١).

وهكذا أخي وحبيبي في الله، إذا أردت أن تكون من السابقين حقًا، فلك أن تتخيل أنك في هذا السباق ترى نُصب عينيك بيتًا سقفه عرش الرحمن، وسَلْ نفسك ماذا يمكنك أن تبذل في سبيل الوصول إليه والحصول عليه؟

فإن فعلت وكانت الإجابة: بكل ما أملك..فأبشر بما ما يسرك واعمل واجتهد ولتكن همتك في السماء لترقى إلى ما تصبو إليه وتحلم به من رضا ربك والفوز بجنته؛ بل بالفردوس الأعلى منها.

والسالك في طريقه إلى الله -جل وعلا- ينبغي عليه أن يعيد حساباته فيما يستقبل من حياته، ويقف مع نفسه وقفة صادقة ويحاسبها محاسبة الشريك الشحيح، ويتحين كل فرصة لعملٍ صالح يسارع إليه بل ويكون أسبق الناس إليه، حتى يغفر الله -جل وعلا- له ما مضى ويصلح له ما بقي من عمره.

ولذا فقد سُئل النبي ﷺ: أي الناس خير؛ فقال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**» وسُئل أيضًا أي الناس شر؛ فقال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ**

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

عَمَلُهُ»[١]؛ فأي الصنفين تحب وإلى أيهما تنتمي؟

فإن كنت من الصنف الأول فهنيئًا لك واثبت على الحق وازدد من الخير حتى تلقى الله وهو عنك راضٍ كل الرضا.

وإن كنت من الصنف الثاني عياذًا بالله؛ فقف وكُفَّ عن المعصية وارجع إلى ربك لتعيش الجنة ونعيمها في الدنيا قبل الآخرة، وتسعد سعادة لا شقاء بعدها أبدًا، ولن يكون ذلك إلا إذا امتلأ قلبك بالإيمان وخالطت بشاشته قلبك، وروحك، ونضحت على جوارحك.

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها فلن يدخل جنة الآخرة، قالوا: وما هي يا إمام؟ قال: إنها جنة الإيمان».

نعم أحبتي في الله..إنها حلاوة الإيمان ولذة الطاعة فهل ذقتها أو تمنيت ذلك من قبل؟

نعم..إنه الإيمان الذي إذا دخل القلب انشرح وانفسح وظهر ذلك بالضرورة على الجوارح والأركان، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟؟

تأتيك الإجابة الشافية الكافية الجامعة المانعة من كلام حبيبك ﷺ.. وذلك كما جاء في صحيح الإمام مسلم أنه ﷺ قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[٢].

قال أحد السلف تعليقًا على ذلك: «من ذاق عرف ومن عرف اغترف».

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٣٠) كتاب الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٤) كتاب الإيمان.

والرضا المقصود في هذا الحديث النبوي الشريف ليس مجرد كلام يفتقر إلى التطبيق العملي، وإنما لابد لذلك من علامات ظاهرة واضحة المعالم في سلوك المسلم وفي أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته، فتراه يمتثل الأمر ويسرع إلى فعله ويجتنب النهي فيكون أبعد الناس عن مقارفته؛ فإن فعل ذلك تحقق له الإيمان المقصود.

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١).. والشاهد من الحديث ألا يكون في حياتك وفي قلبك حب أعظم من حب الله وحب رسوله، وألا تُؤْثِر أو تُقدم أحدًا كائنًا من كان عليهما.

وتحضرني في ذلك قصة جميلة تؤكد هذا المعنى وتوضحه.

كان ابن هبيرة واليا على العراقين -وهما الكوفة والبصرة- وفي يوم من الأيام أرسل يزيد بن عبد الملك -وكان أميرًا للمؤمنين- إلى ابن هبيرة رسالة يأمره فيها بتنفيذ بعض الأحكام وفعل بعض الأمور التي فيها من الإجحاف والظلم؛ فأرسل ابن هبيرة في طلب اثنين من علماء التابعين هما: (الحسن البصري، والإمام الشعبي) فلما أقبلا إليه في قصره، سألهما قائلًا: إن يزيد بن عبد الملك أرسل إليَّ كذا وكذا؛ فهل لي من رخصة في دين الله تعالى في تنفيذ ما جاء فيها؟

فقال الإمام الشعبي كلامًا فيه شيء من المجاملة والملاطفة؛ فلم يلقَ هذا الكلام قبولًا عند ابن هبيرة؛ فنظر إلى الحسن البصري وقال: وماذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩٤١) كتاب الإكراه، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان.

تقول أنت يا أبا سعيد؛ فإني أريد أن أسمع منك؟

فقال له الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا ابن هبيرة خَف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله؛ فإن الله يمنعك من يزيد -أي يحميك منه- وإن يزيد لا يمنعك من الله.. يا ابن هبيرة إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصي الله ما أمره ويفعل ما يؤمر؛ فينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك حيث لا تجد هناك يزيد وإنما تجد عملك الذي عصيت به رب يزيد.. يا ابن هبيرة إنك إن تَكُ مع الله وفي طاعته فإن الله يكفيك بائقة يزيد[1]، وإن تك مع يزيد في معصية الله؛ فإن الله يَكِلك إلى يزيد».

فبكى ابن هبيرة حتى بللت دموعه الحصى، ومال عن الشعبي إلى الحسن البصري، وبالغ في إعظامه وإكرامه؛ فلما خرج الشعبي والبصري من عند ابن هبيرة ودخلا المسجد سألهما الناس: ماذا فعلتما عند ابن هبيرة؟

فقال الشعبي: «أيها الناس من استطاع منكم أن يُؤْثِر الله ﷻ في كل مقام فليفعل فوالله ما قال الحسن البصري كلمة لا أعرفها، ولكني أردت وجه ابن هبيرة، وأراد الحسن وجه الله تعالى؛ فحببه الله إليه وأقصاني».

ولماذا نذهب بعيدًا؛ فهذا نَصُّ حديث رسولنا الكريم ﷺ الذي قال فيه: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ**»[2].. وكيف لا والقلوب بين

---

(١) بائقة، أي: شرور؛ فيصير المعنى: فإن الله يكفيك شرور يزيد.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٤١٤) كتاب الزهد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠١٠).

اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء؟

فاحرص على أن تُرضي الله (جل وعلا) .. فإن إرضاء الناس غاية لا تُدرَك، ولا يُرضي الناس جميعًا إلا منافق معلوم النفاق؛ لأنه يلقى هذا بوجه وهذا بوجه.

وأنت أخي الكريم إذا ابتغيت وجه الله تعالى بعملك الصالح فأبشر أولًا: بالقبول، وثانيًا: بالجنة ونعيمها، وثالثًا: بمحبة الله -جل وعلا- وكفى بها نعمة وكفى بها جائزة؛ فإذا أحبك الله تعالى حبَّبك إلى أهل الأرض جميعًا، ليس هذا فحسب وإنما إلى أهل السماء كذلك، ولكن كيف..وما هو الدليل؟

اسمع إلى حبيبك المصطفى ﷺ وهو يقول: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ**»(١).

والمعنى: أنه لا يراه أحد من الناس إلا ويجعل الله محبته في قلبه، والأرواح جنود مُجَنَّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وهذا الحب هو الذي يكتمل به الإيمان، فهو حب في الله مجرد من كل المصالح والأغراض والأهواء؛ فاللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك واجعل حبك أحب إلينا من الماء البارد على الظمأ..إنك ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٤٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب.

ولأن حديثنا يدور حول الهمة وعلوها كوسيلة للسابقين في الوصول إلى جنة رب العالمين..تعالوا بنا لنُجري استفتاءً في يوم حَرُّه شديد؛ فنسأل كل واحد سؤالًا واحدًا هو..ما همتك؟

ولا شك أن الإجابة ستختلف من واحد لآخر؛ فيقول أحدهم: أريد شيئًا باردًا؛ لأرطب معدتي، ويقول الآخر: أريد مروحة لتحد من هذا الحر الذي لا يُطاق وتخفف من شدته، ويقول ثالث: أريد مُكيفًا .. وهكذا، ويقول رابع: أنا لا أريد شيئًا من هذا كله، وإنما أتقي هذا الحر الذي يذكرني بحرِّ الآخرة؛ فأتمنى أن أكون في ظل عرش الرحمن ﷻ.

وتأمل أخي وحبيبي في الله..فإن كل شيء له ثمنه .. المشروب البارد قد يكون بجنيه أو أكثر بقليل، والمروحة بمائتي جنيه، والمكيف بثلاثة آلاف جنيه..وهكذا، ولكن كم تدفع لتكون في ظل عرش ملك الملوك ومالك الملك ﷻ؟

إنها دمعة..

..دمعة؟!!

نعم..دمعة تذرفها من خشية الله تعالى تكون سببًا أكيدًا في أن تصل إلى هذه الدرجة العالية، وذلك لما جاء في الصحيحين أنه ﷺ قال: **«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ فِي خَلَاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا قَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ**

شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ»(١)..انظر..تأمل؛ من السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظله يوم لا ظل إلا ظله..هذا الرجل الذي ذكر الله خاليًا فدمعت عينه من خشية الله..فالله أكبر؛ نعم..هذه هي همة الإنسان.

ولذا قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قيمة الإنسان ما يُحسن»؛ فقل لي: أنا أريد كذا وأسعى لتحقيق كذا، وأقول لك: من أنت؟ ولذلك قال أحد السلف: «إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيم أقامك»؛ نعم..فإذا كنت على الطاعة فاعلم أن الله يحبك ويريد بك الخير، وإن كانت الأخرى فاعلم أنك على خطر عظيم، وكن لله كما يريد يكن لك أكثر مما تريد.

ولذلك قال ﷺ في بيان ذلك: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ»؛ فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ»(٢)؛ فاللهم استخدمنا ولا تستبدلنا يا رب العالمين.

ووالله الذي لا إله غيره..إني لأخشى على كل من يقرأ هذا الكلام أن يقال له: «سبقك بها عكاشة»!! وماذا في ذلك؟

لتعلم الإجابة عن هذا التساؤل تعالَ معي لنترك لخيالك العنان، وتخيل أنك قد عاد بك الزمان إلى أكثر من ألف وأربعمائة عام وأنك في المدينة المنورة -على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام-، وأننا في طريقنا إلى مسجده ﷺ؛ فخرج علينا رجل تعلوه من المهابة والنور

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٠٦) كتاب الحدود، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢١٤٢) كتاب القدر، وأحمد في «المسند» (١١٦٢٥)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥).

الساطع ما لا يعلمه إلا الله ... وجهه أبهى وأجمل من القمر ليلة البدر..ترى من يكون؟..إنه رسول الله ﷺ وحوله كوكبة جميلة تفيض بالنور والضياء..إنهم أصحابه الكرام -رضي الله عنهم أجمعين-، وهو يحدثهم حول هذا الموضوع فقال ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ: مَا هَذَا..أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ؛فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ؛ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ؛ قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**» ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»؛ فَقَالَ عُكَاشَةُ ابْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ «**نَعَمْ**»؛ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»(١).

هذا هو الحديث الذي فيه محل الشاهد في موضوعنا، ولقد ذكرناه إجمالًا وسوف نتناوله فيما يلي بشيء من التحليل، والتفصيل؛ حتى تكتمل الصورة وتصل الرسالة إلى كل قارئ، لعلنا نأخذ بأسباب الوصول إلى ما وصل إليه هؤلاء السابقين ... وأول ما تجدر الإشارة إليه في هذا الحديث، أن النبي ﷺ رأى بعض الأنبياء الذي جاءوا إلى قومهم بالخير والرشاد والحق المبين؛ فلم يجدوا منهم إلا الكفر والكبر

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٠٥) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) كتاب الإيمان.

والعناد؛ فمنهم من لم يتبعه إلا رهط أو رجل أو رجلان، وهذه رسالة إلى الدعاة حتى لا يحزنوا على عدم قبول الناس لدعوتهم، وليعلموا يقينًا أنه الهداية إنما هي بيد الله تعالى وأنهم ما عليهم إلا البلاغ المبين.

والهداية المقصودة هنا إنما هي هداية الإرشاد، والتي هي خاصة بالأنبياء والمرسلين ومن ساروا على دربهم؛ فإذا أرشدوا الناس إلى الحق ودَلُّوهم عليه فقد انتهى دورهم إلى هذه المرحلة؛ فتأتي بعد ذلك هداية الله تعالى لمن شاء من عباده وهي هداية التوفيق وهي المقصودة في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[1] ، وأما هداية الإرشاد ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2] ، ولذلك يخاطب الله -جل وعلا- نبيه ﷺ مُسليًا إياه عما قد لحقه من هم وغم لتكذيب قومه إياه فقال -جل وعلا-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[3] ؛ فلو كان بإستطاعة بشر أن يهدي بشرًا لهدي رسول الله ﷺ عمه أبا طالب، والذي لطالما دعاه إلى الإسلام دونما فائدة حتى وهو على فراش الموت كما جاء في الصحيحين أنه ﷺ قال له: «**يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»[4]، ولو أنه قالها لختم الله جل وعلا له بالخير على الرغم من أنه عاش على الشرك وعبادة الأصنام، ولكن العبرة إنما تكون بالخواتيم؛ فهي الكلمة الطيبة التي تنفع صاحبها في الدنيا قبل الآخرة؛ فمن عاش عليها ولها وبها في الدنيا مات عليها وبُعث عليها يوم القيامة، قال جل في علاه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) سورة الفاتحة: الآية: (٦).

(٢) سورة الشورى: الآية: (٥٢).

(٣) سورة القصص: الآية: (٥٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.

بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[١].

ولكن ماذا كان رد عمه؟ قال: هو على ملة عبد المطلب، وهو أبوه وجد النبي ﷺ.

ولكن أتدرون لماذا؟ ... بسبب صحبة السوء.

وهذا درس آخر لمن يصاحبون أهل السوء والفسق ويرضون الناس على حساب رب الناس؛ فلقد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، وقالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب يا أبا طالب..أترغب عن ملة الآباء والأجداد؟

فقال أبو طالب: والله يا ابن أخي لولا أن تعيرني قريش؛ فتقول: قالها جزعًا من الموت؛ لقلتها، ولكن كل ما هنالك أن شفاعة النبي ﷺ له لابد وأنها ستنفعه يوم القيامة فلقد جاء العباس -عم النبي ﷺ وشقيق أبي طالب؛ فقال: يا رسول الله؛ لقد دفع عنك أبو طالب كثيرًا من أذى المشركين؛ فبم تنفعه يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «**نَعَمْ..هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ لَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[٢].

وأما الفائدة الثانية من هذا الحديث فتتعلق بمسألة الحساب وأن مجرد مناقشته هي عذاب، وهلاك؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**»[٣]، وفي رواية: «**مَنْ نُوقِشَ الْمُحَاسَبَةَ هَلَكَ**»[٤]؛ فأنت لن تقف بين

---

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٢٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٠٨) الأدب، ومسلم (٢٠٩) الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٣٦) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٧٦) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٧٩).

يدي مديرك في الشركة أو رئيسك في العمل، أو بين يدي وزير ولا رئيس، وإنما ستقف وحيدًا فريدًا بين يدي الله تعالى؛ يسألك عن الصغير والكبير، فماذا تقول وبماذا تجيب؟

قال -جل وعلا-: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [(٢)]. فما أوسع رحمة الله رب العالمين.

وأما بيان مسألة السبعين ألفًا الذين تكلم عنهم فيتضح بروايتين صحيحتين في مسند الإمام أحمد، أما الأولى، ففيها أنه ﷺ قال: «**وَعَدَنِي رَبِّي ﷻ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي ﷻ**» [(٣)].

ولك أن تتخيل كيف يكون عددهم مع العلم أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ

---

(١) سورة الكهف: الآيتان: (٤٨، ٤٩).

(٢) سورة النساء: الآيات: (٦٨-٧٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٢١٨٠٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١١١).

وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[١].

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢].

والشاهد من الحديث، والذي نخلص إليه وندندن حوله..هو ما كان عليه عكاشة بن محصن من الهمة العالية..هذا الصحابي الجليل الذي طار فؤاده وتاقت نفسه واشتاقت روحه إلى هذه الهدية الغالية من رب العالمين، فكان أول من سارع إلى طلبها؛ فجاء الرد من فوق سبع سموات، ونزل جبريل عليه السلام -أمين وحي السماء- ليخبر النبي ﷺ أن هذا الرجل صاحب الهمة الصادقة من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ فمن صدق الله صدقه الله ولا شك.

والشاهد من الحديث: أنني أريدك أن تجعل من هذا الصحابي قدوة تتأسى بها فلا يسبقك إلى الله أحد، لتكون مع السابقين الأولين الذين علّموا الدنيا كلها معنى الصدق والإخلاص والبذل والتضحية ... فاللهم احشرنا في زمرتهم.

إلى هذا الحد كان اتصال الأرض بالسماء؟ نعم..فلقد كانت القلوب في قمة استعدادها لاستقبال وحي السماء والمسارعة إلى طاعة الله ورسوله سعيًا وراء أسمى مقصود وأعظم غاية وأغلى سلعة ألا وهي جنة الفردوس وما فيها من النعيم المقيم؛ الذي جعل أم أيمن -حاضنة النبي ﷺ- عندما ذهب إليها أبو بكر وعمر ليزوراها بعد موت النبي ﷺ

(١) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٢) سورة الزمر: الآية: (٦٧).

انخرطت في بكاء شديد؛ فسألاها: يا أم أيمن لماذا تبكين؟

أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله؟ انظر إلى هذه الإجابة التي تخلع القلوب..قالت: أعلم..ولكني أبكي لانقطاع الوحي من السماء.

لذا أوصي نفسي وإياك -حبيبي في الله- أن تسارع إلى الخير فإن الفرصة إذا جاءت مرة فقد لا تتكرر بالمرة ... والعمر قصير والمغريات والشواغل لا تنقطع أبدًا، والفتن كقطع الليل المظلم، فبادر قبل أن تُبادَر، وإذا هبَّت رياحك فاغتنمها.

أسأل الله -جل وعلا- أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

الانشغال بالآخرة

*** إنما الحياة الدنيا متاع:**

إن العاقل هو الذي يجعل الآخرة أكبر همه، ورضا الله تعالى أسمى غاياته ومراده من هذه الحياة الدنيا؛ فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع زائل.

فلا ينبغي أن نشغل أنفسنا بهذه الحياة الدنيا لدرجة ننسى عندها أننا في سباق حقيقي ... قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾(١).

وقال أيضًا (جل وعلا): ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٢) والآيات كثيرة.

فهذه فرصة عمرك ولا تأتي إلا مرة واحدة؛ فلابد أن تنتهزها وتستغلها كما يجب: «إذا هبَّت رياحك فاغتنمها».

فإذا كان أهل الدنيا والمتع والشهوات إذا قلت لأحدهم ناصحًا له شفيقًا عليه: يا أخي..إن الدنيا لم تُخلق لنستمتع بما فيها وننسى آخرتنا وعلاقتنا بربنا سبحانه؛ فلماذا تأخذ هذا وتدع هذا؟ قال لك: إنني لن أعيش إلا مرة واحدة وأريد أن أتمتع بكل لحظة فيها!!

*** ألا بذكر الله تطمئن القلوب:**

ووالله الذي لا إله غيره إن المتعة الحقيقية في هذه الحياة الدنيا إنما تكون بأُنس القلب بالله ومحبته له والقرب منه، وما عدا ذلك فمتعة مؤقتة

---

(١) سورة المطففين: الآية: (٢٦).

(٢) سورة الحديد: الآية: (٢١).

وسعادة زائفة، وحينما يأنس القلب بالله تعالى وحده تستوي عند صاحبه كل الأمور..حلوها، ومُرها؛ فهو راضٍ بقضاء الله وقدره ويعلم يقينًا أن ما قدَّره الله تعالى له إنما هو الخير بعينه؛ فيطمئن قلبه ويسكن فؤاده وتقر عينه، وهذا ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن فكل أمره له خير، إن أصابته سراء شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صَبَر فكان خيرًا له..كما قال الحبيب ﷺ.

ومن أروع الأمثلة على ذلك ما كان من خبر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما جاء به بعض علماء زمانه إلى السلطان رغبة منهم في إيقاعه في الفتنة، حيث قال له السلطان: سمعت أنك تريد مُلكي! فقال ابن تيمية متبسمًا: مُلكك؟! لا والله..فإن ملكك وملك آبائك وأجدادك وملك العرب والعجب لا يساوي عندي جناح بعوضة.

وكان في ذلك يتأول حديث النبي ﷺ: **«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**(١).

ثم قال ابن تيمية: والله إني منذ عقلت رشدي أريد جنة عرضها السماوات والأرض.

فلما قال ذلك أثار غضب السلطان فأشار إلى رجاله بأن يُدخلوه السجن؛ فنظر إليهم ابن تيمية وقال: ماذا يصنع بي أعدائي؟! فإن بستاني في صدري -يقصد القرآن- وهو معي أينما ذهبت؛ فقتلي شهادة، ونفيي -أي: إخراجي من بلدي- سياحة، وسجني خلوة -أي: بيني وبين

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٠) كتاب الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٢).

ربي - فالمأسور من أسره هواه والمحجوب من حُجب عن ربه ... ثم راح الإمام يقرأ القرآن حتى ختم القرآن بضعًا وثمانين ختمة، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(١) فاضت روحه إلى بارئها جل وعلا، وختم الله تعالى له بالحسنى.

وهذا ما جرى عليه عادة الكريم (جل وعلا): أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث يوم القيامة عليه؛ فمن عاش على طاعة الله والبذل والتضحية في سبيل الدعوة إليه كانت البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

*** هل أنت راضٍ عن ربك؟!:**

والحق أن من ينظر إلى هذا السؤال لأول وهلة تأخذه الدهشة؛ فقد يكون من المعقول أن يسألني أحدهم: هل تظن أن الله تعالى راضٍ عنك؟ فأقول له مثلًا أنا أتمنى ذلك، وأسأل عن السبل الموصلة إلى هذه الغاية العظيمة، ولكن العجب في ارتباط رضاك عن الله برضا الله عنك، ولكن كيف ذلك؟!

إذا علمت يقينًا أنك راضٍ عن الله -أي: راضٍ عن قضاء الله وقدره- فاعلم أن الله تعالى قد رضي عنك.

فهذا الحسن بن علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ - ربيب بيت النبوة - سمع رجلًا يتوجه إلى الله بالدعاء قائلًا: اللهم ارضَ عني؛ فقال له الحسن: لو أنك رضيت عن الله لرضي الله عنك؛ فقال الرجل: أنا؟!..إني عبدٌ فقير ضعيف كيف

(١) سورة النساء: الآيتان: (٥٤، ٥٥).

أرضى عن الله؟! فقال الحسن: إذا سُررت بالنعمةُ سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، واعلم أن الله تعالى سيرضى عنك لذلك.

ومن العجب أنك تأتي أحدهم في حال رضائه فتسأله عن أحواله؛ فيُقَبِّل يديه ظاهرًا وباطنًا ويحمد الله تعالى ويثني عليه وتراه في فرحة ونشوه، وإذا ما ابتلاه الله تعالى فضيَّق عليه بعض الشيء وجدته متذمرا يشكو ربه جل في علاه إلى خلقه، ووالله بئس العبد هو..إن كان لا يعرف الله ولا يسأله إلا في الشدة، فالحياة الدنيا لا يقرّ لها قرار ولا تستقر على حال ... قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[1] ، قال علماء التفسير: أي يرفع أقوامًا ويضع آخرين.

* **هل من مشمر؟:**

ومتاع الحياة الدنيا زائف وسعادتها وَهْمٌ؛ فلا راحة فيها إلا باتباع منهج الله وسنة الحبيب رسول الله ﷺ؛ حتى نصل إلى مرضاة الله تعالى وإلى جنته ودار مقامته.

سُئل الإمام أحمد رحمه الله : يا إمام متى الراحة؟ فقال: لا راحة إلا مع أول قدم نضعها في الجنة.

والجنة سلعة الله وهي أغلى ما يكون، فهل من مُشمِّر عن ساعد الجد؟

فلا سبيل إلى الحصول عليها والوصول إليها إلا بالازدياد في الطاعات من قراءة للقرآن وقيام لليل إلى غير ذلك من الأعمال التي يحبها الله ورسوله ﷺ والموفَّق من وفقه الله ... وأنا -حبيبي في الله-

---

(١) سورة الرحمن: الآية: (١٩).

أخشى عليك أن يقال لك: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[١]؛ فاعمل على ألا يسبقك أحد إلى جنة الرحيم الرحمن.

وإذا أردت ذلك حقًّا فلا تدع في حياتك وقتًا لتضيعه، وإنما اسعَ إلى هذه الغاية السامية، ولتعلو همتك حتى تعانق السحاب؛ فلا يشبع مؤمن من خير حتى يكون مُنتهاه الجنة، وما من أحدٍ يفارق هذه الحياة الدنيا إلا وتمنَّى أن يعود إليها صالحًا كان أو غير ذلك.

أما الصالح فيود أن يعود إلى الدنيا لتُرفع درجته في الجنة درجته في الجنة لما رآه من كرامة لأصحاب الفردوس والدرجات العلا -جعلنا الله وإياكم معهم-.

وأما العاصي فيود أن لو رجع إلى الدنيا ليصلي ركعتين أو يسجد سجدة لله يتوب إليه فيها ويغير بها حاله من حالٍ إلى أحسن حال.

وصاحب الهمة العالية يحتاج إلى عمر فوق عمره ليحقق ما يصبو إليه ويهدف إلى تحقيقه ... ومن الناس من لا ينام أكثر من ساعتين أو ثلاثة في اليوم والليلة فتراه بين تعليم، وردٍّ على فتاوى، وتحقيق، وإصلاح بين الناس، وغير ذلك من الأعمال التي يتشرف الواحد بأن يشغل نفسه بها؛ بدلًا من أن يشغلها بسفاسف الأمور ودناياها؛ فالله جل وعلا يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها، أي: أسافلها.

والواحد منا لا يعيش حياته مرتين؛ فقد لا تأتي الفرصة لعمل مثل هذه الأعمال النبيلة في العمر إلا يسيرًا؛ فإذا هبَّت رياحك فاغتنمها ...

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

فإذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيم أقامك.

فإذا وفقك الله لعمل الخير، وخير العمل فاعلم أن هذه علامة لرضا الله تعالى عنك، وأنه استخدمك لنصرة دينه ونشر دعوته وتبليغ رسالته.

قال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ قَالَ: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»(١).

والمرءُ لا يُقاس بسنوات عمره، وإنما بما قدم من أعمالٍ جليلة نافعة لنفسه ودينه ومجتمعه؛ فمن الناس من يعيش ويموت ولا ينفع نفسه ولا غيره ومنهم من يصنع تاريخًا لأمة بأسرها، ويترك بصمة واضحة تخلد ذكره بعد موته.

وكما يقول القائل:

أَدِمْ لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمرٌ ثاني

وقال آخر:

الناس صنفان: موتىٰ في حياتهم ... وآخرون ببطن الأرض أحياء

واعلم -حبيبي في الله- أنك ستقف وحيدًا فريدًا بين يدي الله تعالى وستُسأل حينها عن القليل والكثير، قال ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»(٢).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢١٤٢) كتاب القدر، وأحمد (٣/ ١٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٥).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٤١٦) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٩٩).

وقد قال أحدهم لأخيه حين سمعه يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، قال له: أتعلم معناها؟ قال: ما معناها؟ فقال له: من عَلِم أنه لله راجع عَلِم أنه بين يدي الله موقوف، ومن عَلِم أنه بين يدي الله موقوف عَلِم أنه مسئول ومن عَلِم أنه مسئول فليُعد لكل سؤال جوابًا..

ولقد صدق القائل حينما قال:

ولو أَنَّا إذا مُتنا تُركنا ... لكان الموت راحة كل حيٍ

ولكنَّا إذا متنا بُعثنا ... ونُسأل وقتها عن كل شيءٍ

*** عملٌ قليل وأجرٌ جزيل:**

قضى الله جل في علاه أن تكون أعمار هذه الأمة بين الستين والسبعين وقليلٌ منهم من يزيد عن ذلك كما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى -بأبي وهو أمي وروحي ﷺ- ولما كانت أعمارهم قليلة مقارنة بالسابقين من الأمم الغابرة اقتضت حكمة العليم سبحانه أن يضاعف أجورهم على أعمالهم فيعطى الأجر العظيم على العمل اليسير إذا صادف إخلاصًا من العبد لربه ... فلا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طليق كما قال ﷺ.

فأنت لا تدري ما هي الطاعة التي تكون سببًا في رضا الله تعالى عنك وسبيلًا لفوزك وسعادتك وفلاحك في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّار تِلْقَاء وَجْهِه، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ**

تَمْرَةٍ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(١).

وعلى ذلك فتبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صدقة..وهكذا.

والشيء بالشيء يُذكَر؛ ولأننا نرى كثيرًا من الناس يتهاون في كلماتٍ يُخرجها دون أن يُلقى لها بالًا فتكون سببًا في هلاكه، فقد بيَّن ﷺ هذا الأمر وحذَّر منه، كما جاء عند الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**»(٢).. يا الله كل ذلك بسبب كلمة؟!

نعم .. وهل يكب الناس يوم القيامة على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟

فبكلمة تدخل في الإسلام، وبكلمة تخرج منه -عياذًا بالله من ذلك- وبكلمة تستحلَّ فرج امرأة، وبكلمة تقوم الحروب بين الدول والقبائل، وبكلمة طيبة يسود الحب والوئام والسلام بين الناس.

والمسلم كحلقة في مجتمعه الذي يعيش فيه يؤثر فيه ويتأثر به، فاختر لنفسك إما أن تكون رجلًا ذا قيمة ومكانة عالية تبذل الغالي والنفيس في سبيل رفعة شأن هذا الدين، وإما أن تكون على هامش الحياة تعيش

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٣٩) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣١٩) كتاب الزهد، وابن ماجة (٣٩٦٩) كتاب الفتن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٩).

صغيرًا وتموت صغيرًا.

فهناك كثير من الناس ممن يعيشون ويموتون ولا تجد لهم أثرًا ولا نفعًا لأنفسهم أو لغيرهم وهؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾(١).

أما المؤمن فكما يقول حَبر هذه الأمة ابن عباس: «فالمؤمن إذا مات تبكيه السموات والأرض» أي: تبكي لفراقه، حتى أن موضع سجوده ليبكي لفقده، وكيف لا وهو يسير وفقًا للمنهج الذي وضعه له ربه، ليؤدي مهمة سامية ألا وهي تعبيد الكون كله وتهيئته لعبادة الله رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(٢).

* **التخلية قبل التحلية:**

ينبغي لمن أراد أن يُطيل حياته ويوظف إمكاناته طلبًا للآخرة وما عند الله من الثواب العظيم، ينبغي عليه أولًا: أن يتخلص من أدران المعاصي والشهوات والشبهات... ولكي يصل إلى ذلك فلا بد أولًا أن يملأ قلبه بحب الله ويجعل همومه كلها همًا واحدًا هو هم آخرته.

لابد أن يطهر قلبه من كل الأهواء والملذات، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾(٣).

انظر وتأمل -أخي في الله- فلقد قدَّم الله -جل وعلا- الكفر بالطاغوت- وهو كل ما يُعبد من دون الله زورًا وبهتانًا وظلمًا وعدوانًا- على الإيمان

---

(١) سورة الدخان: الآية: (٢٩).

(٢) سورة الذاريات: الآيات: (٥٦-٥٨).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٦).

بحيث لا يصح الإيمان ولا تنبت بذوره في قلب امرء حتى يكفر بكل ما يُعبد من دون الله جل في عُلاه.

وهذا لا يعني أن يزهد المسلم في الدنيا ويتقشف ويترك زخارفها وزينتها ويعتزل الناس كما يظن البعض..كلا؛ فلا مكان لمثل هذه الصورة في ديننا الحنيف وإنما أعني بذلك أن يأخذ المسلم من الدنيا بالقدر الذي يوصله إلى الآخرة، وأن يعتقد في أنها -أي: الدنيا- وسيلة لا غاية، وأنها معبرة ومزرعة للآخرة، فلا يجعل الدنيا أكبر همه، ولا مانع من أن يكون من الأثرياء «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[1].

وكم من الصحابة اشتهروا بكثرة أموالهم كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهم.

ولكن غناهم لم يجعل الدنيا في قلوبهم وإنما جعلها في أيديهم وتحت أقدامهم، وكيف لا وأنت إذا بحثت في قلب أحدهم فإنك لا تكاد تجد مكانًا فيه لحب أحد بعد حب الله وحب رسوله ﷺ وحب من أُمروا بمحبتهم قربة إلى الله سبحانه.

*** الدنيا ساعة فاجعلها في طاعة:**

إن عمر الدنيا قصير فلا تغتر بها، واعلم أن الموت أقرب إليك من شراك نعلك، فاعمل لذلك اليوم؛ فالدنيا عمل ولا حساب والآخرة حساب ولا عمل، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[2]، وقال (جل وعلا): ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٧٣٠٩)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٧٥٦).

(٢) سورة الروم: الآية: (٥٥).

عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ ﴾(١) .

والنبي ﷺ يخبرنا أن يوم القيامة يبلغ طوله خمسين ألف سنة ... هذا اليوم يمر على المؤمنين كما بين صلاتي الظهر إلى العصر ... وهم في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، ولذا وجب على كل عاقل أن يجعل هذه الدنيا مطية للآخرة يتزود فيها من التقوى والعمل الصالح الذي يلازمه في قبره بعد أن يترك الأموال ويتخلى عنه الأهل والأصحاب.

*** لماذا نحب الدنيا ونكره الموت:**

يقول القائل:

إن لله عبادًا فُطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعلوها لُجَّةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سُفنا

ولقد سأل بعضهم أحد الصالحين: لماذا نحب الدنيا ونكره الموت؟

فقال ببساطة شديدة: لأنكم عمَّرتم دُنياكم وخربتم أُخراكم ... ونضرب لذلك مثالًا ليتضح المقال.

هب أن لك بيتًا قديمًا وتريد أن تنتقل إلى مستوى أفضل للمعيشة فاشتريت بيتًا آخر؛ فلا شك أنك سوف تسعى في إعمار هذا البيت الذي سوف تنتقل إليه، وهذا ما تقتضيه الحكمة ويقبله العقل، ولأن كثيرًا من الناس -إلا من رحم ربي - ركنوا إلى الدنيا، وأهملوا الآخرة وكرهوا الموت لأنهم لما يستعدوا له بعد.

زد على ذلك تلك الآفة التي استشرت في الناس، وبدَّلت أحوالهم،

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان: (١١٢، ١١٣).

وقست بسببها قلوبهم ألا وهي: «طول الأمل»؛ فيود أحدهم لو يُعمَّر أبد الآبدين ويأخذ من الدنيا كل ما يشتهيه من حِلٍّ أو من حرام فلا فرق عنده.

نوجه هذه الرسالة إلى من يخططون لمائة سنة قادمة ويظنون أنهم لا يموتون .... نقول لهم إن الموت يأتي بغتة دونما سابق إنذار... وتخيل معي لو أن طالبًا في مدرسته أو كُليته فاجأه أستاذه بامتحانه فماذا يفعل لو لم يكن مستعدًا؟ وكما يقال: «عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان».

فبينما يعاني الكثيرون في هذا اليوم العصيب المهيب من الظمأ والحسرة والخوف الشديد والفزع الرهيب، نجد أُناسًا يستظلون بعرش الرحمن جل وعلا ويأكلون من زيادة كبد الحوت ويشربون من يد النبي ﷺ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

هذا في أرض المحشر ....، ثم يُدخلهم الله الجنة التي أعد الله فيها لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وعلى خطر على قلب بشر؛ فإذا غمس أفقر أهل الدنيا وأشدهم بلاء غمسة واحدة في الجنة نسي كل شقاء وبأس وبلاء رآه في الدنيا.

وإذا دخل من باب الريان شبع من كل متعة حُرم منها في الدنيا.

قال ﷺ: **«يُنَادِي مُنَادٍ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»**[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

ولا شك أن دخول الجنة يحتاج إلى بذل جهد، وبذل الجهد يحتاج إلى همة لا تفتر..

*　　*　　*

علو الهمة

وصلًا بما سبق عن حديثنا عن أن علو الهمة تستوجب على صاحبها أن يقوم بالتخلية قبل التحلية بأن ينزع من قلبه حب الدنيا ويلتفت بقلبه وجوارحه إلى الآخرة، وعليه وهو يفعل ذلك أن يحافظ على التوازن بين ما يلزمه من الدنيا وما يسعى إلى تحقيقه وصولًا إلى مراضي الله تعالى وجنته، فلا تعارض بين أن يكون غنيًا ثريًا وجميلًا في مظهره ومرموقًا في مجتمعه، وبين أن يكون تقيًا ورعًا عابدًا طائعًا لله رب العالمين، فهذا لا يتعارض مع ذاك بحالٍ من الأحوال فيجمع بذلك بين خيري الدنيا والآخرة وهذا هو الفلاح والنجاح الذي لا يخالطه خسران ولا كساد.

*** النية تحول العادة إلى عبادة:**

وهناك أمر من أخطر ما يكون، وتكمن خطورته في أن كثيرًا من الناس لا يفطنون إليه، وهو ما يتعلق بتوجيه النية وتصحيحها وهو ما يعرف بـ(الاحتساب)؛ فهو شرط رئيس في قبول العمل الصالح، وبدونه يصير العمل كـ(خطاب بلا عنوان) فأنَّى له أن يصل؟

والمقصود: من الكلام أن من الناس من يعمل عملًا بلا نية فلا أجر له عليه، ومنهم من يعمل عملًا بنية ويأخذ أجرًا على قدر نيته، ومنهم من يعمل نفس العمل ولكن بنيات متعددة فيأخذ الأجر أيضًا على قدر هذه النيات؛ فمثلًا: لو أن رجلًا ذهب إلى عمله وقام بواجبه رغبة منه في الحصول على راتبه في نهاية الأمر -أي: المقابل المادي- فقط؛ فهذا لا يُعَدُّ عملًا صالحًا، أما من نوى أن يؤدي عمله باتقان ليكون قدوة لغيره

وأن يعف نفسه وأهله عن السؤال وأن ينفق هذا المال في وجوه الخير إلى غير ذلك، كان أجره على قدر نيته، ولذا تجد من الناس من يعيش ثلاثين عامًا وتجده إن شاء الله في الفردوس الأعلى من الجنة، وآخر يعيش سبعين سنة ويدخل الجنة في مرتبة أو درجة أقل من ذلك، وهذا ما يقال عنه «نية المرء خير من عمله» فقد ينوي رجل أن يعمل عملًا صالحًا ويحال بينه وبين ذلك، ولكنه يأخذ الأجر كاملًا بنيته، غير أنه يبقى الفرق واضحًا بين الذي ينوي ويعمل وبين الذي ينوي ولا يعمل سواء كان عدم إتيان العمل بقصد منه أو رغمًا عنه، والأمر مداره أولًا وآخرًا على إخلاص القلب وإرادة وجه الله تعالى بالعمل الصالح.

فقد يعتاد المرء على أعمالٍ يومية تتكرر بصورة منتظمة؛ فإذا احتسب فيها الأجر وصحَّت فيها نيته تحول العمل إلى طاعة وعبادة لله رب العالمين كالأكل والشرب والنوم، وفيما يتعلق بالنوم أود أن أنبه إخوتي وأحبتي في الله إلى مراعاة آداب النوم فإنه من الأهمية والخطورة بمكان ... وأود الإشارة هنا إلى ثلاثة أمور:

أولها: سيد الاستغفار: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ موقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»**[1].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣٢٣) كتاب الدعوات.

لأنك إن قلته قبل نومك ومُتَّ من ليلتك دخلت الجنة وإن أصبحت فقلته أيضًا دخلت الجنة، فيا لفضل الله وكرمه على عباده ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

ثانيها: آية الكرسي..فمن قالها في ليلة فليس للشيطان عليه سلطان ولا سبيل، ولا يزال ملك يحفظه بأمرٍ من الله حتى يصبح.

ثالثها: قراءة سورة الملك «تبارك» وذلك لما رواه الحاكم بسند صحيح أن الحبيب النبي ﷺ قال: «**هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[1]، وذلك لأنها تدافع عن صاحبها فيصبح قبره روضة من رياض الجنة يمده الله فيه بالروح والريحان والنور والرضوان، لما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ آيَةً خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الجَنَّةَ وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**»[2].

فعندما تأوي إلى فراشك عليك أن تستحضر هذه النية أنك إنما تريد بنومك هذا أن تجدد نشاطك، وتشحذ قوتك للتقوِّى على عبادة الله تعالى بالقيام لصلاة الليل التي هي شرف المؤمن، ثم لصلاة الصبح في أول وقتها في الصف الأول خلف الإمام ثم تجلس حتى تشرق الشمس وترتفع في السماء بمقدار رمحين فتصلي ركعتين فتأخذ أجر حجة وعمرة تامتين كما أخبرنا الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٨٩٠) كتاب فضائل القرآن، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٤٠).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٨٩١) كتاب فضائل القرآن، واحمد (٧٩١٥)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٦٤٤).

ولذلك ولأهمية هذه النية لو أن واحدًا نام وقد استحضر هذه النية الطيبة ثم لم يقم للصلاة لسبب أو لآخر خارج عن إرادته، أتدرون ماذا يفعل الله معه؟ يعطيه الأجر كاملًا ويكون النوم صدقة من الله عليه.

ولذا فإنه لما قال النبي الكريم ﷺ لصحابته وهو يحدثهم عن أعمال الخير: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا**»(١).

قال يحيى بن كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل، وقال أبو سليمان الداراني: طوبى لمن صحَّت له خطوة يريد بها وجه الله، وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ لابنه عبد الله: يا بُني انوِ الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت خيرًا.

*** ما عندكم ينفد وما عند الله باق:**

والمسلم الواعي يعلم أنه لم يُخلَق في هذه الدنيا لجمع المال والتكاثر في الأولاد وإرضاء شهواته وغرائزه، وإنما خُلق ليَعْبُد الله تعالى ويُعَبِّد الكون كله لله.

ولذا وجب عليه قبل الشروع في عمل ما أن يسأل نفسه سؤالًا: هل هذا العمل يقربني من الله ومن الجنة أم لاً؟

فإن كانت الإجابة بالإيجاب فبها ونعمت، وإن كانت غير ذلك فعليه أن يعيد حساباته وأن يتخلص من كل العوائق ويذلل كل العقبات التي تحول بينه وبين مراضي الله تعالى.

ومن أمثلة هذا الصنف من الرجال: جاءني أخٌ كريم كان قد أقام

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة.

مشروعًا ضخمًا[١]، وشجعته على ذلك، ونصحته بألا ينشغل بهذا المشروع عن الطاعة والعبادة، ثم علمت بعد ذلك أنه ترك هذا المشروع وأخذ محلًا صغيرًا، فسألته لماذا فعلت ذلك؟ فقال لي: إن هذا المحل الكبير كان يشغلني عن الطاعة ولاسيما الصلوات الخمس فكنت لا أستطيع أن أصليها إلا في المحل، ولم أستشعر الخشوع والسكينة في الصلاة، أما الآن فأنا والحمد لله أربح ربحًا طيبًا من هذا المحل الصغير وأستطيع أن أُغلقه في وقت الصلاة وأذهب لأصلي في المسجد مع جماعة المسلمين، كما أحضر دروس العلم وأزور أصدقائي وأصل رحمي والحمد لله رب العالمين.

وهذا مثال يُحتذى لمن أراد الوصول إلى جنة رب العالمين، فلا تعارض مطلقًا بين الدنيا وما فيها من زينة وبين أن أطلب ما عند الله جل وعلا من المثوبة، والعبرة ليست بكثرة المال وإنما هي بالبركة التي قد يضعها الله تعالى فيه أو ينزعها منه؛ فالبركة في الأموال رزق من الله تعالى، وما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، فمن الناس من يعيش بالقليل من المال ولكن يبارك الله له فيه، ومن الناس من عنده من الأموال ما ليس عند الكثيرين ولكن مُحقت البركة منه، فكان كالذي يأكل ولا يشبع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واسمع بأذن القلب هذه الآية التي تؤكد هذا المعنى وترسخه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) وليس معنى ذلك أننا نذم المشاريع الكبيرة بل كما قال النبي ﷺ «نعم المال الصالح للعبد الصالح».

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾(١) والجزاء من جنس العمل فإذا أطاع العبد ربه واتَّبع نبيه ﷺ كان الفتح من الله والبركة والسعادة في الدارين، وإلا كان العقاب الأليم والعذاب المقيم جزاء بما جناه في حق مولاه (جل وعلا).

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: «اللهم إني لا أسألك رزقًا قد قدرته لي ولكني أسألك البركة في هذا الرزق» ... ولكن الحائل بين هذه البركات إنما هي معاصي العباد، ولذا عندما تتلاشى المعاصي ولا يبقى إلا الصالحات من الأعمال تنزل البركة من السماء وتتفجر البركة من الأرض، ولذلك عندما ينزل نبي الله عيسى عليه السلام في آخر الزمان كما أخبر بذلك نبينا تجد بركة عجيبة وتعيش البشرية أزهى عصورها في رخاء لم تشهده من قبل .... وذلك كما جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(٢).

أي بركة هذه بالله عليكم؟!

يفيض المال حتى لا يجد من يأخذه وتكون حينها السجدة خير من الدنيا وما فيها كما قال ﷺ.

وفي رواية للإمام مسلم أنه ﷺ قال: «**ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي**

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٤٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٥٥) الإيمان.

الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لتكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لتكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لتكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ»[1].

سبحان الله!! إلى هذا الحد؟

نعم.. إذا وضع أحدهم بذرة على الصخرة الصمَّاء الملساء التي لا يتصور عاقل أنها تنبت، فإنها تُنبت ... إنها البركة من الله جل وعلا... وليس هذا فحسب، وإنما قال أيضًا ﷺ: «وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ[2] حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِي الْحَيَّةِ فَلَا تَضُرَّهُ وَتُفِرَّ الْوَلِيدَةُ الأَسَدَ فَلَا يَضُرُّهَا وَيَكُونَ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا»[3].

*** إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق:**

لا شك أن المؤمن الصادق إذا سمع أمر الله تعالى بفعل الخيرات وترك المنكرات بادر إلى الامتثال للأمر واجتناب النهي وهذا دليل قاطع على إيمانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4].

ولكن هناك أمر خطير يقع فيه -عن غير قصد- كثير ممن يطرقون باب الالتزام فتجده يقبل على الطاعة وفعل الخير بقوة واندفاع زائدين عن الحد وتجده يبالغ في ذلك ويشق على نفسه، ثم يُفرِّط بعد ذلك ...

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة – الرِّسْل: اللبن.

(٢) وتنزع حمة كل ذات حمة، أي: يُنزع سم كل ذات سم.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجة (٤٠٧٧) كتاب الفتن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٧٥).

(٤) سورة النور: الآية: (٥١).

أو ينشغل بالنافلة عن الفريضة ... وهذا من تلبيس الشيطان عليه؛ فانتبه أخي في الله؛ فقد يشغلك الشيطان بقيام الليل عن صلاة الفريضة كما يحدث مع الكثيرين ولذلك قال النبي ﷺ: **«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»**(١).

فأنت إذا أردت أن تُقبل مثلًا على قيام الليل فابدأ بركعتين خفيفتين وواظب عليهما ... قال ﷺ: **«أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»**(٢)..وكانت عائشة رضي الله عنها تقول عنه ﷺ أنه كان إذا عمل عملًا أثبته(٣).

أقول لك أخي الكريم: داوم على هاتين الركعتين ثم إذا اعتدت عليهما اجعلهما أربعًا ثم ستًا ثم ثمان وهكذا؛ فالتدرج في مثل هذه الأمور مطلوب حتى لا يُقبل العبد على الطاعة جملة واحدة ثم يتركها جملة واحدة عياذًا بالله من ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾(٤)، فلا ينبغي لأحد أن يتشدد في الدين ويجعل من نفسه وصيًا على الدين ومراقبًا على العباد يكفِّر هذا ويفسِّق هذا ويرمي هذا بالبدعة وهذا بالزندقة، فمن أنت حتى تحكم على هؤلاء؟ كما لا ينبغي له كذلك أن يتهاون في أمور دينه ويبيعه بعَرَضٍ من الدنيا كما يفعل الكثيرون ممن يتتسبون لهذا الدين.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٩) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٧٨٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) أثبته، أي: داوم عليه.

(٤) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

* **فقه الدعوة إلى الله:**

وإذا أردنا أن نتكلم عن فقه الدعوة إلى الله تعالى فلا سبيل لنا إلى فهم ذلك إلا إذا تعرضنا إلى جانب من حياته ﷺ كداعية، حتى يتعلم الدعاة كيف يصلون إلى قلوب الناس وإلى عقولهم.

نحن نريد داعية عالمًا بأحوال الناس وما يحتاجون إليه، ويخاطب كل واحدٍ منهم على قدر فهمه وعلمه وبالطريق والأسلوب الذي يناسبه.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[١].

فالدعوة إلى الله إنما تكون بكلمة طيبة وابتسامة رقيقة ولمسة حانية.

وهذا هو رسولنا ﷺ الذي تحمَّل في سبيل الدعوة إلى الله ما تنوء الجبال الراوسي بحمله، فلقد كُسرت رَباعيته، وشُجَّ رأسه الشريف، وأُدميت قدماه، وأُدخل المِغْفَر في وجنتيه الشريفتين، ورُمي بالسحر والكهانة والجنون وأُلقي سلا الجزور النجس على ظهره وهو يصلي عند الكعبة، وغير ذلك من الإيذاء الذي لا يتحمله بشر على الإطلاق، وعلى الرغم من ذلك كان يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ....

صدق ربي وأحق القول قول ربي: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

كما كان النبي ﷺ على الرغم من همومه ومشاغله وإدارته لشئون الدولة المسلمة كان يداعب أصحابه ويمازحهم وكان باسم المُحيَّا دائم البِشْر منفرج السريرة، لا يُرى غاضبًا إلا أن تُنتهك حرمة من محارم الله تعالى.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٧).

فهذا أنس بن مالك الذي خدم النبي ﷺ عشر سنين يقول: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا أَعْلَمُهُ قَالَ لِي قَطُّ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا وَلَا عَابَ عَلَيَّ شَيْئًا قَطُّ»(١).

ولقد عاش أنس حتى أدرك التابعين فلما سألوه: هل كنتم تضحكون على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: «نعم كنا نضحك ونضحك ونضحك ولكن الإيمان في قلوبنا كالجبال».

* وإليك بعض المواقف التي نستدل منها على ذلك:

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ جاء إلى أحد الصحابة (اسمه زاهر) فأغمض عينيه، وهو واقفٌ في السوق يبيع الثياب، فقال النبي ﷺ مداعبًا إياه: «**من يشتري هذا العبد**»، وسيدنا زاهر لا يعلم من يقول ذلك، فلما استدار ورأى النبي ﷺ قال: «**إِذًا وَاللهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا**(٢) **يا رسول الله**»؛ فقال ﷺ: «**لَكِنَّكَ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ**»(٣)، أي: أن لك عند الله قدرًا ومكانة.

ومن ذلك أيضًا ما رواه الإمام أحمد أن النبي ﷺ أمر الجيش بالتقدم عندما كان عائدًا من إحدى غزواته، ولكنْ ما الحكمة من ذلك؟

إنه يريد أن يمازح زوجته عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ فقال لها: «**تُسَابِقِينِي؟**» فقالت: نعم، فتسابقا فسبقته، لأنها كانت خفيفة وسريعة، ولكن النبي ﷺ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٠٩) كتاب الفضائل.

(٢) كاسدًا، أي: لا يساوي شيئًا، وهذا من تواضعه رضي الله عنه وأرضاه.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٢٢٣٧)، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل» (٢٠٤).

لم ينسَ ذلك، فبعد بضعة أشهر وكانت السيدة عائشة قد سمنت وثقل وزنها بعض الشيء قال لها النبي ﷺ: «تُسَابِقِينِي؟» قالت: نعم، فتسابقا..فسبقها، فضحك النبي ﷺ، وقال: «هَذِه بِتَلْكَ»[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة ولكن حسبُنا أن نتعلم من رسولنا ﷺ كيف كان يدعو الناس إلى ربهم ويُعلمهم أمور دينهم ويرحمهم ويحمل همهم ولا ينام له جفن ولا يقر له قرار حتى يُدخل الناس جميعًا في رحمة الله رب العالمين، وأقول: جميع الناس وليس المسلمين فقط.

فهلا اقتدينا واهتدينا بهدى رسولنا ورجعنا إلى كتاب ربنا لعل الله (جل وعلا) أن يختم لنا وإياكم بخاتمة السعادة أجمعين..إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٧٨) كتاب الجهاد، وأحمد (٢٥٧٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٠٧).

أيقظ همتك

*** أول الغيث قطرة:**

إذا أردت الوصول إلى مرضاة ربك (جل وعلا) فلابد أن تبادر بترك المعاصي ما ظهر منها وما بطن حتى يتمكن القلب من مواصلة السير الحثيث على هذا الطريق الوعر المليء بالعقبات، وهذا لا يكون إلا بالاستعانة بالله أولًا ثم باتخاذ الأسباب الموصلة لذلك.

وفي الحديث القدسي يقول ربنا تبارك وتعالى: «**إِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[1]، أي: إذا أقبل العبد طائعًا مختارًا إلى ربه طامعًا فيما عنده من المثوبة والعطاء الجزيل تاركًا زخارف الدنيا ومتعها الزائفة وراء ظهره فإن الله يُقبل عليه برحمته وإحسانه ... وهذا هو الجهاد الحق الذي ينجي صاحبه في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

والخير كل الخير في مخالفة النفس ومجاهدتها... ذلك أنها أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي سبحانه ... فالمعصية لها جاذبية شديدة ... وهذا هو مكمن الخطورة فيها، وقَلَّ من يقاوم هذه الجاذبية، ولذا قال ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) سورة العنكبوت: الآية: (٦٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٢٣) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

أي: أن اتباع الشهوات هو الذي يوصل صاحبها إلى الهاوية وأن الصبر على المكاره من التكاليف التي يصعب على النفس تقبُّلها وتحمُّلها هو الذي يوصل صاحبها إلى الجنة وإلى رضا الله (جل وعلا).

ولا يفوتنا أن ننبه على أن العبد إذا هداه الله تعالى ووفقه للطاعة فلا يغتر بطاعته، وليعلم أنه لولا توفيق الله تعالى له لما عمل عملًا صالحًا.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1]؛ فذمُّ النفس من أهم ما ينبغي أن يفطن إليه السالكون إلى الله حتى لا يوقع الشيطان في قلوبهم العجب وهو من أخطر ما يكون.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الرجل الأول في هذه الأمة بعد نبيها ﷺ الذي يكفي أن نقول من مناقبه أن النبي ﷺ قال في حقه: «**مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ**[2] **إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِيهِ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»[3].

هذا الرجل العظيم أتدرون ماذا قال؟ قال رضي الله عنه: «لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدميَّ في الجنة».

وهذا عمر بن الخطاب فاروق الأمة رضي الله عنه الذي له من المناقب الكثير والكثير يقول: لو نادى مُنادٍ من قِبل الله تعالى يوم القيامة أن كل الناس في الجنة إلا رجلًا واحدًا لقلت أنه عمر.. فماذا نقول نحن بالله عليكم؟!

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٤٣).

(٢) يدًا، أي: فضلًا.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٦١) كتاب المناقب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦١).

هؤلاء ومن حذا حذوهم..هم الرجال حقًا الذين مدحهم الله فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبُّه بالرجال فلاحُ

*** المرء مع من أحب:**

ولابد لكل من أراد أن تعلو همته أن يكون له هدفٌ يسعى إلى تحقيقه وأسوة وقدوة يقتدي بها ويسير على دربها حتى يصل إلى غايته ومراده، فمن تشبه بقومٍ فهو معهم، ونحن لا نرضى عن رسول الله ﷺ بديلًا نهتدي بهداه ونقتفي أثره فهو أسوتنا وقدوتنا ... الذي إن اتبعناه فسوف نسعد في الدنيا والآخرة.

جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيًا جاء ليسأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام غير أني أحب الله ورسوله؛ فقال ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[2].

يقول أنس رضي الله عنه: فوالله ما فرحنا بعد الإسلام بشيءٍ مثل فرحنا بهذا الحديث فأنا أحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر وأرجو أن أُحشر معهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم .... ونحن (ورب الكعبة) نحب رسول الله ﷺ وصحابته والتابعين والصالحين في كل زمانٍ ومكان، ونسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرتهم وإن لم نعمل بمثل أعمالهم.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٢٣).

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨) كتاب المناقب، ومسلم (٢٦٣٩) كتاب البر والصلة والآداب.

* وهذا صحابي آخر يراه النبي ﷺ يبكي؛ فيسأله ما يُبكيك؟

فقال: يا رسول الله والله لأنتَ أَحَبُّ إِلَيّ من أَهلِي وَوَلَدي وَوَالِدَيَّ وَمِنَ النَّاسِ أجْمَعينَ ... وَإِنِّي لأَكُون فِي الْبَيْت فَأَذْكرك فَمَا أَصْبر حَتَّى آتِي فَأَنْظر إِلَيْك ... فَإذا مَا تَذكرت مَوْتِي ومَوتك علمت أَنَّك إِذا مِتَّ رُفعتَ فِي الْجنَّة مَعَ النَّبيين ... وَأنا إِذا مِتُّ وَدَخلت الجَنَّة فَإِنِّي أَخْشَى أَلا أَرَاك؛ فنزل قرآنُ يتلى إلى قيام الساعة مواساة لهذا العبد الصادق في محبته ومن عمل بمثل عمله .... قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾[1].

* **حسن الظن بالله**

وهذا والله ليس على الله بعزيز ولا بعيد، فإن الله تعالى إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، ونحن ما علينا إلا أن نأخذ بهذه الأسباب؛ فنحسن العمل قدر طاقتنا ونحسن الظن بالله تعالى، كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[2] وفي رواية: «**إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ**»[3]، ويقول النبي الكريم ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** ﷻ»[4].

ولكن النبي ﷺ يحذرنا من أن نتواكل على رحمة الله وندع العمل ونقول إن الله غفور رحيم وننسى أنه سبحانه شديد العقاب.

---

(١) سورة النساء: الآيتان: (٦٩، ٧٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٨٨٣٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٥).

(٤) رواه مسلم (٢٨٧٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نُحسن الظن بالله ... وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

ويتأكد الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حتى يُختم للعبد بالخير، ولا يكون ذلك كذلك إلا إذا عاش العبد في الدنيا وفقًا لأوامر الله وعلى منهجه وسنة نبيه ﷺ،وهو يحافظ على التوازن بين دنياه وأُخراه، ولكنه يجب أن يكون حريصًا كل الحرص على ألا يقصر في طاعة أو يقع في معصية حتى وإن فاتته الدنيا بما فيها ومن فيها ... ولذلك لما حثّنا ربنا (جل وعلا) على علو الهمة في المسارعة إلى الأعمال الصالحة الموصلة إلى رضاه قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

ولما أمرنا بالأخذ بأسباب الرزق في الدنيا قال (جل وعلا): ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾[2]، وفارق كبير وبَونٌ شاسع بين المسارعة والمسابقة إلى الشيء والمشي إليه، ولذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾[3].

ولا يعني هذا أن نسعى إلى الآخرة ونترك الدنيا لغيرنا، ولذا يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٣٣).

(٢) سورة الملك: الآية: (١٥).

(٣) سورة الجمعة: الآية: (٩).

(٤) وهذا ليس حديث كما يظنه البعض، وإنما هي مقولة لسيدنا علي يراد بها أن المسلم لابد أن يكون في أمور دنياه أفضل الناس وأرقاهم وفي الآخرة أرغب الناس وأسبقهم إليها.

والموت يأتي بغتة ولذا وجب على كل عاقل أن يزداد من الخيرات استعدادًا ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، ويعلم أنه لا منجى من الله تعالى إلا إليه فيفرَّ بنفسه ودينه إلى ربه ويستمسك بكتابه وبسنة نبيه ﷺ.

والناس صنفان: فارٌّ إلى الله وفارٌّ من الله ... فأيهما تحب أن تكون؟ أما إن كنت من الصنف الأول فأبشر بالفوز والرضا والسعادة في الدارين، فقد آويت إلى ركنٍ شديد، أما إن كنت من الصنف الثاني عياذًا بالله من ذلك، فأين تظن نفسك ذاهبًا؟ إنما نحن أخي في الله نفر من قدر الله إلى قدر الله، ولا حول ولا قوة لنا إلا به، إذ أنه لا يتحرك متحركٍ ولا يسكن ساكنٍ إلا بمشيئته وإرادته سبحانه.

فاللهم إنا نبرأ من الثقة إلا بك ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك ومن التوكل إلا عليك ومن الصبر إلا على بابك ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الرجاء إلا لما في يديك الكريمتين، ومن الرهبة إلا لجلالك العظيم.

ونحن إذ نسعى إلى علو الهمة للوصول إلى المراد من رب العباد وهو الفوز برضاه وبجنة الفردوس ... نعم جنة الفردوس، وهي التي حثنا رسولنا ﷺ أن نسأل الله تعالى إياها، فقال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الجَنَّة، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى**

الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»(١).

وقال أيضًا صلوات ربي وسلامه عليه: «لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ لِيَمُوتَ حَتَّى يُبْلغهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ: أَخْذُ الْحَلَالِ وَتَرْكُ الْحَرَامِ»(٢).

أي أن تسأل الأمور التي تنفعك في دينك ودنياك وتُلحّ في طلبها، وهذا مما يحببك إلى ربك سبحانه؛ فالله تعالى يحب العبد الذي يُلح في الدعاء ويستحي سبحانه أن يرد يدا العبد صفرًا خاليتين إذا هو دعاه وناجاه ... كما يغضب الله تبارك وتعالى على العبد الذي لا يسأله ولا يدعوه، وذلك على خلاف ابن آدم الذي يحب أن يأخذ ولا يعطي -إلا من رحم ربي وعصم..يقول أحدهم:

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيَّ آدم حين يُسأل يغضبُ

*** غزوة مؤتة عبرة وعظة:**

ومن أروع الأمثلة على علو همة الرعيل الأول الذين فتح الله بهم قلوب العباد قبل أن يفتح بهم البلاد، وكانوا رعاة للغنم فصاروا سادة للأمم، وكانوا قبل الإسلام أذل الناس فأعزهم الله بالإسلام وأسسوا دولة لها كيان وشوكة في فترة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا فهابهم العرب والعجم.

من أروع هذه الأمثلة ما كان من خبرهم في غزوة مؤتة التي فيها من الدروس والعبر ما لا يتسع المجال لذكره، ولكن حسبنا أن نشير إشارة

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٤ رقم: ٢١٣٤) في «الجامع»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٧).

سريعة إلى جانب منها لنؤكد ما نقول.

ومما يدلك على أهمية هذه الغزوة ومكانتها الخاصة أنها سُميت غزوة على الرغم من أن النبي ﷺ لم يخرج فيها، وكان من المفترض أن تُسمَّى سرية كما هو المعروف عند أهل السير، ولكنها كانت السرية الوحيدة التي أمَّر النبي ﷺ عليها ثلاثة من الرجال على خلاف ما يحدث في غيرها من السرايا، وهذا كما جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ أمَّر على القوم زيد بن حارثة، وقال فإن أُصيب -أي: إن قُتل- فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة؛ فإن أصيب فتخيروا من شئتم.

فلما وصل الجيش الإسلامي إلى مؤتة وكان عددهم لا يجاوز الثلاثة آلاف مقاتل، وكان عدد جيش الكافرين مائتي ألف مقاتل..إذًا لا نسبة بين العددين؛ فماذا يفعل الصحابة؟ كانوا بين اختيار من ثلاث؟ إما أن يقاتلوهم، وإما أن يطلبوا المدد من المدينة وإما أن يرجعوا إلى النبي ﷺ دون قتال.

وهنا محل الشاهد أخي الحبيب: فعند الشدائد تظهر معادن الرجال الصادقين، فقام عبد الله بن رواحة، وقال قولته الشهيرة التي سطَّرها له التاريخ بمدادٍ من نور، قال: «والله يا قوم إن الذي تخافون -أي الشهادة- للذي خرجتم له تطلبون، وإنها والله لإحدى الحُسنيين - يقصد النصر أو الشهادة- وإننا والله لا نقاتلهم بعدد ولا عتاد ولا قوة ولا منعة وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله ﷻ به، فسيروا على بركة الله» فدخلوا المعركة وكان ما كان فيها وانتهت بالنصرة والغلبة لجند الله تعالى.

فهذه الهمة العالية لطلب الجنة تُفجر في النفس طاقات لا حدود لها وتجعل العبد يبذل ويضحي بأعز ما يملك في سبيل الوصول إلى غايته من رضا ربه ومولاه جل في علاه.

* **بادر قبل أن تُبَادَر:**

ولذا كان لزامًا على من أراد الوصول أن يغتنم كل لحظة في حياته وكل فرصة تسنح له للازدياد من التقوى والعمل الصالح الذي لن ينفعه في دنياه وأخراه إلا هو، ولذا حثنا رسولنا الحبيب ﷺ على ذلك فقال ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»[١].

ووالله لو أننا عملنا بهذا الحديث وجعلناه نبراسًا على طريقنا وجعلنا منه واقعًا عمليًا ومنهج حياة لكفانا..فتعالوا بنا لنُسلط بعض الضوء عليه لعلنا ننتفع بما جاء فيه.

إلى الشباب وإياهم أعني وأوجه النصيحة .... إلى أمل هذه الأمة وعمادها..ولكن لماذا الشباب تحديدًا؟

لأن الشباب يملكون القوة والعقل معًا، وعلى هممهم وسواعدهم تقوم الأمم وتعلوا رايتها، ولذلك يحب الله تعالى الشاب الطائع أشد مما يحب الشيخ الطائع، لأن الشاب عنده شهوة وغريزة فإذا تركها طائعًا مختارًا راغبًا فيما عند الله من الثواب فهو بمنزلة لا تدانيها منزلة عند الله تعالى.

فمرحلة الشباب أخطر المراحل العمرية التي يمر بها العبد ولذلك يُسأل عنها بصفة مستقلة يوم القيامة لأهميتها..وذلك لما جاء عند الإمام الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ**

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ٣٤١ رقم: ٧٨٤٦) البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٧٧).

حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»(١).

والذي يلفت الانتباه بشدة في هذا الحديث أن العبد حين يُوقف بين يدي ربه وحيدًا فريدًا يُسأل عن عمره جملةً وعن شبابه تفصيلًا وهو من جملة العمر، ألم يكن السؤال عن العمر بما فيه الشباب كافيًا ومحققًا للغرض منه؟

بلى ولكن في ذلك إشارة إلى أن العبد سيُسأل عن شبابه، هل أبلاه في طاعة الله حتى يكون ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، أم أنه أتبع نفسه هواها وسار على درب الشيطان وتنكب طريق الهدى والرشاد.

قال أحدهم متحسرًا على شبابه:

ليت الشباب يعود يومًا ... فأخبره بما فعل المشيب

ومن أعجب الأشياء أن تجد أن إحصائية رسمية تبين من خلالها أن أربعين بالمائة من الوفيات شباب، نقول ذلك لمن يؤجلون التوبة ويسوفون الأوبة إلى الله ويقولون: عندما يتقدم بنا السن سنهتدي ونتوب والله غفور رحيم.

ومن يدريك يا مسكين أن تعيش حتى تتوب فالموت يأتي بغتة ولا يعرف سنًا ولا حسبًا ولا نسبًا.

وإلى الأصحاء المعافين أيضًا نوجه الرسالة ونقول لهم اغتنموا هذه

---

(١) حسن: وقد تقدم.

النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليكم، ولقد صدق من قال: «الصحة تاج على رءوس الأصحّاء لا يراه إلا المرضى»؛ فكم من سقيم يتمنى أن لو صلى في المسجد وسجد لله سجدة ولكنه لا يستطيع؛ فهو طريح الفراش وأنت وقد عافاك الله هل تنتظر أن تُحْرَم من هذه النعمة حتى تعرف قيمتها؟

اسمع إلى هذه الآية التي تخلع القلوب عن قوم كانوا في رغدٍ من العيش وسعة من الرزق وعافية ولكنهم أعرضوا عن ذكر ربهم فكان عاقبة أمرهم الخسران المبين والذل والمهانة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[1].

وإلى الأغنياء الذين وسع الله عليهم..عليهم أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله، وأن يراعوا اليتامى والمساكين والمعوزين، فالنعمة تدوم وتزيد بالشكر قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[2].

فالمال مال الله وهو عارية مسترجعة والله مستخلفنا فيه فينظر يوم القيامة ماذا عملنا فيه، فمن وجد خيرًا فليحمد الله أن وفقه إلى ذلك، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وإلى الذين يقضون جُل أوقاتهم أمام القنوات الفضائية ما بين فيلم ومسلسل ومباراة ولا يجدون في ذلك غضاضة، ويقولون: هيا بنا نقتل

---

(١) سورة القلم: الآيتان: (٤٢، ٤٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٧).

الوقت، وهم لا يعلمون قيمته فهو رأس مال المسلم في هذه الحياة «يا ابن آدم إنما أنت أيام إذا مضى يومك مضى بعضك».

وكل يوم ينادي على ابن آدم فيقول: «يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد، فاغتنمني فإني لا أعود إلى يوم القيامة»، ولذا يقول الصادق المصدوق ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ**[١] **فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[٢].

وإلى مَن مَدَّ الله تعالى في أعمارهم إلى أن سمعوا نصيحة باغتنام حياتهم، أن يأخذوها بعين الاعتبار، ويشمروا عن ساعد الجد للطاعة وإصلاح ما بقي من عمرهم حتى يغفر الله لهم ما مضى منه، فكم من أُناسٍ واراهم التراب يتمنون أن لو عادوا إلى الدنيا فيسجدون لله سجدة ترفع عند الله جل وعلا درجاتهم.

وأيامنا في هذه الحياة الدنيا معدودة، والموت سهمٌ أُطلق وعمر الإنسان هو الفترة التي يستغرقها وصول السهم إليه، وهو كأسٌ كل الناس شاربه، وكل يوم يمر علينا ولا نتقرب فيه إلى الله تعالى فهو محسوب علينا وليس لنا.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها — وكل يوم مضىٰ يُدني من الأجل

فيا ليتنا نعمل بما سمعنا ليكون حجة لنا لا علينا، فمن أراد الوصول فعليه بالأصول؛ فلنأخذ بأسباب الهداية ولنسأل الله تعالى التوفيق والرشاد والسداد، وأن يأخذ بقلوبنا ونواصينا إليه أخذ الكرام عليه وأن

---

(١) مغبون، أي: مخدوع.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

يثبتا على الحق حتى نلقاه، وأن يجعلنا وإياكم ممن يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. إنه خير مسئول والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية: (٤٣).

همة السالك وعلمه

أسلفنا أن الطريق إلى الله جل وعلا مليء بالصعاب والعقبات والمخاطر، وحتى يتمكن السالك من تذليل تلك العقبات وتحمُّل تلك المخاطر والصعاب لابد له من همة عالية وطاقة متجدده يستعين بالله ثم بها على الصبر والتحمل واحتساب الأجر والثواب، وكلما كان العبد يقصد غاية عُليا كان لزامًا عليه أن يعلو بهمته ليصل إليها ... ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة.

*** علو المنزلة من علو الهمة:**

ومن أراد المنزلة العُليا في الجنة وجب عليها أن يكون في نفس المنزلة من العبادة والطاعة وطلب العلم والدعوة إلى الله، فالدنيا كما قلنا من قبل إنما هي مزرعة الآخرة وأنت تحصد في الآخرة ما زرعته في الدنيا فاعمل ما شئت كما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[1].

وقال النبي ﷺ مُخبرًا عن رب العزة جل وعلا في الحديث القدسي قال: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[2].

واسمع إلى هذا الكلام القيم للإمام ابن القيم حيث يقول: «للعبد بين يدي الله موقفان موقف بين يديه في الصلاة وموقف بين يديه يوم لقائه

---

(١) سورة الرحمن: الآية: (٦٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

فمن قام بحق الموقف الأول هوَّن عليه الموقف الآخر ومن استهان بهذا الموقف ولم يُوفِّه حقه شدَّد عليه ذلك الموقف».

*** خير الأمم..فأين الهمم؟:**

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١).

نعم..نحن خير الأمم بنص الآية ... وديننا هو الدين الحق الذي سيُظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون والكافرون، ولكن أكثر الناس لا يعلمون..اسمع إلى حبيبك ﷺ وهو يقول: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ**»(٢).

فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية لكل الناس وستصل إن شاء الله تعالى إلى الآفاق رغم كيد الكائدين ممن يدبرون للقضاء على هذا الدين والله حائل بينهم وبين ما يريدون وهو من ورائهم محيط ... ولمَّا فهم السابقون الأوائل هذا المعنى سادوا العالم بأسره وكانوا خير سلف للخلف من بعدهم.

فهذا ربعي بن عامر رضي الله عنه هذا الرجل العربي البسيط الذي دخل على رستم قائد جيوش الفرس فإذا به يطأ بقدمه الديباج والحرير ويرى من الزخارف ما يلفت الأذهان ويذهب بالعقول، ولكن هذا لا يؤثر في قلبٍ نضج بالإيمان واليقين فيما عند رب العالمين، وأنه خير وأبقى للذين آ

(١) سورة آل عمران: الآية: (١١٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٦٥٠٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣).

منوا وعلى ربهم يتوكلون؛ فقال له رستم: من أنتم؟ وما الذي جاء بكم إلى دیارنا؟

اسمع ماذا قال هذا الرجل الذي يعرف يقينا الغاية التي خلقه الله تعالى من أجلها ولا يخشى في الله لومة لائم في أداء هذه المهمة التي خُلق من أجلها، قال له ربعي هذه الكلمات الخالدة: «نحن قومٌ ابتعثنا الله لنُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

فالخيرية لهذه الأمة مشروطة بقيامها بالوظيفة والمهمة التي خُلقت من أجلها، وإلا فلا خيرية لها ولا مكانة ولا شأن، ولذا كانت هذه الأمة شاهدة على كل الأمم، وهي آخر الأمم ابتعاثا وأول الأمم دخولًا في جنة الرحمن جل وعلا.

روى الإمام البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؛ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ؛ فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؛ فَيَقُولُونَ: لا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ؛ فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؛ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[1] وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ**»[2] .

وما كان ذلك إلا لمكانة هذه الأمة عند الله جل وعلا؛ أتدرون منذ خلق الله جل وعلا آدم عليه السلام ..كم خلق من الأمم؟ هذا ما ورد فيه من الأحاديث الصحيحة أنه تعالى خلق سبعين أمة نحن آخرها في الخلق

(١) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٩) كتاب أحاديث الأنبياء.

وأولها عند الله تعالى.

وهذا بنص الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»[١].

ولكن كم تمثل هذه الأمة في عدد أهل الجنة؟

لك أن تتخيل أن هذه الأمة هي ثُلثا أهل الجنة!! فلا تتعجب، إنها قدرة الله وإرادته قال ﷺ: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ**»[٢].

وهذا مما يوضح ما لهذه الأمة من مكانة عند الله جل وعلا، ويكفي أن منهم سبعين ألفًا يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب، وذلك بنص حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه -كما في الصحيحين-: «**فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**». وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال: «**فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا**»[٣] وإن هذا والله مما يجعلك تكاد تعانق السحاب بهامتك من السعادة أن جعلك الله تعالى من هذه الأمة المباركة.

ومما زادني شرفًا وتيهًا … وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي … وأن صيَّرت أحمد لي نبيا

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٠٠١) كتاب تفسير القرآن، وابن ماجة (٤٢٨٧) كتاب الزهد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥٤٦) كتاب صفة الجنة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٢٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٥٧).

*** زاد السالك علمٌ وهمة:**

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لابد للسالك من همة تُسيره وتُرقِّيه، ومن علم يُبصره ويهديه».

ووالله إن مثل هذا الكلامَ النفيس ليستحق أن يُكتب بمداد الذهب، لما فيه من الفوائد التي لو وقفنا عليها لما وسعنا المقام ولكن سوف نُشير إلى هذه الكلمات العذبة ونتناولها بالشرح والتحليل لنستلهم منها الدروس ونتوصل من خلالها إلى الشاهد من الموضوع.

ينبغي لمن أراد الوصول إلى مرضاة ربه من همة تُسيره، أي: من دافع يدفعه نحو الطريق الصحيح، يجدد به نشاطه وطاقته، كلما فتر حماسه وخبت جذوة الإيمان في قلبه، شحذ همته وشدَّ من أزر نفسه، والإيمان كما نعلم جميعًا إنما يزيد بالطاعة، ويقل بالمعصية، واعلم يقينًا أن إيمانك إن لم يزد نقص ولا شك.

وها هو حنظلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يأتي إلى أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فزعًا قلقلًا فيقول له أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما خطبك؟ فيقول حنظلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ :نافق حنظلة، أي: يتهم نفسه بالنفاق، فقال له أبو بكر: وكيف ذلك، فقال حنظلة: نكون عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيُذكرنا بالجنة والنار فكأنَّا رأي عين - أي كأننا نراهما أمامنا- ثم إذا ما خرجنا من عنده، وعافسنا الأزواج والأولاد وعالجنا الضيعات ذهب ما نجد! فقال له أبو بكر: والله إني لأجد مثل ذلك، فهيا بنا إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما أتياه وأخبراه الخبر قال لهما: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي**

طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(١).

والمعنى أن الإيمان قد يزيد في بعض الأوقات وفي بعض الأحوال حتى يبلغ الذروة ويأتي عليه وقت فينقص لانشغال الإنسان بالدنيا والسعي على قضاء مصالحه الحياتية الضرورية، وليس كما يفهم البعض الذين يقولون: «ساعة لقلبك وساعة لربك» فهي كلمة إن صح المعنى يراد بها باطل، ويراد بها اتباع الشهوات والأهواء، فمن المفترض أن يكون المرء المسلم بكل ما فيه وقفٌ لله تعالى.

قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

ونحن إذ نريد أن نتأول هذه الآية لنقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا أول السابقين إلى مرضاة الله وإتباع سنة الحبيب رسول الله ﷺ ... أول المصلين..أول المجاهدين..أول العابدين..أول المنفقين.

فعليك أخي السالك أن تتفقد أحوال قلبك وما عليه من زيادة أو نقصان للإيمان، فإذا وجدت فيه من القسوة أو الغفلة فبادر بمعالجته والأخذ بأسباب زيادة الإيمان حتى تتمكن من الوصول إلى مرادك ومقصودك.

ونضرب لذلك مثالًا: لو أن رجلًا أراد أن يسافر بسيارته إلى بلد بعيد فتجده يُعد لذلك إعدادا جيدًا وتراه يأخذ من الاحتياطات والأسباب الوقائية تحسبًا لما قد يطرأ من أحداث في الطريق، وتراه يقف بعد كل

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٠) كتاب التوبة.

(٢) سورة الأنعام: الآيتان: (١٦٢، ١٦٣).

مرحلة من مراحل سفره، إما ليزود سيارته بالوقود وإما بإجراء الصيانة اللازمة لها، وإما لأخذ قسط من الراحة لاستئناف السفر، وأنت مثلك في طريقك إلى الله تعالى، كمثل هذا الرجل؛ فعليك أن تجدد العهد والميثاق الذي قطعته على نفسك باتخاذ سبيل المؤمنين والانضمام إلى حزب الرحمن ومعاداة حزب الشيطان... وأن تتزود بالطاعات التي تُقربك من رب الأرض والسماوات

*** الصاحب ساحب:**

ومن الأسباب المعينة على زيادة الإيمان: طلب العلم، وملازمة الصالحين الذين إذا رآهم السالك ذكَّروه بالله، و «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[1]، و«**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[2].. هذا هو كلام حبيبك..الرحمة المهداة بأبي هو أمي ﷺ.

*** لا يشبع المؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة:**

وينبغي على السالك..صاحب الهمة العالية ألا ينظر إلى من هو دونه في الطاعة ويقول أنا خير منه، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه تعالى به من الغفلة، والبعد عن الله، وإنما يجب عليه أن ينظر إلى من هو فوقه في

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٧٨) كتاب الزهد، وأبو داود (٤٨٣٣) كتاب الأدب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب.

العبادة ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1]، وفي نفس الوقت ينبغي ألا ينظر إلى من هو فوقه في الدنيا؛ لكي لا يزدري نعمة الله عليه، ولكن عليه أن ينظر في أمور الدنيا إلى من هو أقل منه ليعرف نعمة الله تعالى، ويزداد له شكرًا وتزداد له طاعته وعبادته..

ولذلك يبين لنا الحبيب ﷺ أنه: «**لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»[2].

وهناك فارق بين الحسد المقصود في هذا الحديث (والذي يُقصد به الغبطة)، وبين الحسد الذي هو تمني زوال النعمة من عند أخيه ... فهو مذموم بنص كتاب الله وحديث رسوله ﷺ.

فهناك من الناس من لا يحبون الخير لغيرهم لا لشيء إلا لأنهم جُبلوا على ذلك وانطوت نفوسهم الخبيثة عليه.

ومن الطرائف التي اذكرها بمناسبة الحديث عن هذا الصنف: أن اثنين كان قد حكم عليهما بالإعدام؛ فكان من المعتاد أن يسأل المختص بتنفيذ حكم الإعدام المحكوم عليه، هل له رغبة في شيء قبل الموت، فلما سأل الأول قال: أمنيتي أن أرى أمي قبل أن أموت، فقال الرجل: لك هذا، ولما سأل الثاني عن أمنيته؛ أتدرون ماذا قال؟! قال: أمنيتي ألا يرى هذا أمه قبل موته!! على الرغم من أن هذا لا يضره ولا ينفعه في شيء ولكنها النفوس الخبيثة والعياذ بالله.

---

(١) سورة المطففين: الآية: (٢٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٢٩) كتاب التوحيد، ومسلم (٨١٥) كتاب صلاة المسافرين.

واعلم حبيبي في الله أن من علامات قبول الطاعة أن يرزقك الله تعالى نعمة الاستمرار والمداومة عليها، فأحب الأعمال أدومها وإن قَلَّ وكان ﷺ إذا عمل عملًا داوم عليه.

وهذا مرجعه إلى صدق العبد مع ربه، فما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

لا نزال مع كلام ابن القيم الذي يقول فيه: «وعلم يُبصره ويهديه»، أي: لابد للسالك من العلم فمن عَبَد الله تعالى على جهل سقط في بحار البدع ... وكم من عابد لم تنفعه عبادته بغير العلم، فهذا (برصيصة) العابد الذي نزل فيه قرآن يُتلى إلى قيام الساعة ... قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] .

انظر لم يقل رب العزة فكان عاقبته وإنما قال ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ ذلك أن الشيطان استغل جهله بأساليبه وطرق إغوائه وتزيينه ... أما العالم فيعلم مداخل الشيطان فيسد عليه كل باب ويقطع عليه كل طريق فالعالم أشد على الشيطان بعلمه وعمله من العابد.

وهذا الراهب الذي دفع حياته ثمنًا لجهله عندما سأله قاتل التسعة والتسعين نفسًا: هل لي من توبة؟ فقال له: لا؛ فأكمل به المائة، فلما سأل عن أعلم أهل الأرض ودُلَّ عليه؛ فسأله نفس السؤال: هل من توبة؟ فقال: نعم، وما الذي يحول بينك وبينها.. ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ

---

(١) سورة الحشر: الآيتان: (١٦، ١٧).

عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١).

فبالعلم ينجو الإنسان من الفتن ويخطو خُطًا ثابتة نحو طاعة ربه، فهو -أي العلم- سلاحه الذي يواجه به أعداءه من النفس والهوى والدنيا والشيطان، قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢)، على بصيرة وعلم، حتى لا يضل ولا يكون سببًا في ضلال الناس من حوله ... وحتى يرى الأمور على حقيقتها فلا ينخدع بزخارف الدنيا ومتاعها الزائل ويعلم يقينًا أن الآخرة خيرٌ وأبقى فيسعى إليها سعيًا حثيثًا تاركًا حطام الدنيا مستدبرًا إياه مستقبلًا ما عند ربه من الثواب العظيم والنعيم المقيم.

رزقنا الله وإياكم الفردوس من الجنة وجعلنا ممن علت همتهم وعرفوا طريق صلاحهم وفلاحهم.

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الفرقان: الآية: (٧٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٠٨).

إيثار الحق على الباطل

تكلمنا فيما مضى عن أن السالك لابد له من همة تُسيره وتُرقِّيه، وتدفعه إلى المضي قُدمًا في طريقه إلى الله تعالى.

وعلمنا أنه لا سبيل له إلى ذلك إلا بتعاهد قلبه والعناية به والأخذ بأسباب الهداية وزيادة الإيمان ومن ثَم العمل الجاد والدائم حتى يلقى الله تعالى وهو عنه راضٍ.

والله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيرًا فجَّر في قلبه عينين..عينًا يرى بها الجنة وعينا يرى بها النار، ولك أن تتخيل -حبيبي في الله- أن رجلًا يرى الجنة وما أعده الله تبارك وتعالى فيها لعباده الصالحين ... ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ فهل تراه يُفرط فيها ويتنازل عنها بكل هذه البساطة، أم تراه يبذل النفس والنفيس في سبيل الوصول إليها؟ وتخيل أيضًا أنه يرى النار يحطم بعضها بعضا ورأى ما فيها من الهوان والذل والعذاب المقيم عياذًا بالله، فهل تراه يترك نفسه لقمة سائغة للذنوب والمعاصي، أم أنه يدفع عن نفسه هذا العذاب، ويأخذ من الأسباب الوقائية من مراقبة الله وتقواه مما يكون حائلًا وحاجبًا له عن النار؟ فكيف تكون عبادتنا لو أننا رأينا الجنة والنار رأي عين؟ أكاد أجزم أن أحوالنا ستتغير وتتبدل إلى أحسن حال.

من ذلك أن ترى هذا العبد لا يترك عملًا يوصل إلى الجنة ورضا ربه إلا كان أسبق الناس إليه واحرص الناس عليه، ولا يترك عملًا يوصل إلى

النار وسخط ربه إلا كان أبعد الناس عنه؛ فتراه لا يتكلم بكلمة إلا إذا كانت مما يرضي ربه.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١).

قال أحد السلف: «والله ما تكلمت بكلمة منذ أربعين سنة إلا وأعددت لها جوابًا بين يدي الله جل وعلا» ذلك لخطورة الكلمة وما قد تؤدي إليه إما إلى جنة عرضها السموات والأرض، أو إلى نار يأكل بعضها بعضا، وقودها الناس والحجارة عياذًا بالله تعالى، ولذا قيل أن «من تكلم أولًا ثم فكر ثانيًا عرف الندم».

فما من شيء صغير ولا كبير إلا وتجده مُسطرًا عند الله تعالى ويحاسبنا عليه يوم القيامة، قال جل وعلا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٢).

ومن كلام ابن القيم أيضًا في هذا السياق: «كمال الإنسان مداره على أصلين، معرفة الحق من الباطل، وإيثار الحق على الباطل»..وحول هذه الكلمات العذبة يدور حديثنا لنلتمس الطريق ونعلم كيف الوصول إلى رضا ربنا ... لنعيش جنة الدنيا قبل جنة الآخرة..إن شاء الله تعالى.

يقول: «كمال الإنسان» وهل يجوز أن يكمل الإنسان أم أنه لا كمال إلا لله تعالى؟

نعم..الكمال لله، ولكن معنى ذلك والمقصود به الكمال المطلق.

---

(١) سورة ق: الآية: (١٨).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٤٧).

أما الكمال النسبي فجائز في حق الإنسان، ألم يقل رسول الله ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[1] .. نعم، ولكن كيف يكون هذا الكمال؟ قال: مداره أي يرتكز تحققه وحصوله على أمرين متلازمين، وهما معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.

*** اعرف الحق تعرف أهله:**

ومعرفة الحق من الباطل لا تكون بحال إلا بالعلم وتقوى الله جل وعلا فإذا كان العبد لا يميز الحق من الباطل لقلة علم فليسأل أهل العلم حتى يتبين له الأمر ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

أما إن كان عنده من العلم ولكنه لا يمكنه الوقوف على الصواب من الخطأ لأمرٍ تحيَّر فيه وارتاب فيما إذا كان حلالًا أو حرامًا أو فيه بعض الشبهات فعليه أن يتحرى الحلال الطيب في مأكله ومشربه وملبسه حتى يوفقه الله تبارك وتعالى لمعرفة الحق، قال جل في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3] .... قال أهل العلم: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: نورًا في القلب وبصيرة يعرف بها العبد التقي الورع الفرق بين الحق والباطل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤١١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٤٣١) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) سورة النحل: الآية: (٤٣).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٢٩).

*** الحق أحق أن يُتبع:**

ولا يكفي أن يعرف العبد الحق فقط، وإنما ينبغي عليه أن يتبعه ويكون ممن يسيرون على دربه ويرفعون لواءه ويدافعون عنه، ووالله ما انتفش الباطل واستطال أهله إلا لما غاب أهل الحق وتنكبوا الطريق المستقيم، وقد قيل: «الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس»، وقيل: «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»(١).

فكما قيل: «فما استأسد الحمل إلا عندما استنوق الجمل» نعم..لما جعل الجمل من نفسه ناقة، وتخلى عن رجولته ومبادئه جعل الحمل الضعيف من نفسه أسدًا وراح يهدد هؤلاء تارة ويتوعد هؤلاء تارة ويعيث في الأرض فسادًا دونما معارض ولا نكير.

ولكن لماذا لا يتبع الناس الحق؟..سؤال يطرح نفسه بقوة وإلحاح.

الحقيقة: أن عدم اتباع الناس للحق إما لجهلهم وهذا كما قلنا علاجه العلم وسؤال أهل التخصص بالدليل الشرعي، وإما لهوى في أنفسهم وكثير من الناس من هذا الصنف الأخير؛ فتراهم يعرضون عن الحق لإرضاء شهواتهم وإشباع ملذاتهم؛ فيضلوا ويضلوا ولذا قال تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾(٢).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢١٧٤) كتاب الفتن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٩).

(٢) سورة ص: الآية: (٢٦).

وترى هؤلاء يتذرعون بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان؛ فإذا قلت لأحدهم على سبيل المثال: أن التدخين حرام شرعًا، فيقول لك: إنه مكروه، وهل في القرآن آية تدل على أن التدخين حرام؟! وهو يعلم يقينًا أنه حرام ولكنه الهوى .... نقول له: إن التدخين حرام بنص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإليك الدليل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[1] .

نقول له: سَلْ نفسك سؤالًا: هل تعد السجائر وما شابهها من الطيبات أم من الخبائث؟ لا شك أنها من الخبائث لما لها من أضرار لا تُعد ولا تُحصى، ولا يخفى على ذي لبٍ ما في التدخين من أضرار صحية من سرطان الرئة والبلعوم وأمراض القلب وتصلب الشرايين وغير ذلك من الأمراض التي لم نكن نسمع عنها من ذي قبل.

وهذا المال الذي تنفقه في شرائها ستُسأل عنه يوم القيامة ... أما كان أولادك أولى به، أو الفقراء والمساكين، ويكفي أن أُبين لك أيها المدخن حتى تتضح الأمور وتعلم ما تعاقره وتدخنه ... فقد أخبرني أحد المشتغلين بهذا المجال -والعهدة عليه-: أن التبغ الذي تُصنع منه السجائر وغيرها لا يكون جاهزًا للاستخدام إلا إذا وُضع منقوعًا في الخمر لمدة تتراوح ما بين ثلاثة وستة أشهر، وهذا ما يُفسر استمرار اشتعال السيجارة لما فيها من الخمر ناهيك عن القطران[2] ، والمبيدات

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٧).

(٢) القطران، أي: الزفت.

الحشرية القاتلة التي توضع فيها ... وحدِّث ولا حرج.

وإذا سألت إحداهن ممن يخرجن كاسيات عاريات..لماذا لا ترتدين الحجاب؛ فتقول: الحجاب حجاب القلب، وهي تعلم يقينًا أنه واجب عليها أن تلبسه، ولكنه الهوى والنفس الأمارة بالسوء.

ونوجِّه لهذه المرأة السؤال: عندما تذهبين إلى الطبيب ويرشدك إلى بعض التعليمات ويصف لك الدواء..لماذا تطيعين أوامره وتعليماته؟

الجواب: لأنه يعلم ما يُصلحني وينفعني ويكون سببًا في شفائي.

فنقول: أليس الله جل وعلا أعلم بما يصلحك ويكون سببًا في نجاحك وفلاحك في الدنيا والآخرة ولله المثل الأعلى، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

ولأن الإنسان بفطرته يعلم الخير والشر فتجد صاحب الطبيعة السليمة والنفس السوية يفعل الخير ولا يفعل الشر، فهذا مثال بسيط: أَتَذَكَّر أننا عندما كنا في أمريكا جاءنا شاب كان يهوديًّا وهداه الله تعالى للإسلام، فقام أحد الدعاة وسأله: هل لك أبوان؟ قال: نعم، فقال له: هل هما مسلمَين؟ فقال: إنهما متعصبين جدًّا لليهودية؛ فسأله: ألم يحزنا عندما علما بإسلامك؟ فقال: على العكس من ذلك؛ فأمي سعيدة كل السعادة بإسلامي.

فتعجب الشيخ لذلك وسأله أن يأتيه بأبيه وأمه لعلهما يُسلما لله رب العالمين، فقال: أبي مسافر وسوف آتي بأمي غدًا، فجاءت أمه مُقبلة وإذا

(١) سورة الملك: الآية: (١٤).

بها تلبس ثيابًا واسعًا فضفاضًا وتضع على رأسها الحجاب، فظن الشيخ أنها أسلمت فسألها، فقالت: لا، فقال لها: ولكن لماذا ترتدين هذه الملابس؟ فقالت: لقد علمت أنه لا يجوز الوقوف أمام الشيخ وأنا كاشفة الرأس ... وهي يهودية!!

فماذا نقول عن المسلمة التي أقرت لله جل وعلا بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة ورضيت بالإسلام دينا والقرآن شريعة ومنهاجًا، أما كان يجدر بها أن تكون هي قدوة لغيرها من النساء ممن لو عرفن هذا الدين لدخلوا فيه أفواجًا وكانوا في ميزان حسنات من يعينوهم على ذلك ويرشدونهم إليه.

*** إنما الأجر على قدر المشقة:**

لا يزال الكلام لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الخيرات واللذات والكمالات لا تُنال إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يُعبَر إليها إلا على جسرٍ من التعب، وقد أدرك عقلاء كل أمة أن النعيم لا يُدرَك بالنعيم، ومن آثر الراحة، فاتته الراحة وأنه بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاق والصعاب، تكون اللذة والفرح»..فهيا بنا نعيش مع هذه الكلمات المضيئة نستنير بها ومضة على طريق الحق والرشاد.

نشير بداية إلى أن هذا أمر لم تُجمِع عليه أمة الإسلام فحسب وإنما أجمع عليها كل عاقل ... فلا يختلف على ذلك اثنان، وهو أن من أراد النعيم المقيم والسعادة والحبور في الدار الآخرة فعليه أن يعيش على طاعة الله واتباع منهج وسنة رسوله ﷺ لينعم بالسكينة والطمأنينة وصلاح الحال في الدنيا قبل الآخرة.

ومن فضَّل الراحة والدعة والركون إلى الدنيا ... وأن يعيش لا لشيء إلا ليُشبع رغبات نفسه ولا يبالي في أي طريق يمضي أو لأي فئة ينتمي فهذا من الضلال والبعد عن الله بمكان يجعل البهائم العجماء أهدى منه..فهي تعرف الغاية التي من أجلها خُلقت وتسير في الطريق الذي حدده الله تعالى لها، وتقول بلسان الحال: «سمعنا وأطعنا» ... هذا الذي لا يريد أن يُتعب نفسه في الدنيا فسوف يتعب في الآخرة ولا شك؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبدٍ أمنين ولا خوفين، فإن أَمِنه العبد في الدنيا خوَّفه الله يوم القيامة، وإن خافه العبد في الدنيا أمَّنه الله يوم القيامة.

ولا يظنن ظانٌّ أن الجنة بلا ثمن..

لا ورب الكعبة، فإن للجنة ثمنًا غاليًا، يتمثل في الصبر والتحمل والجلد على ما قد يتعرض له العبد من مخاطر وابتلاءات وهو مُلاقٍ ذلك لا محالة، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1] فعلى قدر تحمُّل المشاق وركوب الأهوال تكون الفرحة واللذة في الآخرة.

ونضرب لذلك مثالًا: لو أنك في نهار رمضان وكانت طبيعة عملك شاقة وقاسية وتنهك قواك وتستنفذ طاقتك، وكان الحر شديدًا وأنت تصبر على الجوع والعطش ابتغاء مرضاة الله تعالى محتسبًا للأجر ضابطًا لنفسك منتظرًا للإذن من الله تعالى بدخول وقت المغرب حتى تفطر،

---

(١) سورة العنكبوت: الآيات: (١-٣).

فكيف تكون فرحتك عندما تشرب الماء البارد على الظمأ وتأكل من طيبات ما تفضل الله تعالى به عليك، ساعتها تُنسيك هذه الفرحة واللذة ما كنت قد كابدته من عناء في النهار، فهكذا المؤمن عندما يُغمس غمسة واحدة في الجنة فإنه ينسى معها كل شقاء وبأس وحرمان وجده في الدنيا.

فلابد لذلك من المثابرة والجد والاجتهاد ومجاهدة النفس وتوجيهها للحق وإلى الصراط المستقيم.

*** أمثلة من السابقين:**

مَن علت همته وسَمَت غايته كان من السابقين الصادقين مع الله جل وعلا، والنبي ﷺ قال: «**لِكُل قَرْنٍ سَابِق**»[1] وفي رواية: «**لكل قرن من أمتي سابقون**»[2]، أي: أنه يأتي على رأس كل مائة عام من يقيضه الله تعالى ليجدد لهذه الأمة أمر دينها.

والسابق إما أن يكون في مجال الدعوة إلى الله أو في مجال التفسير، أو الحديث، أو الفقه، أو ما شابه ذلك، فهل تود أن تكون من هؤلاء؟ لا تتعجب؛ فوالله ما ذلك على الله بعزيز، وإليك أسوق هذه النماذج المشرقة على أن من صدق في محبته لربه وطلبه لرضاه تفتقت نفسه عن طاقة لا حدود لها فرأيت منه العجب العجاب.

فهذا عمير بن الحمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما كان منه في غزوة بدر الكبرى وهي أول لقاء بين الموحدين والمشركين وكان عدد المسلمين حينها يزيد على الثلاثمائة بقليل وعدد المشركين يناهز الألف بعدتهم وعتادهم

---

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٧١).
(٢) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٧٢).

وحديدهم ولك أن تتصور قدر الخوف والفزع والهلع الذي قد يكون فيه المرء حينها، ولذا حفزهم النبي ﷺ؛ فقال: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**» فتحمس الصحابة رضوان الله عليهم، فقال عُمير: بخٍ بخٍ[١]، فقال له النبي ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ**»، فقال: لا شيء إلا أني رجوت الله أن أكون من أهلها، فنزل جبريل عليه السلام في التو واللحظة ليخبر النبي ﷺ أن عُميرًا من أهلها؛ فبشره قائلًا: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**» وكانت بيده تمرات فنظر إليها وقال: لئن بقيت أو عشت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة فألقاها ودخل المعركة وقاتل وقُتل في سبيل الله[٢].

صَدَق الله فصدقه الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٣].

وهذا **عكاشة بن محصن** رضي الله عنه: الذي سأل النبي ﷺ أن يكون من هؤلاء السبعين ألفًا الذي يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فقال له النبي ﷺ: «**أَنْتَ مِنْهُم**»[٤] فهذا من علو الهمة ونُبل القصد وسمو الغاية.

وهذا **ربيعة بن مالك** رضي الله عنه: وكان من أهل الصُّفَّة من الفقراء وكان شابًا يناهز السابعة عشر من عمره، وكان يُحضر ماء الوضوء للرسول ﷺ فأراد النبي ﷺ أن يكافأه فقال له: «**سَلْ**».

---

(١) بخٍ بخٍ: تعجب، ودهشة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٠١) كتاب الإمارة.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (٢٣).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٧٠٥) كتاب الطب، ومسلم (٢١٨) كتاب الإيمان.

أي: ماذا تتمنى فادعو الله تعالى أن يُبلغك إياه .... فيا ترى ماذا قال له هذا الشاب الذي نال منه الفقر والحرمان حتى أنه كان لا يجد إلا ما يسد الرمق.

قال: أسألك مرافقتك في الجنة يا رسول الله، فقال له: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» فقال: هو ذاك يا رسول الله، فقال: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[1].

ومن عظم السجود أيضًا ما رواه مسلم عن ثوبان عن رسول الله ﷺ، قال: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ فَإِنَّكَ لا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**»[2].

وكيف لا وأنت تضع جبهتك التي هي أكرم ما فيك..تضعها في التراب تذللًا وخضوعًا وخشوعًا وتواضعًا لله جل وعلا، فمن تواضع لله رفعه الله..فإذا كان العبد السالك عنده من التواضع وإنكار الذات ما يجعله لا يرى نفسه فيذمها ويتهمها بالتقصير والتفريط فإن الله يرفع قدره ومكانته عند الله تعالى وعند الناس.

وكما قلنا فإن أول الغيث قطرة، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة وأصل الجبل حبة رمل، فإذا فقه السالك هذا المعنى هان عليه كل صعب واستعذب العذاب في سبيل الوصول إلى مراده ومقصوده من إرضاء خالقه ومحبوبه جل وعلا.

وصدق من قال: من كان له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة.

نسأل الحق جل وعلا أن يجعل أعمالنا صالحة ولوجهه خالصة وأن

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٩) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٨) كتاب الصلاة.

يرزقنا الثبات حتى الممات على الحق وأن نكون من أهله الذي يُعرفون باتباعه، فالحق لا يُعرف بالرجال وإنما الرجال هم الذين يُعرفون بالحق، جعلنا الله وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

متاع الدنيا حقيقة أم خيال؟

رأينا قبل قليل ما يلزم للسالك من همه عالية ليعيش جنة الدنيا قبل أن يعاينها ويدخلها في الآخرة، وضربنا على ذلك أمثلة لنتخذها قدوة لنا نستأنس بأخبارهم لعلنا نثبت على الدرب.

ولا يقولن قائل هذا جيل قد مضى وخلا، وأنَّى لنا أن نكون مثلهم، فالخير في أمة الإسلام إلى قيام الساعة، ونحن إذ نسير على هدي هؤلاء السابقين ونعمل بعملهم نسأل الله (جل وعلا) أن يحشرنا معهم وفي زمرتهم ... فلينافس بعضنا بعضًا في عمل الخيرات، ولنشمِّر عن ساعد الجد رافعين شعار ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[1].

*** حدد هدفك وانطلق إليه:**

والحقيقة أن كثيرًا من الناس يتمنون أن لو كانوا من هؤلاء السابقين ومعهم ولكنها الشواغل الكثيرة والمعوقات كما قلنا من قبل، وهي التي تصرف العبد وتعطله وتعرقل مسيرته نحو تحقيق هذا الهدف السامي والغاية العالية ولذا كان لزامًا عليه أن يقطع هذه الشواغل ويذلل تلك العقبات ويتخطى كل الصعاب، ولئن خسر جولة في معركته مع نفسه الأمارة أو شيطانه العدو اللدود، أو مع هذا أو ذاك؛ فلا يعني أنه قد خسر الحرب إنما عليه أن يقوم ويسترد قوته ويجمع شتاته ويوحد جهوده في سبيل مواصلة ما بدأ في المسير إليه ... ولا يغتر بزخارف الدنيا فينشغل

---

(١) سورة طه: الآية: (٨٤).

بما خُلق له عما خُلق هو له.

ونضرب لذلك مثالًا يتضح به المقال: هب أن رجلًا قلنا له: هذه حجرة مليئة بالذهب والياقوت والمرجان، ويمكنك أن تأخذ منها بقدر ما تستطيع ولكننا سنُمهلك نصف ساعة فقط، وبعدها سوف تغادر هذه الغرفة، فعندما دخل إليها ورأى ما فيها مما يخطف الأبصار ويُذهب العقول، راح يحلم ويحلم، ماذا سيفعل بهذه الأموال كلها، فنظر فجأة فرأى صورة على الحائط لقصرٍ جميل فيقول: نعم..سأشتري هذا القصر وأعيش فيه بعد أن أحمل هذه الأموال ... وعندما شرع في حملها، فاجأته صورة أخرى لامرأة غاية في الجمال، فأخذ ينظر إليها ويهوي ويتمنى، ويقول: نعم..سأتزوج امرأة على هذا القدر من الجمال، لا .. وإنما سأتزوج أربعًا، فأنا عندي من المال كذا، وكذا ... وعندما هَمَّ بأخذ المال ليحقق أحلامه وطموحاته، نظر إلى الحائط فإذا صورة لسيارة فاخرة، فطاقت نفسه إليها وقال: نعم..عندما آخذ المال سأشتري مثلها.

وعندما أراد أن يأخذ المال ليخرج من الغرفة، قلنا له لقد مضت النصف ساعة، وانتهى الوقت، فقال: لا دعوني، وأمهلوني خمس دقائق أخرى، فأنا لم أحصل على شيء بعد؛ فنقول له: لقد أمهلناك نصف ساعة، ولم تحصل فيها على أي شيء سوى أحلام وأوهام وخيال.

فمثل هذا كمثل العبد الذي خلقه الله تعالى لعبادته وطاعته وسخَّر له كل ما في الكون لخدمته، حتى يستعين بذلك على طاعة الله وعبادته بل وتعبيد الكون كله لله، فانشغل كما قلنا بهذه الأسباب التي خلقها الله تعالى له، ونسى الغاية التي من أجلها خلقه الله، وهذا ما يحدث عند كثير

من الناس الذين تشغلهم مسألة الرزق؛ فترى أحدهم يعمل بوظيفتين وثلاث حتى يُحسِّن دَخْله ويرتقي بمستوى معيشته وينسى بذلك حق ربه عليه، فتجده يكدح بالليل والنهار ناسيًا حق ربه عياذًا بالله.

ولذا قال رب العزة (جل وعلا): ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾(١).

وإذا بالعبد لا يزال يلبي رغبات نفسه التي لا تنتهي، فيجد الموت يطلبه ولا يمهله ثانية واحدة وهو يأتي بغتة بلا مقدمات ولا استئذان؛ فلا ينفعه إلا ما قدم ويتمنى أن لو عاد إلى الدنيا مرة أخرى يتدارك فيها ما فاته ويعوض ما قصر فيه.

وانظر إلى هذا التصوير القرآني العجيب المؤثر الذي يوضح هذا المعنى ويؤكده .... قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٢).

ولكن هيهات هيهات أن يعود إلى الدنيا؛ فالدنيا عمل ولا حساب والآخرة حساب ولا عمل.

والمقصود من ذلك أن كل ما نراه في هذه الحياة الدنيا من مُتع وزخرف إنما هو صورة لا أكثر؛ فلا مقارنة بين فاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة، ولا بين نساء الدنيا والحور العين في الآخرة، تلك الحور التي يصفها لنا الحبيب ﷺ في بعض الأحاديث، فيقول: «**وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ**

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان: (٥٦، ٥٧).

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان: (٩٩، ١٠٠).

الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١)، «يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ»(٢)، وكيف لا وقد أعدهن الله تبارك وتعالى لأوليائه في الجنة ووصفهن بأنهن كأمثال اللؤلؤ المكنون.

ولك أن تتخيل وأن تتمنى ولكن بعد أن تقدم المهر من السعي والأخذ بالأسباب للحصول على هذا النعيم المقيم رزقنا الله وإياكم الجنة ووفقنا إلى كل ما يقرب إليها من قول أو فعل أو عمل.

*** هل يدخل أحدنا الجنة بعمله؟:**

هناك مسألة يفهمها كثير من الناس فهمًا مغلوطًا، ويظنون أن فيها من التعارض بين النصوص الواردة فيها من كتاب وسنة، وهي: هل يدخل المؤمن الجنة بعمله؟

وذلك لما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**وَلاَ أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ المَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنٌ، فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيءٌ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ**»(٣).

وعندما يسمع البعض هذا الحديث يرد قائلًا: إن المؤمن يدخل الجنة بعمله وذلك لقول الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤)،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٢٤٦) كتاب بدء الخلق.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣) كتاب المرضى، ومسلم (٢٨١٦) كتاب صفة القيامة.

(٤) سورة النحل: الآية: (٣٢).

وظاهر النصين أنهما متعارضين.

والثابت عند الأصوليين عند تعارض النصوص الصحيحة سواء في النص أو في المعنى فإنه يتعين إعمال قاعدة «**الإعمال أولى من الإهمال**» أي: أن الأخذ بكلا النصين أولى من إعمال أحدهما وإهمال الآخر.

والحق أنه لا تعارض بين الآية والحديث، يقول أهل اللغة: أن الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي باء السببية وليست باء العوض؛ فالمؤمن يدخل جنة ربه بسبب ما عمله من أعمال صالحة هي في حقيقتها محض توفيق من الله جل وعلا، وليست الباء هنا للمعاوضة؛ بحيث أن الجنة وما فيها من النعيم تساوي أعمال العبد..كلا وألف كلا، فإنه لا تناسب مطلقًا بين ما يناله العبد في الآخرة من السعادة والحبور والهناءة والسرور وبين ما عمله في الدنيا ... فلو أن نعمة البصر فقط وُضعت في كفة وأعمال خمسمائة عام صيام نهارها وقيام ليلها، وُضعت في كفة فهذه العبادة لا تساوي نعمة الإبصار بعين واحدة، فما بالكم بنعم الله التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى .... قال جل وعلا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[(٢)]، والآيتان متطابقتان في شقهما الأول، والاختلاف في الشق الثاني يضع التوازن بين ظلم الإنسان لنفسه ولغيره وجهله بمقام وقدر ربه جل وعلا، وبين رحمة الله الواسعة التي شملت وعمَّت كل شيء.

---

(١) سورة النحل: الآية: (١٨).

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٣٤).

*** همم تجعل الحلم واقعًا:**

لابد للمرء في هذه الحياة الدنيا أن يحدد له هدفًا يسعى لتحقيقه، وهو في سبيل ذلك يضعه نصب عينيه، ويحلم بالوصول إليه، ونحن إذا لم نحلم بتحقيق أهدافنا لما سعينا إلى الوصول إليها، وعلى قدر الهمة وعلوها يكون الطموح.

والله جل وعلا يعطي العبد بقدر صدقه في الطلب وجِدِّه واجتهاده في نيل رضا ربه ومولاه.

وإليك خبر هؤلاء النفر الثلاثة الذين كانوا يعيشون في بلاد الأندلس، وكانت مهنتهم «حمَّارين» -أعزكم الله- أي: يستأجر الناس حمار أحدهم للوصول إلى بغيته في مقابل أجر، وكان منهم رجل في قمة التفاؤل والثقة فيما عند الله (جل وعلا)، فقال للآخرين: هيا بنا نحلم بتحقيق أمنياتنا ولن نخسر شيئًا.

فأما هو فقال: أنا أتمنى وأحلم أن أكون ملكًا من ملوك الأندلس؛ فضحكا وسخرا منه، وقالا: نعم يمكنك أن تحلم ولكن ليكن الحلم على قدر إمكاناتك، فقال لهما: إن هذا حلمي وسأسعى جاهدًا لتحقيقه إن شاء الله.

أما الثاني فقد قال: وأنا أحلم عندما تكون ملكًا من ملوك الأندلس أن تعطيني قصرًا جميلًا وفرسًا أبيضًا وزوجة حسناء، وشيئًا من المال والذهب.

وقال الثالث: أتمنى عندما تكون ملكًا من ملوك الأندلس أن تضعني على حمار وتطوف بي في شوارع المدينة وطرقاتها، ويقول الناس: هذا

هو الكذاب..هذا هو الكذاب.

فقال لكل منهما: عهدٌ عليَّ أمام الله تعالى لئن وصلت إلى ما أتمنى لأوفين بوعدي وأعطي كل واحدٍ منكما ما تمنى.

وقد كان... فقد بدأ هذا الرجل العجيب يسعى ويجتهد ويبذل حتى بنى نفسه وصار من أعظم ملوك الأندلس وكان اسمه «الحاجب المنصور» ولما أتم الله تعالى عليه النعمة تذكَّر هذين الرجلين الذين كانا يعملان معه؛ فأمر وزيره أن يُحضرهما، فلما وقفا أمامه.

قال للأول: ماذا كنت تتمنى؟ قال: كنت أتمنى أن لو أصبحت ملكًا أن تتكرم عليَّ بقصرٍ وكذا، وكذا..مما وعده به الملك إن صار ملكًا؛ فأمر الملك رجاله بأن يعطوه كل ما يطلب، وقال: أنا لا أنقض عهد الله أبدًا.

وأما الآخر فقال له: وأنت ماذا كنت تتمنى؟ فقال: عفا الله عما سلف فأنا لم أظن يومًا أنك ستبلغ ما بلغت؛ فسامحني، ولا تؤاخذني بما كان مني.

فقال الملك: لابد وأن يتحقق ما تمنيت وقد كان... فأمر الملك رجاله فحملوا هذا الرجل الثالث على حمار وطافوا به في شوارع المدينة، وطُرقاتها وهم يقولون: هذا هو الكذاب .. هذا هو الكذاب.

فالإنسان ما عليه إلا أن يحدد الهدف ويسعى لتحقيقه .... والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1] ...

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

ولكن على العبد أن يُحسن الظن بالله وأن يكون على يقين في قدرته وسعة ملكه وأن أمره بين الكاف والنون ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وأن خزائنه ملأى لا تنفد أبدًا.

وكما في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال مخبرًا عن رب العزة (جل وعلا) أنه، قال: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»[2].

وهذا معناه أنه لن ينقص من ملك الله تعالى شيئًا، والمثال هنا إنما هو للتقريب فقط، فاعلم أخي في الله أن الله جل وعلا إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه فعليك بهذه الأسباب وقدر الله سابق وما كان لك سوف يأتيك لا محالة.

وعلو الهمة بالمفهوم الذي أوضحناه ليس حكرًا على صنف من الناس بعينه أو على فئة دون غيرها، وإنما هو معنى واسع يشمل كل الناس على اختلاف مشاربهم وطبائعهم وثقافاتهم ... يشمل الكبير والصغير والرجل والمرأة ... فمن المفترض أن تكون شعلة الحماس في قلوبهم متقده وعندهم من الدافع والحافز ما تعلو به همتهم ولكننا سوف نستعرض علو الهمة وصورها فيما يتعلق بالشباب تارة وبالنساء تارة أخرى وبالصبيان كذلك حتى نتيقن من أن علو الهمة لا تعترف بهذه الفوارق وهذا التباين.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١١٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

* **علو همة الشباب:**

قلنا من قبل أن الشباب هم عماد الأمة وأملها في تحقيق السيادة والريادة لهذه الأمة المباركة ولذا صدَّرنا حديثنا عن علو الهمة بالحديث عن الشباب، والأمثلة على ذلك كثيرة نتخير منها بعض النماذج المشرقة النادرة التي تملأ القلب حماسة وشوقًا إلى بذل المهج في سبيل الوصول إلى رضا الله ومن ثم جنة الفردوس.

ونبدأ بالحديث عن جعفر بن أبي طالب، وما أدراك ما جعفر؟ فالذي يتصفح سيرته يرى العجب العجاب، وسوف نورد بعضًا من المواقف التي تبين ما كان عليه هذا البطل من الهمة العالية والإيمان الذي عانق قمم الجبال.

فهو أول من وضع بذرة للإسلام في بلاد الحبشة حين كان على رأس من هاجر من المسلمين إلى الحبشة هربًا من إيذاء مشركي مكة، ولما عرف القوم بذلك أرسلوا خلفهم اثنين ليردَّا هؤلاء المهاجرين إلى مكة مرة أخرى ليسوموهم سوء العذاب، ولكيلا لا تقوم للإسلام قائمة في مكة أو في خارجها... وهذان الرجلان هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة.

فلما قَدِما الحبشة ودخلا على ملكها النجاشي قالا له: هؤلاء الذين عندك إنما هم مجرد شباب طائشون هربوا من أهليهم معتنقين دينًا جديدًا يفرق بين الرجل وامرأته وبين الأخ وأخيه، فلا هُمْ على ديننا ودين آبائهم وأجدادهم، ولا هم دخلوا في دينك؛ فخلِّي بيننا وبينهم.

وكان النجاشي ملكًا عادلًا لا يُظلَم عنده أحد، وكان رجلًا عاقلًا

منصفًا، فقال لهم: لقد سمعت ما قلتموه؛ فدعوني أسمع منهم حتى أحكم بينكم، فكان على جعفر بن أبي طالب أن يبين للنجاشي في دقائق معدودات ماهية هذا الدين وما دفعهم إلى اعتناقه، ولك أن تتخيل أنه سيقف بين يدي هذا الملك ويشرح له موقفه وموقف من معه؛ فإما أن يتأثر ويقتنع بكلامه وبرأيه وإما أن يُسلِّمه هو ومن معه لهذين الاثنين آفلين إلى مكة، وسَلْ نفسك سؤالًا، لو أنك كنت في مكان سيدنا جعفر.. ماذا كنت تقول عن الإسلام؟ فتعالوا بنا لنعرف ماذا قال سيدنا جعفر.. وبماذا رد عليه النجاشي؟

❊ ❊ ❊

علو همة الشباب

كان لزامًا على جعفر بن أبي طالب أن يقول كلامًا واضحًا مُركّزًا مختصرًا حتى يقف النجاشي على حقيقة الأمر ويبين حكمه بينه وبين مشركي مكة على أساس من الاقتناع؛ فماذا قال المتحدث الرسمي باسم الوفد الإسلامي؟

قال: «كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نَسَبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكَفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات،وأمرنا أن نعبد الله وحده،لا نشرك به شيئًا،وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نُشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلَم عندك أيها الملك».

انظر إلى هذا الكلام الموجَّه في صميم الموضوع والذي يحسم المعركة من الجولة الأولى، فقد أسس سيدنا جعفر حديثه على محاور خمس:

١- عرَّف النجاشي مساوئ الجاهلية.

٢- عرَّفه بصاحب هذه الدعوة وهو النبي ﷺ.

٣- عرَّفه بمنهج صاحب هذه الدعوة وما جاء فيه من تعاليم وهو الإسلام.

٤- أخبره بما كان من كفار قريش من الظلم والإيذاء والقهر والتعذيب.

٥- استثار عطفه وحبه للعدل بأنه يعلم أنه لا يُظلَم عنده أحد.

فما كان من النجاشي إلا أن طلب أن يسمع شيئًا من القرآن، فقرأ عليه سيدنا جعفر بعضًا من سورة مريم فيما يتعلق بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام فلما سمع الآيات بكى حتى ابتلت لحيته وقال: والله إن الذي قلت والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، وأمر الرجلين أن ينصرفا راجعين إلى مكة، وهكذا وضع جعفر بن أبي طالب أول قدم للإسلام على أرض الحبشة.

*** مصعب الخير:**

وهذا مثال آخر لشباب علت همته حتى بلغت الأفق فكان سببًا لنشر الإسلام وتعليم الناس أمر دينهم فكانوا في ميزان حسناته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..وهو مصعب بن عمير رضي الله عنه «أول سفير للإسلام في المدينة المنورة».

وتبدأ القصة عندما بدأ النبي ﷺ يبحث عن أرضٍ بديلة يبذر فيها بذور دعوته إلى الإسلام لما أعياه التعب واستنفذ كل طريق لهداية قومه، فراح يدعو الناس عند الكعبة في مواسم الحج لعل أحدًا منهم أن يسمع له ويعتنق دينه ويتبنى دعوته ويسعى إلى نشرها.

وبالفعل قد كان ... فقد قصد النبي ﷺ ستة من الشباب من يثرب فكلمهم عن الإسلام فأسلموا، وكانوا من الأنصار؛ فلما رجعوا إلى بلدهم دعوا الناس إلى الإسلام فأسلم سبعة معهم، فعادوا في الموسم التالي للحج فبايعوا النبي ﷺ «بيعة العقبة الأولى» ولما كان الإسلام قد بدأ ينتشر في المدينة رأى النبي ﷺ أن يرسل إليهم من يعلمهم أمر دينهم، فوقع الاختيار على مصعب بن عمير، ولقد كان أهلًا لهذه الثقة وحسن الاختيار، فلما قدم المدينة نزل على صحابي جليل هو أسعد بن زرارة رضي الله عنه ، وبدأ في دعوة الناس إلى الإسلام فاستجاب عدد منهم ليس بالقليل، فرأى مصعب رجلين عليهما من الوقار والمهابة والهالة، فسأل أسعد: من هذين الرجلين؟ فقال: إنهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما من الملأ وسادة القوم.

وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة؛ فلما سمع بذلك قال سعد لأُسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليُسفِّها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أُسيد حَربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. وجاء

أسيد فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تُسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فهل خاف مصعب وارتعدت فرائسه؟ لا والله وما كان ليفعل، وإنما قال بحكمة شديدة وبهدوء الواثق من دعوته ونُبل رسالته، قال له: أَوَ تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قَبِلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركَّز حَربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فو الله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، وتُطهِّر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. فقام واغتسل، وطهر ثوبه وتشهَّد وصلى ركعتين.

وكيف لا وقد خالط الإيمان قلبه وعرف طريقه إلى رضا ربه.

وانظر وتأمل ما كان من أُسيد بن حضير لما هداه الله تعالى للإسلام.

هل قال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري؛ فلقد أنقذني الله من الكفر وكتب لي النجاة من النار، وظل مكتوف اليدين يمصمص شفتيه ويُقلِّب كفَّيه على ما يرى من أحوال الكافرين والمشركين..لا والله، إنها الغيرة على الدين والهمة العالية والحركة التي لا تعرف التوقف يومًا في سبيل نشر هذه الدعوة الخالدة..ماذا فعل أُسيد؟

قال لمصعب: إن من ورائي رجلًا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن -سعد بن معاذ- ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم . فقال سعد : أحلف بالله لقد

جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أُسيد على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه -وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك- لِيُخْفِرُوك. فقام سعد مغضبًا للذي ذُكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أُمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيدٌ من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أَوَ تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس. فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلّله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد - وهو الأُصَيْرِم- تأخر إسلامه إلى يوم أُحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقُتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبي ﷺ: «**عَمِل قليلًا وأُجر كثيرًا**»[١].

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام[٢].

فكان سعد بن معاذ سببًا في دخول أكثر أهل المدينة في دين الله تعالى، ويأتون يوم القيامة في ميزان حسناته، وهكذا لابد أن يكون المؤمن صادقًا في دعوته .. فإن من خالطت بشاشة الإيمان قلبه أحب الخير لكل الناس وأرادهم أن يدخلوا في دين الله أفواجًا ولاسيما أقاربه وذويه، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٣]، وقال عز من قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٤].

*** سعد بن معاذ:**

ولا يزال الحديث موصولًا عن سعد بن معاذ الذي له من المواقف الدالة على همته وصدقه مع ربه ما يثير الدهشة والحماسة في قلوب القارئين ومن ذلك ما كان منه في غزوة بدر، تلك الملحمة التي كانت نقطة تحول خطيرة في مسيرة الدعوة الإسلامية وتدعيم أركانها وترسيخ مبادئها.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٠٨) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٠) كتاب الإمارة.

(٢) من كتاب سيرة الرسول ﷺ/ للمصنف.

(٣) سورة الشعراء: الآية: (٢١٤).

(٤) سورة التحريم: الآية: (٦).

فلقد كانت البيعة التي بايع الأنصار إياها رسول الله ﷺ بعد رجوعهم في موسم الحج التالي بعد «بيعة العقبة الأولى» وكان عددهم بضعًا وسبعين، وكانت تسمى بـ«بيعة العقبة الثانية» وكان فحواها أن النبي ﷺ أخذ عليهم العهد والميثاق على السمع والطاعة في المنشط والمكره وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن ينصروه إذا قدم إليهم أي: إلى المدينة... أن يمنعوه ويدفعوا عنه كما يدافعون عن أزواجهم وأولادهم وأموالهم.

والشاهد: أن هذه البيعة لم تكن متضمنة الدفاع عن النبي ﷺ خارج المدينة، ولكن الأنصار خرجوا مع النبي ﷺ إلى بدر وقد كان عددهم مائتي رجل وهو ضعف عدد المهاجرين، والذين بلغ عددهم مائة رجل، فكانوا جميعًا ثلاثمائة رجل، وكان عدد المشركين كما تعلمون ألف رجل بحدِّهم وحديدهم وعدتهم وعتادهم، وهذه أول معركة يخوضها المسلمون.

والشاهد أنه لا تكافؤ هنا بين القوى، وذلك بمقاييس الحروب في ذلك الوقت؛ فقال ﷺ : «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاس**» ففطن لذلك أبو بكر وعمر والمقداد رضي الله عنهم ؛ فقالوا كلامًا حسنًا يبعث على الثقة والعزم على الجهاد والقتال المرير حتى يظهر الله الحق على الباطل ولكن هؤلاء الثلاثة من المهاجرين.

والنبي ﷺ إنما أراد بكلامه أن يتبين موقف الأنصار، فقال: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاس**»؛ فقام هذا البطل المغوار، سعد بن معاذ فقال كلامًا يَنُم عن عزيمة لا تلين وهمة لا تدانيها همة، فقال: «والله لكأنك تريدنا

يا رسول الله؟» قال: «أَجَل» قال: «فقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فَخُضَّته لخُضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فَسِر بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك، ثم قال: «**سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

وفي رواية أخرى ذكرها أهل السير أيضًا، قال سعد: «فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا حتى تبلغ (برك الغماد)[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

فَسُرَّ رسول الله ﷺ واستنار وجهه وقال: «**أبشروا فإن الله وعدني إحدى الحُسنيين**[2] **وإني لأنظر مصارع القوم من مكاني هذا ... هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان**»[3] وكان النصر المبين حليفًا للإسلام والمسلمين.

* وهذا موقف آخر لسعد بن معاذ، وما كان منه في غزوة الأحزاب التي نقض فيها يهود المدينة عهدهم مع رسول الله ﷺ، وكان لهم مع سعد صحبة ومودة في الجاهلية، فلما نصر الله المسلمين وردَّ الذين

---

(١) برك الغماد مكان معروف في أرض الحجاز.

(٢) الحُسنيين، أي: إما النصر وإما الشهادة.

(٣) من كتاب «سيرة الرسول ﷺ».

كفروا من الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيرا ذهب النبي ﷺ ليُلقن يهود بني قريظة الدرس وينفذ فيهم عقوبة خيانتهم ونقضهم للعهد؛ فسأل النبي ﷺ صحابته المشورة، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ.

وهنا درس في الولاء لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين والبراء من أعداء الله من المنافقين والكفار والمشركين؛ ... فقد ظن هؤلاء اليهود الخبثاء أن سعدًا سيداهنهم ويواليهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين.

وإنما قال لنفسه: آن لسعد بن معاذ أن يقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ... يا رسول الله أحكم فيها أن تُقتَل مقاتلتهم وأن تُسبَى نساؤهم وزراريهم وأن تُقسَّم أموالهم؛ فقال له النبي ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ**»[1].

*** علو الهمة وحسن الخاتمة:**

جرت حكمة الحكيم جل وعلا أن من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بُعث يوم القيامة عليه، ولأننا تكلمنا عن جعفر وعن مصعب وعن سعد ابن معاذ وما كان منهم من علو الهمة وصدق النية قضى الله تعالى أن يخلد ذكرهم وأن يكون ما فعلوه في ميزان حسناتهم إلى يوم القيامة.

وأحسن كذلك خاتمتهم فهذا جعفر الذي استُشهد في مؤتة حاملًا راية الإسلام بيمينه؛ فلما قُطعت حملها بشماله ولما قُطعت حملها بين عضديه، ولما قتل وعلم النبي ﷺ بذلك، قال وهو في المدينة: «رأيت

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٦٨) كتاب الجهاد والسير.

جعفر بن أبي طالب ﷺ ملكا يطير في الجنة مع الملائكة»[١]، ولذا سُمي (جعفر الطيار)، أو (الشهيد الطيار) ﷺ.

وهذا مصعب «فتى مكة المدلل» الذي كان يلبس من الثياب أفخرها، ويضع من الطيب والعطر ما يُشم رائحته من مسافة بعيدة فكان يعيش حياة رغدة يُنعَّم فيها بكل مُتع الحياة، ولكنه عرف أن كل ذلك متاعٌ زائل وأن الآخرة عند الله للمتقين فأراد ما عند الله زاهدًا فيما عند الناس؛ فكان كما علمنا شُعلة متقدة لا تخبو جذوتها في سبيل الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمر دينهم.

ولما مات لم يجدوا إلا حُلة صغيرة إذا غطوا رأسه بدت رجلاه وإذا غطوا رجليه بدا رأسه، فغطوا جسده رحمه الله من رأسه ووضعوا على قدميه شيئًا من الإذخر[٢].

وما بالكم برجل ترك الدنيا رغبة في الآخرة، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ولا يعلم جزاء ما قدمه هذا الصحابي الجليل وما بذله من تضحيات في سبيل الله تعالى إلا الله وهو موفيه إياه يوم القيامة.

* وأخيرًا وليس آخرًا هذا هو سعد بن معاذ الذي كان من إكرام الله تعالى له وتكليلًا لجهده الذي بذله في سبيل الله تعالى أنه لما مات اهتز له عرش الرحمن!!

نعم هذا بنص حديث رسول الله ﷺ فقد قال ﷺ: **«اهْتَزَّ عَرْشُ**

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٧٦٣) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٢٢٦).

(٢) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»[١].

يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : إنما اهتز العرش فرحًا بقدوم روح هذا الصحابي الجليل رضوان الله عليه؛ فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٠٣) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٦٦) كتاب فضائل الصحابة.

تَشَبّه بالرجال

نعم ... اهتز عرش الرحمن فرحًا بقدوم روح سعد بن معاذ، وكيف لا وهو الذي ضرب أروع الأمثلة في الصدق مع الله والتضحية والفداء في سبيل إعلاء كلمة الحق، فكان ما كان منه من البذل في خدمة الدين، وهو الذي قال: «اللّهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللّهم فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها . وقال في آخر دعائه : ولا تمتني حتى تُقر عيني من بني قريظة».

قال هذه المقولة عندما جُرح في غزوة الخندق فلما قال ذلك، اندمل الجرح والتأم بإذن الله؛ لأن الله جل وعلا سبق في علمه أنه سيستعمل سعدًا في نصرة دينه والذَّبِّ عن رسوله ولما حكم في بني قريظة كما قلنا من قبل انفجر الجرح -نفسه- لتصعد هذه الروح الطاهرة النقية إلى بارئها، ويقال لها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[1].

ونزل جبريل عليه السلام ليبشر النبي ﷺ مُخبرًا إياه أن العرش قد اهتز لموت سعد بن معاذ ... نعم فلقد جعل الله لهذه المخلوقات حسًا وشعورًا وإدراكًا..

(١) سورة الفجر: الآيات: (٢٧-٣٠).

اسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(١).

ومما يدلك على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٢). كما ثبت عند البزار أن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ أَتْبعُ خلواتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَهَبْتُ يَوْمًا، فَإِذَا هُوَ قَدْ خَرجَ فَاتَّبَعْتُهُ، فَجَلَسَ فِي مَوْضِعٍ فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَسَلَّمَ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَجَلَسَ، عَنْ يَمِينِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ يَمِينَ عُمَرَ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ حَصَيَاتٍ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِ عُمَرَ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِ عُثْمَانَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ»(٣).

وجاء أيضًا عند البخاري أنه ﷺ مَرَّ على جبل أُحد ومعه نفر من الصحابة؛ فقال: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(٤) نعم فهو ليس مجرد كتلة من الصخور والرمال وإنما هو مخلوق من مخلوقات الله جل وعلا له

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٤٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٧٩).

(٣) صحيح: رواه البزار في «مسنده» (٤٠٤٠)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١١٤٦).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٨٨٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٣٦٥) كتاب الحج.

إحساس وشعور، ولذلك لما صعد عليه النبي ﷺ وكان معه أبو بكر وعمر وعثمان فاهتز الجبل فضربه النبي ﷺ بقدمه وقال: «**اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**»[(١)].

الشاهد من الكلام أن هذا أمر ليس بمستغرب أن يحس العرش ويفرح ويهتز فرحًا وسرورًا بقدوم روح هذا الرجل الذي جاد بروحه في سبيل إرضاء ربه ونصرة دينه والذَّود عن رسوله ﷺ .

ولكن تقريبًا للمفاهيم حتى نعلم هذه القيمة الجميلة والكرامة التي أكرم الله بها هذا الصحابي الجليل، يقول النبي ﷺ كما صح عنه: «**مَا السَّموات السَّبْع فِي الكُرْسَيِّ إِلَّا كَحلَقَة مُلْقَاةٍ بَأرْضٍ فَلَاة وَفَضْلِ العَرْشِ عَلَى الكُرْسَيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلَاة عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَة**»[(٢)] والرحمن على العرش استوى..استواء يليق بجماله وجلاله وكماله ... والاستواء معلوم وكيفيته مجهولة والسؤال عنه بدعة كما نعلم جميعًا.

والله جل وعلا فوق عرشه يسمع دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصَّمَّاء في الليلة الظلماء ... وصح عن ابن مسعود أنه قال: «مَا بَيْن السَّمَاء إِلَى الْأَرْض مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، ثُمَّ بَيْن كُلّ سَمَاءَيْنِ مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، وَغِلَظ كُلّ سَمَاء مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، ثُمَّ مَا بَيْن السَّمَاء السَّابِعَة وَبَيْن الْكُرْسِيّ مَسِيرَة خَمْسمِائَة عَام»[(٣)] .

ولك أن تتخيل كل هذه السموات وما بينها لا يعدو أن يكون كحلقة

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٦٧٥) كتاب المناقب.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٢/ ٧٦ رقم: ٣٦١)، وصححه الألباني في مختصر العلو (١/ ٧٥).

(٣) ذكره ابن القيم في كتاب «تهذيب سنن أبي داود».

«خاتم» أو شيء من هذا القبيل أُلقي في صحراء شاسعة مترامية الأطراف؛ فكيف يبدو حجمه فيها ... هل هناك نسبة أو مقارنة؟

وهذه السموات كلها بالنسبة للعرش أيضًا كحلقة في فلاة ... واهتز العرش لموت هذا الرجل .... أي منقبة هذه؟

خذ الثانية حتى تعلم أن الله تبارك وتعالى يحب الصادقين الذين أوفوا بالعهد والميثاق وبذلوا كل غالٍ ونفيس في سبيل إرضائه ومحبته.. قال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ نَزَلَ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ شَهِدُوا جِنَازَةَ سَعْدٍ، مَا وَطِئُوا الأَرْضَ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ**»[١]، وكما أكد هذه المنقبة أيضًا ما جاء عند الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ الْمُنَافِقُونَ مَا أَخَفَّ جَنَازَتَهُ وَذَلِكَ لِحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ**»[٢].

يا للعجب وكأنهم لم ينزلوا إلى الأرض قبل اليوم ولن ينزلوا بعد ذلك اليوم!! يا للعجب وكأنهم قد أرسلهم الله جل وعلا لهذا الغرض فقط؟ نعم..وعلى رأسهم أمين وحي السماء جبريل عليه السلام ... فاللهم ألحقنا به واحشرنا معه في الفردوس الأعلى من الجنة.

وخذ هذه أيضًا، والمناقب كثيرة: جيء ذات يوم إلى النبي ﷺ بحُلة من الحرير -وهو مُحرَّم على الرجال كما تعلم- فلما لمسها الصحابة تعجبوا من لينها ونعومتها وجمالها، فقال لهم النبي ﷺ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ**

(١) صحيح: رواه البزار في «مسنده» (٣/ ٢٥٦/ ٢٦٩٨-كشف الستار)، وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» (٣٣٤٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٤٩) كتاب المناقب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٤٧).

لِينِ هَذِهِ ... لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرٌ مِنْهَا أَوْ أَلْيَنُ»[١].

يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: والمناديل تُعدُّ للوسخ والاستنثار؛ فإذا كان المنديل على هذه الكيفية فكيف يكون الثياب والفرش والقصور التي يتنعم بها في الجنة.

ويضحك الله عَزَّ وَجَلَّ للشهداء من أمثال سعد بن معاذ..وقد تسأل أيضحك ربنا؟!! نعم..ولكن ليس كضحكنا؛ فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

وبين ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ إِنْ يُلْقَوْا فِي الصَّفِّ لا يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ (يتمرغون) فِي الْغُرَفِ الْعُلَى مِنْ الْجَنَّةِ وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي مَوطِنٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ»[٣]؛ فأضف هذا الصنف مع السبعين ألفًا الذين تكلمنا عنهم قبل ذلك ممن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

همة تخطف الأبصار والعقول، ولكن هذه الأمة لا تعدم أن تُنجب أمثال سعد وغيره ممن ساروا على دربه .... أتدرون متى أسلم سعد، وكم كان عمره عندما رحل إلى الرفيق الأعلى؟

ولا تتعجبوا فإن الله تعالى إذا أراد بالعبد خيرًا استعمله لنصرة دينه ووفقه لطاعته ... أسلم سعد وعنده من العمر ثلاثون عامًا، ومات وهو

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٠٢) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٦٨) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٢١٩٧٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٧).

في سن السادسة والثلاثين..سبحان الملك!! ست سنوات، ويهتز له عرش الرحمن عند موته؟ نعم..فالعبرة ليست بالسنين التي يعيشها المرء وإنما العبرة بأعماله وما يقدمه لدينه من تضحيات، ومن يدري لعل عرش الرحمن قد اهتز لغير هذا الصحابي الجليل ممن حذا حذوه وانتهج منهجه، ونحن لا نعلم بذلك فلقد انقطع الوحي من السماء بموت النبي ﷺ، ولا يمنع حدوث ذلك مع سيدنا سعد أن يحدث مع أي رجل من هذه الأمة، وذلك إنما هو محض فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده، ولكن ما عليك إلا أن تتلمس الطريق وتستلهم العبرة والعظة، وأن تشمر عن ساعد الجد لتلحق بركب السابقين لعلك أن تكون منهم وفي زمرتهم يوم القيامة.

واعلم حبيبي في الله أن الفرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة، وإذا أتت فاغتنمها بقدر ما تستطيع ولتكن من القلة القليلة التي مدحها الله تعالى في القرآن: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(١).

وقال (جل وعلا): ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(٢).

ولا تقل أنا رجل واحد في مليارات المسلمين، فالعبرة ليست بالعدد وإنما هو الاصطفاء؛ فلتكن من هذه الفئة القليلة التي ينصر الله تعالى به دينه ويرفعهم يوم القيامة في أعلى الدرجات، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحقيق التوحيد الخالص ومتابعة النبي الخاتم ﷺ لتكون من الفرقة الناجية، كما صح بذلك الحديث فلقد قال ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ**

---

(١) سورة ص: الآية: (٢٤).

(٢) سورة سبأ: الآية: (١٣).

النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»(١).

قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيهِ اليَوم أَنَا وَأَصْحَابِي**».

وهي الطائفة المنصورة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»(٢) اللهم اجعلنا منهم وفيهم..آمين.

ومن علامات إكرام الله لك أن جعلك من هذه الأمة الكريمة، ومن أتباع خير الأنام ﷺ فلم تكن من عُبَّاد الأصنام والأوثان أو من عُبَّاد النار أو ما شابه ذلك، وهذا في حد ذاته دليل على أن الفرصة لا تزال قائمة في أن تقدم لهذا الدين ما تقربه العيون وتشفى به الصدور من السعي الدائم المستمر للأخذ بأسباب التمكين لهذا الدين وأن تكون ممن يضعون لبنة في هذا البناء الشامخ، وتكون ممن اجتباهم الله تعالى فنفع بهم الأمة ليكون ذلك طوق نجاة لك في الدنيا وكرامة وسعادة وسرورًا وحبورًا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

رزقنا الله وإياكم الهمة العالية والنية الصادقة ووفقنا إلى عمل الخير وخير العمل إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) صحيح: رواه أصحاب السنن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٨٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٢٠) كتاب الإمارة.

وما زلنا مع الشباب

ولا زلنا مع الشباب والأمثلة النابضة بقوة العزيمة وعلو الهمة.

ونخص الشباب بالذكر ونسلط عليهم الضوء بصفة خاصة، وذلك لأن النبي ﷺ إنما اعتمد في تأسيس الدولة وفي الحروب والغزوات والسرايا على الشباب، الذين حملوا على أعتاقهم أمانة تبليغ كلمة الله تعالى إلى خلقه.

ومن هؤلاء شاب مَن ناهز عمره الثالثة عشرة (وهو زيد بن ثابت رضي الله عنه) فلما وجد في نفسه من القوة والقدرة على الجهاد ذهب إلى بيت النبي ﷺ فسأله أن يُجيزه في الجيش، وكان النبي ﷺ لا يجيز لأحدٍ لم يبلغ الخامسة عشر من عمره أن يكون في صفوف المقاتلين، ولذلك ردَّه النبي ﷺ؛ فبكى زيد وحزن حزنًا شديدًا؛ فأشارت عليه أمه أن يحاول إظهار شيء من مهاراته وقدراته في مجال آخر غير القتال مما يفيد به الإسلام والمسلمين، فذهبت به إلى النبي ﷺ وأوضحت له أن لزيد قدرة فائقة على الحفظ والفهم، ولما توسم فيه النبي ﷺ ذلك قال له: يا زيد لا آمن يهود على كتاب الله، وكلفه بأن يتعلم لغتهم، لأن النبي ﷺ كان يرسل إليهم كتبًا ويستقبل منهم كُتبًا كذلك.

ومَن عَلِم لغة قوم أَمِن مكرهم، ولك أن تتخيل، وأن تضع نفسك في هذا الموقف، ففي كم تظن أن تتعلم العبرية بل والسريانية معها؟ إذا كنت منصفًا ستقول في سنتين أو ثلاث سنوات، وحتى لو تعلمتها فلن تتقنها كمن يتكلمون بها منذ أن تعلموا النطق والكلام، أتدري في كم تعلم بل

أتقن زيد هاتين اللغتين؟ في ثمانية عشر يومًا على الأكثر، فأي عقل هذا الذي وعى كل مفردات اللغتين؛ بل وأتقنها وصار لسانه طلقًا...إنها الهمة العالية والبركة من الله تبارك وتعالى، فالفهم والعلم رزق وفضل من الله جل في علاه يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وكيف لا يكون أهلًا للفضل مثل زيد كاتب وحي السماء، نعم هو لم يكن وحده الذي يكتب الوحي عن رسول الله ﷺ ولكنه كان من أبرزهم، كما أنه هو الذي قام يجمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر وعثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وذلك عندما قُتل عدد ليس بالقليل مما يجاوز السبعين من حفظة كتاب الله تعالى فخُشي على القرآن من الضياع، فكان لزيد شرف جمع وكتابة المصحف الموجود بين أيدينا الآن، ولك أن تتخيل هذه المكرمة والمنقبة؛ فكل من قرأ حرفًا من كتاب الله وكتب له من الأجر عشر حسنات كما قال ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»**(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: فمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها لازم لكل الحسنات وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٢)، وأما زيادة المضاعفة على العشر فهي لمن شاء الله أن يضاعف له.

بل إن الزيادة قد تصل إلى سبعمائة ضعف وأكثر وسبب ذلك بعد

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٩١٠) كتاب فضائل القرآن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٦٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٦٠).

فضل الله تعالى خشوع القلب والتدبر والفهم والعمل بما يقرأ ونحو ذلك مما تزداد به الحسنات.

كل هذا الأجر تدرون في ميزان حسنات مَن سيكون بعد النبي ﷺ وأبي بكر وعثمان رضي الله عنهما؟ يكون في ميزان زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وإنما كان الأجر على قدر المشقة، فكم تحمَّل زيد من المشقة في جمع الآيات من الرقاع وسعف النخيل، والعظام ومن صدور الحفظة، ناهيك عن تحمل هذه الأمانة في حد ذاته، فهو أمرٌ جَلل.

ولذا كان إذا جمع آية يُشهد عليها اثنين من الحفظة، فإذا أقرَّا بأنهما سمعاها على هذا النحو من رسول الله ﷺ كتبها، فوجد آية كان يحفظها ويبحث عنها، فما وجدها إلا عند ثابت بن خزيمة، الذي جعل الله شهادته بشهادة رجلين(1).

الشاهد أن زيدًا قام بجمع المصحف على نحو ما ذكرنا في عهد أبي بكر رضي الله عنه؛ فلما مات وضعوه عند عمر وظل عند ابنته حفصة حتى عهد

---

(١) وهذه التسمية لها مناسبة، فيُروى أن النبي ﷺ كان خارج المدينة في سفر له، فقابل أعرابيًا وأعرب عن رغبته في شراء جَمَلٍ منه، واتفقا على ثمنه، فقال له النبي ﷺ ولكن أمهلني حتى أصل المدينة فأعطيك ثمنه وأستلمه، واتفقا على ذلك.
والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا كما جاء في الحديث، ولكن الرجل في طريقه قابل رجلًا آخر فقال له الرجل: أشتري منك هذا الجمل بكذا وكذا وزاده على ما كان رسول الله ﷺ قد اتفق معه عليه من ثمن فباعه له، ولما علم النبي ﷺ بذلك، قال: لقد اشتريته منك قبله، فأنكر الأعرابي ذلك، وكان ثابت بن خزيمة مارًا في طريقه فسمع ما دار من الحديث؛ فلما علم القصة، قال: إني لأشهد يا رسول الله أنك قد اتفقت مع هذا الأعرابي على كذا وكذا، فقال له النبي ﷺ: بم تشهد وأنت لم ترَ شيئًا؛ فقال: أشهد بصدقك يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين.

خلافة عثمان على ما جاء في صحيح البخاري.

ثم لما كثرت الفتوحات الإسلامية ... وكان الناس يقرأ كلٌّ منهم بقراءة تختلف عن غيره وذلك لأن القرآن نزل على سبعة أحرُف وظن كل منهم في الآخر أنه يحرف في كتاب الله حتى كاد أن يُكفِّر بعضهم بعضا، فجاء حذيفة بن اليمان وكان أعلم الصحابة بأمور الفتن، أسبابها وعلاجها وما قد تُسفر عنه، ودخل على عثمان بن عفان قائلًا: يا أمير المؤمنين أدرك الناس حتى لا يختلفوا على كتاب الله كاختلاف اليهود والنصارى، فما كان من عثمان إلا أن استأذن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تأتي بما عندها من القرآن، وأمر زيدًا أن يجمع القرآن مرة ثانية ولكن على نسخة واحدة يجتمع على قراءتها كل الأمصار والأقطار واللغات وقد كان بعون الله وتوفيقه [١]، ثم حرق وأعدم ما عداه من النسخ حتى تتوحد كلمة المسلمين وتستأصل شأفة الخلاف من جذورها، وكل ذلك في ميزان من؟ في ميزان زيد بن ثابت صاحب الهمة العالية والنية الصادقة.

*** اصدق الله يصدقك:**

والشيء بالشيء يُذكَر، وعن الصدق والصادقين نتحدث... فهذا صحابي جليل يقص لنا الإمام النسائي خبره، وما كان منه عندما جاء إلى النبي ﷺ فبايعه على الإسلام والطاعة في المنشط والمكره وغير ذلك، فقاتل مع المسلمين في غزوة خيبر ولما فتحها الله عليهم كان هناك من الغنائم الكثير، وقام النبي ﷺ بتوزيع تلك الغنائم، ولم يكن هذا الأعرابي موجودًا ساعتها، فقد كان في سفرٍ قريب، فلما عاد من سفره قال الصحابة

(١) وهذا هو ما يسمى بـ«المصحف الإمام» مصحف عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه قسمتك من الغنائم، فنظر إليها فإذا هي إبل وغنم وخيل وسهام وحراب ورماح وغير ذلك، أتدرون ماذا فعل؟

ذهب إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله والله ما على هذا اتبعتك؛ فقال له النبي ﷺ: فعلى ماذا اتبعتني إذن؟ فقال الأعرابي: على أن أُرمى هاهنا -وأشار إلى حلقة- أي أن يُرمَى بسهم فيقع في حلقه فيخر شهيدًا في سبيل الله تعالى، فقال له النبي ﷺ: «**إِنْ تَصْدُقِ الله يَصْدُقْكَ**»، فلما كانت الغزوة التي تلت خيبر، جيء بهذا الصحابي وقد رُمي بسهم في نفس المكان الذي أشار إليه، فلما علم النبي ﷺ بذلك قال أهو هو؟ قال نعم فقال ﷺ: «**صَدَقَ الله فَصَدَقَهُ الله**»، ثم قال: «**اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ**»[1].

تأمل أخي وحبيبي في الله..من الذي شهد له بأنه قد مات شهيدًا؟ إنه رسول الله ﷺ... فانظر إلى همته وبذله وتضحيته في سبيل رفع راية الحق عالية خفاقة، وانظر إلى عاقبته التي ختم الله جل وعلا له بها (جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

رزقنا الله وإياكم الفردوس من الجنة.

*** حِب رسول الله ﷺ زيد بن حارثة:**

وهذا زيد بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِب رسول الله ﷺ يضرب أروع المثل في التضحية والفداء والهمة العالية، فلقد كان مع أمه ذات يوم لزيارة بعض

---

(١) صحيح: رواه النسائي (١٩٥٣) كتاب الجنائز، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٣٦).

أقاربه فأغارت عليهم أحد القبائل فأخذوا زيدًا وباعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام الذي كانت عمته السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ فأهداه إليها؛ فلما رآه النبي ﷺ حين ذهب يخطب السيدة خديجة وقع حبه في قلبه فلما رأت السيدة خديجة ذلك أهدته إلى النبي ﷺ فأحبه حبًا شديدًا حتى أنه خرج ذات يوم ونادى الناس عند الكعبة أني أُشهدكم جميعًا أن زيدًا ابني يرثني وأرثه، وذلك بالطبع قبل الرسالة وتحريم التبني، فسُمِّي من ساعتها زيد بن محمد، حتى نزلت آيات سورة الأحزاب التي تحرم ذلك وتوضح بأن النبي ﷺ رسول الله وليس أبًا لأحد على نحو ما قلناه ... قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[1].

وكان زيد من الثلاثة الذين أمَّرهم النبي ﷺ على غزوة مؤتة، ولقد تكلمنا عنها بشيء من التفصيل ولكن الشاهد أن زيدًا هو أول من خاض المعركة حتى يقول الراوي «شاط في رماح القوم»، والعبارة لا تحتاج إلى تحليل ولا تفسير ... فقد جاد بنفسه في سبيل رضا ربه وإعلاء كلمته ونصر دينه.

*** الحِب بن الحِب أسامة بن زيد:**

وهذا ولده الحِب بن الحِب أسامة بن زيد ابن التاسعة عشر والذي رأى أباه يخر صريعًا أمامه في مؤتة فلما عاد إلى المدينة حزينًا هائمًا على وجهه، استقبله النبي ﷺ والتزمه، أي: احتضنه، وقال له: غبت عنا ثم جئت تُبكينا؟!

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٤٠).

كن رجلاً

ويتضح من قول النبي ﷺ فرط حبه لأسامة ولقد كان يُلقَّب بالحِب ابن الحِب لمكانة أبيه زيد بن حارثة من رسول الله ﷺ ولقد علم الصحابة بذلك واشتهر فيهم، ولذلك عندما سرقت المرأة المخزومية، لم يجدوا من يُشَفِّعُوه ليكون واسطة بينهم وبين النبي ﷺ ليعفو عنها، لم يجدوا أقرب إلى قلبه ﷺ من أسامة بن زيد، ولكن النبي ﷺ غضب غضبًا شديدًا، وكان ﷺ لا يغضب لنفسه قط، إلا أن تُنتهك حرمة من حرمات الله تعالى فقال: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ**» ثم قام فخطب، قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا**»(١).

وكفى بأسامة فخرًا وشرفًا أن أمَّره رسول الله ﷺ قائدًا عامًا لجيش فيه عمالقة الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وغيرهم من الأفذاذ الكبار، وما كان ذلك كذلك إلا لعلو همته وبذله وتضحيته، ولكن أتدرون كم كان عمر أسامة حين قاد هذا الجيش؟ كان لا يتعدى التاسعة عشر من عمره، وهذا اصطفاء من الله جل وعلا لأسامة بن زيد فهو أعلم به من رسوله والصحابة والناس أجمعين.

وهكذا إذا كان للعبد حال مع الله كان له عنده من الفضل ما لا يصل

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٨٨) كتاب الحدود، ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

إليه غيره إلا إذا عمل بعمله أو زاد عليه، ولذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»(١).

*** رجل لو أقسم على الله لأبرّه:**

ومن هؤلاء البراء بن مالك شقيق أنس بن مالك رضي الله عنهما، ... والشيء بالشيء يُذكَر ولك أن تتخيل رجلًا يقسم على الله فيبر الله تعالى قسمه.

ومن ذلك ما كان في معركة «تُستر» حيث استنفذ المسلمون كل الطرق المعهودة في الحروب لفتح الحصن ولكنه استعصى عليهم؛ فلجأوا إلى أسباب السماء والدعاء والتذلل لله رب العالمين، فذهبوا إلى البراء بن مالك، وقالوا: لقد سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**»(٢)، وعلمنا أنك منهم؛ ألا تُقسم على الله جل وعلا أن يفتح علينا هذا الحصن، فقام البراء وقال: «اللهم إني أقسم عليك أن تنصر جند المسلمين وأن ترزق البراء الشهادة في سبيل الله»؛ فاستجاب الله لدعائه وأبرَّ قَسَمه ونصر المسلمين ورزقه الشهادة في سبيله.

*** علامات الرجولة ومعاييرها:**

هؤلاء هم الرجال الذين سماهم الله (جل وعلا)، ولكن ما هي حيثيات الرجولة ومعاييرها؟

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٥٤) كتاب المناقب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٧٣).

إذا تأملت أسلوب القرآن حين تكلم عن الرجولة، تجده تارة يقول: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾(١)، وتارة يقول: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾(٢)، ويقول أيضا: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(٣)، وتارة يقول: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾(٤).

إذًا فالرجولة إنما تُقاس بالإيمان والصدق والبذل والتضحية في سبيل الله تعالى؛ فلا هي بالسن ولا بالقوة ولا بالمال وغير ذلك.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم　　　إن التشبه بالرجال فلاحُ

ولكن هل دخل في قلب البراء أي شيء من العُجب والرياء حين زاع

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٢٣).
(٢) سورة النور: الآية: (٣٧).
(٣) سورة يس: الآيات: (٢٠-٢٧).
(٤) سورة غافر: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

صيته بين الصحابة بهذه الكرامة والمنقبة؟... لا والله، وما كان ينبغي له أن يفعل... وذلك لأنه ولكنه يعلم يقينًا أن ما عند الله خيرٌ وأبقى، ويعلم أن ما أعده الله تبارك وتعالى للشهيد من الكرامة والنعيم المقيم خيرٌ من الدنيا وما فيها ... كما جاء عند الإمام أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال: **«لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سَبْعُ خِصَالٍ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»**[1].

فاللهم إنا نسألك شهادة في سبيلك مقبلين غير مدبرين كما نسألك الموت في بلد حبيبك ﷺ.

*** سيف الله المسلول:**

وهذا سيف الله المسلول الذي لم يُهزم قط لا في الجاهلية ولا في الإسلام.

البطل الهمام صاحب العقلية القيادية الحربية الفذة خالد بن الوليد رضي الله عنه فلقد كان له من المواقف التي تدلل على بذله وتضحيته ما تحتار العقول في تخيله وتعجز الألسنة عن وصفه والأقلام عن تسطيره، ومن ذلك على سبيل المثال: ما كان منه في سرية مؤتة -والتي تكلمنا عنها- عندما استشهد الثلاثة الذين أمَّرهم النبي ﷺ وهم زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وما جاءوا به في هذه المعركة العجيبة.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٦٦٣) كتاب فضائل الجهاد، وأحمد في «المسند» (١٦٧٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٧٥).

اتفق المسلمون على خلافة خالد لقيادة الجيش، فقاتل معهم قتالًا مريرًا وأبلى بلاءً حسنًا، ولما وجد القوم يفوقون المسلمين عددًا وعُدة وعتادًا، لجأ إلى حيلة عسكرية وخطة ذكية تُدرَّس في الأكاديميات العسكرية، أتدرون ماذا فعل؟

أبدل ميمنة الجيش فجعلها في الميسرة وأبدل المقدمة فجعلها في المؤخرة، وقسم الجيش نصفين، الأول في القتال والآخر على بعد كيلو متر..ما عمله؟

يثيرون التراب والغبار ويُكبرون ويصيحون حتى يظن القوم أنه مَدَدٌ من المدينة، وأفلحت الحيلة ونالت من القوم فلما رأوا وجوهًا جديدة لم يروها من قبل ... ولما سمعوا صيحات التكبير قذف الله في قلوبهم الرعب وقتل المسلمين منهم خلقًا كثيرًا، ثم أمر خالد الجيش أن يرجع القهقري ببطء حتى يظن القوم أنهم يسحبونهم لمصيدة أو فخ فيرجعون عن قتال المسلمين، وقد كان ... ورجع خالد ﵁ بالجيش الإسلامي ظافرًا منتصرًا مؤيدًا بنصر الله تعالى.

ومن ذلك أيضًا ما كان منه، عند فتح «قِنِّسرين» إحدى البلدان التي فتحها المسلمون في بلاد الشام، ولقد كان مجرد ذكر اسم خالد بن الوليد وعزمه على الخروج لملاقاة أعداء الله، كان ذلك كفيلًا بأن يقذف الرعب في قلوب قوادهم فلما تحصن القوم بأسوار البلدة، فأرسل له خالد رسالة يقول فيها:

«أما بعد..من عبد الله خالد بن الوليد إلى قائد جيوش الروم في «قِنِّسرين»؛ فأين تذهبون؟ فلو صعدتم إلى السحاب لرفعنا الله إليكم أو لأمطركم علينا فقتلناكم».

فلما وصلت الرسالة إلى القائد أخذه الرعب والهلع ففتح الحصن، ولما قابل هذا القائد خالدًا أراد أن يسخر منه فقال له: سمعت أنه ما جاء بكم إلا الجوع والعطش؛ فتعالوا أُعطي كل واحد منكم بعض الدنانير والكسوة والطعام، وكل فترة تأتون لتأخذون مثله -يعني: نحوًا من هذا القبيل- فقال له خالد: والله ما أخرجنا الجوع ولا العطش ولكننا قومٌ نحب شرب الدماء، ولقد سمعنا أنه لا يوجد أطيب من دماء الروم فأتينا إليكم لنشرب من دمائكم.

وذلك ليرد عليه إهانته ويلقنه درسًا لا ينساه ... فلما سمع قائد الروم هذا الكلام سلَّم الحصن رغبة منه في حقن دمه ودم من خلفه.

وهذا درس آخر إن دل على شيء فإنما يدل على ما تنطوي عليه نفس خالد من محبة الله ورسوله ويفيض به قلبه من التوكل على ربه واليقين الكامل في معيته ونصرته للإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان وإن رغمت أنوف.

وهذه الواقعة قد لا يصدقها البعض حين يعرضونها على العقول وينظرون إليها بعين المنطق ولكن الله تعالى إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

وذلك كما نزع الله جل وعلا خاصية الإحراق من النار التي أُلقى فيها إبراهيم عليه السلام ... والحديث رواه الإمام أحمد في كتاب «الفضائل»، ومفاد هذا الخبر: أن أحد قواد الروم في أحد الحصون قال لخالد بن الوليد: سمعت أنكم تتوكلون على ربكم، فقال خالد: نعم؛ فقال له القائد: إن كنت متوكلًا على الله حقًا فاشرب هذا الكوب من السم.

وانظر وتأمل..هذا ليس مجرد مشروب قد وضع عليه بعض السم، وإنما هو كوب من السم الخالص!!

فنظر خالد إلى الكأس، وقال: سأفعل إن شاء الله .. فلما همَّ بشربه قال له بعض الجنود: يا خالد ستقتل نفسك؛ فقال لهم: دعوني، وأمسك الكوب، وقال: باسم الله توكلت على الله ثقة بالله ثم شرب السم، يقول الراوي: فوالله ما ازداد إلا صحة وعافية.

إنه اليقين الذي إذا خالطت بشاشته القلوب في سبيل رضا ربها والفوز بجنته ودار كرامته.

ولما وافت خالد بن الوليد المنية وجاء اللقاء والانتقال إلى الرفيق الأعلى، كان غاية ما يتمناه أن يموت شهيدًا في سبيل الله، ولكنه مات على فراشه، فقال: «لقد طلبت القتل مظانّه، فلم يُقدَّر لي أن أموت إلا على فراشي، ولا والله الذي لا إله إلا هو ما عمل شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتُّها وأنا مترس، والسماء تهلني ننتظر الصبح حتى نغير على أعداء الله، لقد شهدت كذا وكذا مشهداً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير، لا نامت أعين الجبناء، عدتي وعتادي في سبيل الله».

فنحسبه إن شاء الله شهيدًا عند الله، وإن مات على فراشه، وذلك لما جاء في الصحيح أنه ﷺ قال: **«مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»**[1]؛ فهو بنيته هذه يبلغ منازل الشهداء

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩)، كتاب الإمارة.

ويُحشر معهم يوم القيامة هو ومن مات على ذلك.

وعلى الرغم من ذلك كله، ماذا فعل عندما جاء الأمر بعزله من قيادة الجيش من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين هل قال لماذا فعل أمير المؤمنين هذا؟

لا والله؛ فهو يعلم أن لقرار عمر وجاهته ويعلم قبل ذلك ما لعمر من فضل ومناقب، فهو الذي قال عنه وفي حقه رسول الله ﷺ: «**لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ**»[١]، وقال أيضًا: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ**»[٢]. فهو المحدث المُلهَم الذي ينزل القرآن موافقًا لرأيه في أكثر من تسعة عشر موضعًا، وإنما كان الغرض من هذا القرار كما قال عمر حتى لا يفتح على المسلمين باب فتنة.

قال عمر: «أما إني ما عزلت خالدًا عن تهمة ولا ريبة ولا خيانة ولكني سمعت الناس يتحدثون أن الجيش الذي فيه خالد لا يُهزَم أبدًا فخشيت أن تتعلق قلوب الناس بخالد من دون رب خالد فيُفتنون بذلك».

وذلك أيضًا خشية أن يقع في قلب خالد شيء من العجب فهو بشر كبقية البشر على كل حال، وهذا هو نفسه ما جعل البراء بن مالك يسأل الله الشهادة في سبيله، فهي خير مما طلعت عليه الشمس ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٦٨٦) كتاب المناقب، وأحمد في «المسند» (١٦٩٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٨٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٨٢) كتاب المناقب، وأبو داود (٢٩٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٣٦).

* **والله إني لأحبك يا معاذ:**

ولا يفوتنا ونحن نتكلم عن علو همة الشباب أن نذكر هذا الصحابي الجليل؛ لنقف على ما قدَّمه لهذا الدين باذلًا في ذلك كل ما يملك مُسخِّرًا إياه لخدمة الدعوة الإسلامية ليُدخل الناس في دين الله أفواجًا ويكون ذلك في ميزان حسناته ويكفي أن نذكر من مناقبه كلمة لو قيلت لأحدنا فوالله ما يسره أن تكون له الدنيا وأمثالها، أتدرون ماذا قال له رسول الله ﷺ؟

«وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فَقَالَ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(1).

وسبحان الله.. الواحد منا يتمنى أن لو رأى رسول الله ﷺ في منامه فقط، ويدفع في سبيل ذلك كل ما يملك، لو صدقت محبته ونيته ... ولذا أراد أحد المشايخ أن يُعلِّم أحد تلامذته درسًا في صدق الطلب، عندما سأله هذا التلميذ أن يدله على طريقة يرى بها النبي ﷺ في المنام.

فما كان من هذا الشيخ إلا أن دعا تلميذه للطعام ودَسَّ له الملح فيه، وكلما طلب هذا التلميذ ماء؛ أمره شيخه بالصبر حتى يتعلم الدرس.

وقال له: سوف أعطيك من الماء ما تريد حين نقوم في الثلث الأخير لقيام الليل، فلما أيقظه للصلاة سأله: ماذا رأيت في منامك؟ فقال له التلميذ: رأيت أنهارًا تجري وبحارًا تتدفق وأمواجًا يسابق بعضها بعضًا ورأيت السماء تُمطر والأرض تتفجر منها ينابيع الماء.

---

(1) صحيح: رواه أبو داود (١٥٢٢) كتاب الصلاة، والنسائي (١٣٠٣) كتاب السهو، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

فكانت رؤيته محصورة في الماء الذي نام وهو مشتاق إليه وعلى أمل أن يحصل عليه عند استيقاظه من النوم، فقال له الشيخ: نعم ... صدقت نيتك فصدقت رؤيتك ولو صدقت محبتك للنبي ﷺ لرأيته في منامك.

فالسبيل إلى رؤية النبي ﷺ في المنام هو محبته واتباعه والسير على نهجه وسنته، ومن الناس في أيامنا هذه من يرى النبي ﷺ كثيرًا ولكنهم قليل.

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قَلَّ لَيْلَةٌ تَأْتِي عَلَيَّ إِلَّا وَأَنَا أَرَى فِيهَا خَلِيلِي عليه السلام وَأَنَسٌ يَقُولُ ذَلِكَ وَتَدْمَعُ عَيْنَاهُ».

الشاهد: أن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى يقول هذه الكلمة لمعاذ، بل والأكثر من ذلك أَنَّهُ لقَّبه بلقب لا يدانيه لقب فقال ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»(١).

انظر ... أعلم الأمة بالحلال والحرام: معاذ بن جبل ... وفي الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس..وغيرهم من كبار الصحابة، ويقول النبي ﷺ هذا في حق معاذ.

والأعجب من ذلك أتدرون كم كان عمر معاذ وقتها؟

هناك رواية تقول أن عمره كان ثمان وعشرين سنة والأخرى تقول أنه كان ثلاثًا وثلاثين، أي: في ريعان شبابه، وأي شيء تظنون أنه أوصل معاذ ابن جبل رضي الله عنه لهذا اللقب -أعلم الأمة بالحلال والحرام بعد نبيها ﷺ -

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٧٩٠) كتاب المناقب، وابن ماجة (١٥٥) في المقدمة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٥).

إلا همته العالية، وصدقه مع ربه ورغبته في لقاء ربه راجيًا ما عنده من النعيم المقيم والأجر العظيم، وكيف لا وقد قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»[1].

ولذا قال رضي الله عنه عند أول سكرات الموت الذي هو باب العبور إلى ملاقاة ربه وقد سأل عن الصباح، فقالوا: قد أصبحنا، فقال: «أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار مرحبًا بالموت مرحبًا زائر مُغِبٌّ وحبيب جاء على فاقة[2] لا أفلح مَن ندم ... اللهم إني قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذكر».

هذا ما قاله معاذ عند موته؛ فماذا تظن نفسك قائلًا عند سكرات الموت؟

إن كنت ممن يقولون هذا الكلام مع حسن العمل وحسن الظن في الله فهنيئًا لك، ونسأل الله لك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وإن كنت من غير ذلك، فلتقف مع نفسك وقفه صادقة تعيد فيها حساباتك وتعود فيها إلى ربك فتجدد العهد معه وتتدارك ما فاتك؛ فالعبرة بالخواتيم..ختم الله لنا ولكم بخاتمة السعادة أجمعين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٨) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٣) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) جاء على فاقة، أي: بعد احتياج وافتقار إليه.

أمثلة لعلو همة الشباب

لا نزال أحبتي في الله في بستان علو همة الشباب؛ نقطف من ثماره ونشرب من معينه، ونستنشق من عبيره وشذاه، لعلنا نتخذ من ذلك دافعًا تعلو به همتنا وتصح به وجهتنا وتسمو به غايتنا، وأغلب الظن عندي أن هذا قد حدث عند البعض ولكنه لم يصل إلى الحد المرجو عند البعض الآخر، ولذا نسوق من الأمثلة ما تتم به الفائدة وتعلو به الهمة لنكون وبحق في زمرة السابقين الذين لا يدخرون جهدًا في سبيل الوصول إلى رضا ربهم -جل في علاه-.

*** الباحث عن الحقيقة:**

هذا هو اللقب الذي اشتهر به هذا النموذج الفريد الذي أعياه البحث عن الحقيقة وعن الدين الحق الذي رضيه الله تعالى لخلقه..

إنه الصحابي الجليل «سلمان الفارسي» رضي الله عنه وأرضاه؛ فلقد كان أبوه رئيسًا ذو مكانة عالية في قومه، وكان مسئولًا عن خدمة النار التي كان يعبدها أهل فارس، وكان من الثراء والغنى بمكان، بل لقد كان سلمان هو الذي يشعل تلك النار وكان مسئولًا عن بقائها مشتعلة، ولكنه لم يكن راضيًا عما يفعل، فكيف يكون إنسان كرَّمه الله وأعطاه من النعم وسخر له كل ما في هذا الكون..كيف به يسجد لنار يُطفئها الماء؟!!

إذن لابد أن يكون هناك إله قادر يهيمن على هذا الكون ... فظل قرابة العشرين سنة يبحث هنا وهناك لعله يجد إجابة شافية لما يخالجه من شعور ويساوره من شكوك حول هذه النار التي لا تملك نفعًا ولا ضرًّا،

فترك بلده وسافر من أجل البحث عن الدين الحق ... وظل ينتقل من بلدٍ إلى بلدٍ ومن أُسقف إلى آخر حتى قابل أحد القساوسة فأخبره أنه قد اقترب ظهور نبي آخر الزمان وأنه خاتم الأنبياء، وأعطاه علامات ثلاث يعرفه بها..الأولى: أنه لا يقبل الصدقة، والثانية: أنه يقبل الهدية، وأما الثالثة: أن بين كتفيه خاتم النبوة.

فلما أراد سلمان أن يصل إلى مكان ظهور هذا النبي اتفق مع بعضهم أن يوصلوه؛ وإذا بهم في الطريق قد غدروا به وأخذوا ماله؛ بل وباعوه ليهودي في المدينة.

انظروا أحبتي في الله ... من الثراء الفاحش والمكانة العالية التي يحلم بها كل شاب في بلده إلى العبودية، ولكن الأمر لم يكن يمثل فارقًا كبيرًا عند سلمان وذلك في سبيل شيء واحد، وهو أن يعرف الحق ويتبعه، وإن دفع حياته ثمنًا لذلك.

ولما عرف مكان النبي ﷺ أراد أن يتأكد من تلك العلامات التي أخبره إياها ذلك القسيس والتي ذكرناها قبل قليل.

فجهز سلمان شيئًا من الطعام الطيب والشراب وذهب إلى النبي ﷺ وقال له: أنت رجل طيب وأصحابك طيبون وهذه صدقة لك ولهم، فما كان منه ﷺ إلا أن نادى أصحابه ليأكلوا منها فجاءوا وأكلوا ولكنه لم يأكل معهم.. فقال سلمان في نفسه: هذه هي الأولى.

ثم عاد سلمان بعد ذلك بيومين أو ثلاثة؛ فأعدَّ وجبة كالتي أعدها من قبل، وذهب إلى النبي ﷺ وقال: هذه هدية؛ فأكل النبي ﷺ منها وأطعم أصحابه.. وكانت هذه هي العلامة الثانية.

ولم يتبقَّ سوى علامة واحدة يتأكد برؤيتها سلمان من أن هذا هو النبي الخاتم الذي أُخبر عنه؛ فذهب إلى النبي ﷺ ذات يوم فلم يجده، وقيل له أنه في بقيع الغرقد يدفن أحد أصحابه، وكان ﷺ جالسًا على شفير القبر وفجأة ينظر سلمان فإذا بثوب النبي ﷺ يتزحزح من الخلف؛ فاقترب منه سلمان أكثر وأكثر.. ورآه النبي ﷺ ففطن إلى الأمر فأزاح الثوب أكثر حتى رأى سلمان خاتم النبوة كمثل دائرة يخرج منها بعض الشعيرات كعرف الديك -أو شيئًا من هذا القبيل- المهم رآه كما وصف له..وهذه هي العلامة الثالثة.

فاحتضن سلمان النبي ﷺ من الخلف، وكانت هذه أسعد لحظات حياته؛ فلم يكن ما عاناه وتعرض له من الإيذاء في سبيل الوصول إلى سراب، وإنما هان عليه كل ما رآه من التعذيب والتشريد؛ لأنه وصل إلى الحقيقة ... ولما أسلم سلمان رضي الله عنه، قال له النبي ﷺ: «**كاتب سيدك**» أي: اسأله أن يعتقك في مقابل ما تفتدي به نفسك من الرِّق، ولا يزال النبي ﷺ وأصحابه يَجْمَعون المال حتى أعتقوه -رضي الله عنهم أجمعين-.

*** غزوة الخندق ومعادن الرجال:**

ومن المواقف العظيمة التي سطَّرها التاريخ لسلمان الفارسي، وتدلل بقوة على همة تفوق الخيال..ما كان منه في غزوة الأحزاب حين اجتمع أهل الكفر والشرك فيما لم يحدث من قبل في أكثر من عشرة آلاف مقاتل بحدِّهم، وحديدهم وكانت غايتهم استئصال شأفة هذا الدين الذي صار خطرًا يهدد مصالحهم في كل مكان، فحاصروا المدينة، وكانوا قد اتفقوا

مع يهود بني قريظة الذين كانوا يسكنون أعالي المدينة أن يغدروا بالنبي ﷺ وينقضوا معه العهد.

وكانت هذه الغزوة من أشد الغزوات وطأة على المسلمين؛ بحيث لم يكن الواحد منهم يستطيع أن يذهب ليقضي حاجته خوف القتل أو الأَسر، فالحصار مُحكَم وشديد، والظلام أشد ... بل، والبرد والخوف أشد وأشد.

وهذا ما صوره القرآن الكريم في أبلغ عباره وأروع صورة قال ﷻ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

وهنا جاء دور الإيجابية والتفاعل مع ما يدور من أحداث؛ فلا يكفي أن يقف الواحد يُقلِّب كفيه ويمصمص شفتيه ويسترجع ويقول: قدر الله وما شاء فعل، وإنما عليه أن يتحرك لخدمة أمته، وألا يحتقر نفسه وإمكاناته؛ فلربما جعله الله سببًا لنصرة الإسلام ودحض أعدائه..

وهذا بالضبط هو ما فعله سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ حين رأى ما حَلَّ بالمسلمين، وأشار على النبي ﷺ بحيلة فاجأت الجميع ولم يكن العرب يعرفونها، فقال: لقد كنا في بلاد فارس إذا حوصرنا خندقنا حول المدينة- أي حفرنا خندقًا أو حفرة كبيرة- فلا يستطيع القوم المرور من خلالها، وجعلنا على الجانب الآخر حُراسًا؛ فلا يصلون إلينا مهما بذلوا من جهد، فاستحسن النبي ﷺ هذه الفكرة، وأمر صحابته بالبدء الفوري في

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان: (١٠، ١١).

العمل، وهنا تظهر من المواقف العجيبة التي لو استطردنا في الحديث عنها لما وسعنا المقام ولكن حسبنا أن نشير إلى بعضها على سبيل المثال.

فهذا رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل في التواضع والإيجابية؛ فلم يكتفِ بأمر أصحابه بالحفر وإنما نزل معهم وساعدهم في الحفر، وهو القائد العام للقوات، وهو النبي المصطفى بأبي هو وأمي وروحي ﷺ ليس هذا فحسب وإنما كان يمر عليه وعلى صحابته الكرام اليوم واليومان بل والثلاثة أيام بلا طعام حتى أنه ﷺ وضع حجرًا حول بطنه حتى تنضغط المعدة، وكأنها قد امتلأت؛ فَيَقِل الشعور بالجوع وكذلك حتى لا تأكل المعدة بعضها من شدة الحاجة إلى الطعام.

وهذا ما يوصلنا إلى المشهد العجيب الثاني في هذه الغزوة، وهو ما كان من جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والحديث عند الإمام البخاري ... وكان من خبر هذا الصحابي الجليل أنه لما رأى ما بالرسول ﷺ من شدة الجوع شق عليه ذلك؛ فأسرع إلى زوجته، وقال لها: ماذا عندك من طعام؟ فقالت: ما عندي إلا قوت الصبية، فقال لها نوِّميهم، وأعدي الطعام لرسول الله ﷺ فلقد رأيت في وجهه الخمص الشديد والإجهاد ما لا أقدر على تحمله -هذا هو الحب الحقيقي الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة- الشاهد أنها قالت له: إن كل ما عندي قطعة لحمٍ صغيرة وبعض الشعير؛ فاذهب وأخبره ﷺ أن يأتي لتناول الطعام وإذا أراد أن يُحضر أبا بكر وعمر معه فلا بأس، ولا تزد عن ذلك حتى لا تضعنا في حرج مع رسول الله ﷺ.

وبالفعل ذهب جابر إلى النبي ﷺ وهمس في أذنه بما اتفق عليه مع زوجته، فوافق النبي ﷺ ثم إذا به يقف وينادي على أهل الخندق: إن جابرًا قد أعد لكم طعامًا.

وتخيل نفسك مكان جابر!!

فلقد كان في موقف لا يُحسَد عليه؛ فكيف يُطعم ما يزيد عن ألف من الصحابة وهم في قمة الجوع، فهم لم يذوقوا طعامًا منذ ثلاث، وإذا أكلوا فلابد لهم أن يشبعوا فقد لا يذوقون طعامًا لمدة ثلاثة أيام أيضًا.

المهم: لم يكن من جابر إلا أن سكت، وفوض الأمر إلى الله -جل وعلا-، ولما قَدِم جابر ومعه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر..سمعت زوجة جابر جَلَبَةً وصوتًا ورأت غبارًا كثيفًا فإذا بالجيش كله.

ولكم أن تتخيلوا!!

فأخذت تقرع جابرًا وتؤنبه، فقال لها: ما حدث بينه وبين رسول الله ﷺ وما فعل، وقال لها أنه ﷺ يعرف ما يفعل، وأنه قد أمره أن يقول لزوجته ألا تعجن عجينًا ولا تطبخ شيئًا حتى يأتي إليهم ﷺ ... فلما جاء ورأى ما أعدوه من طعام تفل فيه -أي: بغير ريق-، وسمَّى وبارك، وقال لزوجة جابر: اذهبي وأعدي ما شئت من الطعام؛ فلما انتهت من إعداد الطعام أمر النبي ﷺ جابرًا بأن يُدخل الجيش عشرًا عشرًا بنظام مُحكَمٍ دقيق، وبالفعل قد تم، ويقول جابر رضي الله عنه كلما دخل فوج وطعموا عاد الطعام كما كان، وكأن الطعام يأتي بمدد من السماء.

ولذلك كان يأمرهم النبي ﷺ أن يأكلوا من أطراف الصحن لا من وسطه، يقول جابر رضي الله عنه: فلا يزالون هكذا حتى صدر الألف جميعًا

وكان الطعام كما هو؛ ثم أكل النبي ﷺ بعد ذلك وترك الطعام كما هو لجابر وزوجته وأولاده؛ بل لقد أهدوا إلى جيرانهم.

انظروا إلى هذه الكرامة التي أكرم بها ربنا ﷻ جابر بن عبد الله لفرط حبه للرسول ﷺ، وحزنه على ما رأى من حاله، وكانت هذه مكافأة من الله تعالى له.

*** الحرب خدعة:**

وهذا نموذج ثانٍ يدلل على أنه ينبغي على الرجل أن يجتهد ويبذل ما يستطيع لخدمة دينه وألا يحقر من الدور الذي قد يقوم به في سبيل ذلك، ولقد قدم هذا الصحابي الجليل دورًا خالدًا كان له أعمق الأثر في تخذيل المشركين وردِّهم على أدبارهم مهزومين صاغرين، وهكذا فإن الله تعالى يغرس لهذا الدين غرسًا يعز الله به الإسلام في كل زمان ومكان، والذي كان منهم صاحب اليقظة والذكاء والذي حباه الله تعالى بسرعة البديهة وشدة الذكاء ليستخدمه الله تعالى في نصرة هذا الدين.

إنه الصحابي الجليل «نعيم بن مسعود رضي الله عنه»، ولقد كان في الجاهلية -أي: قبل إسلامه- على صلة وثيقة باليهود ولاسيما يهود بني قريظة الذين تحدثنا عنهم وعن غدرهم -ولا زلنا في معرض الحديث عن غزوة الأحزاب- الشاهد: أنه كان يجالسهم ويسمر ويشرب معهم، وكانوا يثقون فيه ثقة لا حدود لها؛ فلما هداه الله تعالى للدين الحق، وكان القوم لا يعلمون هذه الحقيقة، فأراد نعيم أن يقدم شيئًا للإسلام بطريقة أو بأخرى ولا سيما في وقت عصيب شديد، حوصر فيه المسلمون من الخارج والداخل، حتى أن النبي ﷺ قام يتضرع إلى الله جل وعلا:

«اللهم مُنزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب..اللهم اهزمهم وزلزلهم»[١].

وهنا جاء دور البطولة والفداء، فلقد أتى نعيم إلى رسول الله ﷺ وقال له: إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: **«إنما أنت فينا رجل واحد؛ فخذِّل عنَّا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة»**[٢].

فماذا فعل هذا الصحابي الفذ؟

خرج نعيم رضي الله عنه حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا[٣] في الجاهلية؛ فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودِّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، فالبلد بلدكم..فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه.

وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم؛ فإن رأوا نهزة أصابوها - أي: خلسة وفرصة- وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلُّوا بينكم وبين الرجل ببلادكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنا من أشدائهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه؛

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٣٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

(٢) ضعيف جدًّا: رواه الطبري في «تهذيب الآثار» (١/ ١٠٩/ ٢٢٦)، وضعفه العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٧٧٧).

(٣) نديمًا، أي: مؤانسًا، ومسامرًا، ومجالسًا للحديث والسمر والمؤانسة.

فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ولم يكتفِ بذلك، وإنما ليبث جذور الشقاق والخلاف والفتنة بين القوم وحلفائهم..خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان ومن معه من صناديد قريش: قد عرفتم ودِّي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليَّ حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم؛ فاكتموا عني، فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنَّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يُرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين- أي من غطفان وقريش - رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم؛ فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم..فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا.

ثم خرج إلى غطفان، فقال لهم: إنكم أهلي وعشيرتي، وأحب الناس إليَّ، ولا أراكم تتهمونني، قال: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني؛ قالوا: نفعل..فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذَّرهم ما حذَّرهم.

وكان من تقدير الله تعالى لرسوله في هذه الغزوة، أن أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنَّا لسنا بدار مُقام، وقد هلك الخُف والحافر -أي: الإبل والخيل- فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه، وكان ذلك ليلة السبت، فأرسلوا إليهم: أن اليوم يوم السبت،و هو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث بعضنا فيه حدثًا فأصابه ما لم يخف

عليكم [1]، ثم قالوا لهم: ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدًا حتى تعطونا رُهنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنا نخشى إن ضربتكم الحرب [2]، واشتد عيكم القتال أن تنشمروا [3]، وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت الرسل إلى قريش وغطفان بما قالته اليهود، قالوا: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحقٌ؛ فأرسلوا إلى بني قريظة: إنَّا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا؛ فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم: إن الذي ذكر لكم نعيم ابن مسعود لحقٌ؛ ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

فأرسل اليهود إلى غطفان، وقريش: إنا والله لا نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رُهنًا فأبوا عليهم .. وبذلك خَذَّل الله بينهم وكان سببًا رئيسًا في جلائهم وعودتهم على أدبارهم مدحورين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويًا عزيزًا.

*** من يأتينا بخبر القوم وهو رفيقي في الجنة؟**

والشيء بالشيء يُذكر، فلقد كان من الأحداث المذهلة في هذه

---

(١) المقصود: ما كان من أصحاب السبت الذي جاء ذكرهم في القرآن وما حل بهم من النكال، والمسخ.

(٢) ضربتكم الحرب، أي: نالت منكم.

(٣) تنشمروا، أي: أي تسرعوا فارين إلى بلادكم.

الغزوة التي كانت معيارًا دقيقًا حاسمًا لقضية هامة، وهي قضية الإيمان الحق والتوكل واليقين على رب العالمين في أسمى معانيه، وهو ما تجلى بوضوح كالشمس في رابعة النهار ... ونقصد بحدثنا هذا الموقف البطولي الذي قام به هذا الصحابي الجليل «حذيفة بن اليمان رضي الله عنه» وهاهو حذيفة يخبرنا بنفسه عن هذا الموقف العصيب؛ حين سُئل: كيف كنتم تصنعون مع رسول الله ﷺ إذا صحبتموه؟ فقال: والله لقد كنا نجهد[1]، فقال رضي الله عنه: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وقد صلى رسول الله ﷺ من الليل هويًا[2] ثم التفت إلينا فقال: **«مَن رجلٌ يقوم ينظر ما فعل القوم، يشترط له رسول الله ﷺ أن يرجع..أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟»** فما قام رجل..

انظر وتأمل لشدة الموقف وصعوبته وفي القوم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وكوكبة من الصحابة لا يُستهان بها.

يقول حذيفة رضي الله عنه: ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا، ثم التفت إلينا، فقال مثل ما قال في المرة الأولى، فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد.

يقول: فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ؛ فلم يكن لي بُد من القيام حين دعاني فقال: **«يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تُحْدِثنَّ شيئًا حتى تأتينا»**، قال: فذهبت فدخلت في القوم؛ فرأيت الريح وجنود الله تفعل ما تفعل بهم، لا تُقر لهم قدرًا، ولا نارًا ولا بناء؛ فقام أبو سفيان؛ فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسه، يريد

---

(١) نجهد، أي: في مشقة شديدة- وذلك لشدة خوفهم على الرسول ﷺ.

(٢) هويًا، أي: حينًا طويلًا.

أن يتأكد أنه ليس في القوم من يتجسس عليهم وينقل أخبارهم، فأسرع حذيفة، فأخذ بيد الرجل الذي بجواره، وسأله: من أنت؟ قال: أنا فلان ابن فلان، وذلك حتى لا يفتضح أمره، وكان بإمكانه أن يقتل منهم عددًا، ولكنه نفذ أمر رسول الله ﷺ.

يقول: ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام؛ لقد هلك الكُراع [١]، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون.

والله ما تطمئن لنا قِدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أُطلق عقاله إلا وهو قائم.

يقول حذيفة، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مِرط [٢] لبعض نسائه فلما رآني أدخلني إلى رحله وطرح عليَّ طرف المرط، ثم ركع وسجد وإنه لفيه، فلما سلَّم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا إلى بلادهم.

وهذا غيض من فيض وقطرة من غيث من الدروس المستفادة من تلك الغزوة التي سميت سورة كاملة في القرآن باسمها وهي (سورة الأحزاب)، ولكن قليل يكفي خير من كثير يلهي وحسبنا ما ذكرنا من هذه المواقف التي إن دلَّت فإنما تدل على قلوب مفعمة بحب الله وحب رسوله ﷺ وعلى همة لا تدانيها همة.

---

(١) الكراع، أي: الخيل.

(٢) مرط، أي: شيء يلتحف به من البرد.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاحُ

نسأل المولى (جل وعلا) أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح وأن يرفعنا وينفعنا بالقرآن العظيم وسنة النبي الكريم ﷺ في الدنيا والآخرة إنه سبحانه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير..وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين..والحمد لله رب العالمين.

* * *

جيل فريد

رأينا فيما سبق -أحبتي في الله- من النماذج المشرقة من صحابة رسول الله ﷺ ما يحرك الجبال الرواس، من الهمة العالية لخدمة دين الله جل وعلا، ورأينا إلى أي حَدٍّ كان بذلهم وصدقهم مع الله رب العالمين وتضحياتهم في سبيل إعلاء كلمة الحق عالية خفاقة في كل زمان ومكان فاستحقوا من الله -جل وعلا- هذا اللقب الذي هم أحق الناس به وهو (رضي الله عنهم ورضوا عنه).

*** خير القرون وأطهر القلوب:**

إنهم هم الرجال حقًا، وصدقًا، ولن يجود الزمان بمثل واحد منهم؛ فلقد كانوا جيلًا فريدًا لهم عند الله تعالى من المنزلة العالية والمكانة السامية ما لم يصل إليها سواهم ولذا قال ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»(١).

وهذه شهادة حق ودليل على فضل هؤلاء الرجال، ولكن لماذا كان هذا الجيل على هذا الوصف الذي ذكرناه؟

لابد أن هناك أسبابًا توافرت في هذا الجيل دون غيره لتجعله في هذه المنزلة العالية، ومن هذه الأسباب:

*** أنه اختيار واصطفاء من الله تعالى:**

فلقد كان قلب النبي ﷺ أطهر القلوب، ولذا كان محلًا للرسالة

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٥٢) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٥٣٣) فضائل الصحابة.

الخاتمة، ثم يليه في ذلك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم عمر وهكذا؛ فقلوب الصحابة الكرام هي أنقى القلوب وأطهرها بعد رسول الله ﷺ.

ولذلك كانوا أهلًا لتحمُّل هذه الأمانة التي تنوء الجبال بحملها وهي أمانة الدين والدعوة إلى الله جل وعلا؛ ففتح الله بهم قلوب العباد قبل أن يفتح بهم البلاد، وأسسوا في وقت لا يُعَدُّ في حساب الزمان شيئًا -في خمسين سنة على وجه التقريب- أسسوا دولة مترامية الأطراف ذات شوكة قوية وراية عالية وكلمة مسموعة ... فاللهم ارضَ عنهم واحشرنا معهم وفي زُمرتهم.

* ومن هذه الأسباب أيضًا أن هذا الجيل قد مَرَّ بتجربة فريدة من نوعها أكسبتهم هذا الانفراد، ومن ذلك نزول القرآن مُنجمًا كل آية لها سبب نزولها، ولك أن تتخيل هذا التواصل العجيب بين السماء والأرض ... وهذا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: «والله ما من آية في القرآن إلا وأنا أعلم متى نزلت ولماذا نزلت وفيمن نزلت».

ولك أن تتخيل - حبيبي في الله - كيف يكون إيمان هؤلاء الذين إذا سمع أحدهم أو تلا شيئًا من كلام الله تعالى يعلم معناه ومغزاه وقد يكون هو المقصود بتلك الآية ... فمثلًا كيف يزداد إيمان عبد الله ابن أم مكتوم وهو يصلي بتلك الآيات التي نزلت فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[1] .

(١) سورة عبس: الآيات: (١-١٠).

فلقد كان النبي ﷺ مهتمًا أشد ما يكون الاهتمام بدخول رؤساء قريش وزعمائها في الإسلام إذ يكون ذلك فتحًا واختصارًا وللطريق الشاق، ويحقق الغاية من الدعوة بدخول قومهم وأتباعهم تبعًا لهم، وفي أثناء ذلك جاءه عبد الله ابن أم مكتوم ليسأله عن شيء في الدين؛ فعبس النبي ﷺ في وجهه على اعتبار أن الوقت قد لا يكون مناسبًا لذلك؛ لأنه منشغل بهؤلاء الذين يدعوهم إلى الله، ولذلك عاتبه الله جل وعلا في صدر هذه السورة؛ فكيف يكون حال عبد الله في هذه اللحظة؟ ألا تجده يجود بنفسه وكل ما يملك في سبيل إرضاء ربه الذي أنزل في حقه قرآنًا يُتلى إلى قيام الساعة؟

وهذا أبو بكر تأخذه الرحمة والشفقة على هذا العبد الضعيف (بلال ابن رباح) الذي لم تكن جنايته -في نظر القوم- إلا أن قال ربي الله، فساموه سوء العذاب وفعلوا به الأفاعيل مما لا يخفى على أحد ممن طالع سيرة النبي ﷺ وأصحابه؛ فما كان منه إلا أن اشتراه وأعتقه لوجه الله تعالى، وصار أخًا له في الله، بعد أن صفَّى تجاراته ومشاريعه واشترى عددًا من العبيد والأرقاء وأعتقهم ابتغاء مرضاة الله وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا مَرَّ على بلال وهو يُعذَّب في رمضاء مكة وهو يقول قولته الشهيرة: «أَحدٌ أَحدٌ» فيقول له أبو بكر: ينجيك الواحد الأحد، فلما اشتراه وأعتقه، قال المنافقون: إنما فعل أبو بكر ذلك ليدٍ كانت لبلال عنده[1]؛ فنزل القرآن ليفصل في الأمر ويشهد لأبي بكر أنه ما فعل ذلك إلا رغبة فيما عند الله

---

(١) ليد كانت لبلال عنده، أي: ليرد له جميلًا كان قد صنعه به من قبل.

تعالى وزهدًا فيما عند الناس ... قال -جل في علاه-: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (١)؛ فكيف يكون حال أبي بكر وهو يسمع هذه الآيات وغيرها مما نزل فيه .... لا شك أن همته وإيمانه سيسابق الريح ويعانق السحاب.

ومن هذه الأسباب أيضًا أنهم عاصروا رسول الله ﷺ ورأوه وكانوا إذا ضاق بهم الأمر ذهبوا إليه ليخفف عنهم، ونحن إذا رأى الواحد منا رسول الله ﷺ في منامه فلا تسعه الفرحة فما بالك بمن ربَّاهم النبي ﷺ وعلَّمهم بين يديه؟

* كذلك من الأسباب التي جعلت هذا الجيل فريدًا: **ما رأوه من المعجزات الحسية والتي حدثت في عهده ﷺ، ومن ذلك:**

- **رؤية بعضهم للملائكة على هيئة بشر:** كما في حديث جبريل الطويل الذي جاء فيه يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان.

- **ومنهم من كانت الملائكة تسلم عليه؛** فهذا حارثة بن النعمان، كان مارًّا بين يدي النبي ﷺ فلما لقيه، قال له: «**يا حارثة أما إني كنت واقفًا مع جبريل، وقال: أما إن حارثة من المائة الصابرة يوم حُنين الذين تكفَّل الله بأرزاقهم في الجنة لو سلَّم علينا لرددنا عليه السلام**»(٢).

- ومنهم كذلك من كان يأتي جبريل بنفسه إلى النبي ﷺ ليبشره بمنزلتهم العالية عند الله تعالى، ومن ذلك أنه قبل موت خديجة رضي الله عنها بعدة أيام، جاء جبريل إلى النبي ﷺ وقال له: «**يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ**

---

(١) سورة الليل: الآيات: (١٩-٢١).

(٢) رواه الحارث في «المسند- زوائد الهيثمي» (١٠٢٤).

قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ»(١)..يا الله تخيل كيف يكون حال خديجة رضي الله عنها حين تسمع هذه البشرى العظيمة؟

هل تراها تود أن لو عاشت في هذه الدنيا لحظة واحدة؟

لا ورب الكعبة إنها في غاية الشوق إلى لقاء ربها رغبة في جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين.

* ومن الأسباب التي جعلت من هذا الجيل نموذجًا فريدًا كذلك: معاينتهم لأمور هي في أصلها من الغيبيات ولكن الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى قد أخبر بها قبل وقوعها، وهذا من وحي الله تعالى لرسوله ﷺ ولذلك يقول -جل في علاه-: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(٢)، ويقول -جل في علاه-: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾(٣)، ومن هذه الغيبيات التي حدث بعضها على نحو ما أخبر به رسولنا الكريم ﷺ، ولم يحدث بعضها بعد، ومن ذلك علامات الساعة الصغرى، وهناك أيضًا علامات كبرى لم تحدث بعد، ولكن النبي ﷺ أخبرنا عنها ... ومن بين تلك العلامات الصغرى التي أخبر عنها النبي ﷺ:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٢١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة.
(٢) سورة النمل: الآية: (٦٥).
(٣) سورة الجن: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

- مسألة (رفع القرآن من المصاحف والصدور) فلقد روى الحاكم بسند صحيح أنه ﷺ قال: «**يُدْرُس الإسلام كما يدرس وشيُّ الثوب لا يُدرَي ما صيام ولا صدقة ولا نُسك ويُسرَي على كتاب الله ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها**»[(١)].

ولكن متى يكون ذلك؟

إنما يكون ذلك قرب قيام الساعة التي لا تقوم إلا على شرار الخلق، فلا تقوم الساعة كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ وفي الأرض من يقول الله..الله.

فماذا يفعل هؤلاء بالقرآن؟..فهم لا وزن لهم عند الله تعالى، وليس من اللائق بكتاب الله أن يكون في أيدي هؤلاء.

- ومن العلامات الصغرى التي لم تحدث بعد (هدم الكعبة)، وذلك كما جاء عند البخاري أن النبي ﷺ أخبر أن من يهدمها رجل من الحبشة اسمه «ذو السويقتين»، وقال: «**كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا**»[(٢)].

- وكما أخبر ﷺ عن آخر علامات الساعة الصغرى حدوثًا، وهي الريح اللينة التي تقبض أرواح المؤمنين بكل لين ورحمة حتى أنه لو دخل إلى جبل فتحصن به لدخلت وراءه لتقبض روحه حتى لا يبقى على

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ٥٨٧ رقم: ٨٦٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٦ رقم: ٢٠٢٨)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٥٩٥) كتاب الحج.

الأرض موحد، وإنما تقوم الساعة على شرار الخلق كما ذكرنا.

لهذا كله ولغيره من الأسباب كان هذا الرعيل الأول بهذه المنزلة التي بيَّنها ربنا -جل وعلا- في كتابه الكريم وبيَّنها رسوله ﷺ في سنته المطهرة؛ فهم أحق الناس بهذه المنزلة، ومن سار على دربهم وتأسَّى بهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

نعود إلى حديثنا عن علو الهمة بما يفوق الوصف وتعجز الكلمات عن وصفه وتصويره، وتعجز الأقلام عن تسطيره، ومع نموذج جديد من هؤلاء الرجال الصادقين.. إنه أبو طلحة الأنصاري -رضي الله عنه وأرضاه-، والذي ضرب أروع المثل في الجهاد في سبيل الله تعالى مما جعل النبي ﷺ يشهد له بشهادة، لو وُضعت في كفة والدنيا كلها بكل زخارفها وكنوزها في كفة لرجحت به هذه الشهادة، وذلك كما جاء عند الحاكم بسند صحيح، قال ﷺ: «**لَصَوْت أَبِي طَلْحَة فِي الْجَيْشِ خَيْر مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ**»(٢) الله أكبر.. تخيل -يرحمك الله- صوته خير من ألف رجل، فما بال جسده وسيفه ودرعه وفرسه، ووالله ما كان ذلك كذلك إلا لما قدمه من تضحيات وقام به من صولات وجولات في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا اله فوق كل كلمة وإعلاء راية الإسلام فوق كل راية.

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١٠٠).

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٥٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٨١).

*** بطولة وفداء تحقق النصر على الأعداء:**

ومع مثل آخر للبذل والتضحية والفداء، مع هذا البطل الذي أعطاه النبي ﷺ وسام البطولة مع مرتبة الشرف العليا -كما يقال- مع حواري رسول الله ﷺ وذلك بنص الحديث الذي قال فيه ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**»(١).

هذا البطل المغوار الذي لا يُشق له غبار في الملاحم والمعارك، ويتبين ذلك جليًا حينما خرج عمرو بن العاص لفتح مصر، وقد تحصَّن جيشها بحصن «بابليون»؛ فلم يستطع جند المسلمين فتحه؛ فأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طلب أربعة آلاف رجل ليستعين بالله تعالى ثم بهم في فتح ذلك الحصن؛ فأرسل إليه عمر رسالة فيها: «من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: السلام عليكم ورحمته وبركاته، أما بعد: فلقد أرسلت إليك أربعة آلاف رجل ... على رأس كل ألف منهم رجل بألف»، وكان الزبير واحدًا من هؤلاء الأربعة، ولكن يا ترى لماذا كان الزبير منهم؟

هل يرسل أمير المؤمنين أحدًا ويصفه بهذا الوصف دون سبب أو حكمة؟ كلا وألف كلا، ولنجيب عن هذا السؤال أقص على حضراتكم قصة هي من أعجب ما قرأت وسمعت، ولولا أنها وردت في خبرٍ صحيح لما كنت صدقته.

لما قدم الزبير على رأس الألف الذين كانوا معه وتحت إمرته،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٢٦١) كتاب أخبار الآحاد، ومسلم (٢٤١٥) كتاب فضائل الصحابة.

ووجدهم مكتوفي الأيدي لا يستطيعون سبيلًا لفتح ذلك الحصن، قال لهم: أحضروا لي سُلمًا لأصعد إلى الحصن ثم ألقوا بي إلى داخله، فقال له: أنت تُهلك نفسك بذلك، فقال لهم: افعلوا ما آمركم به فحسب ... ولك أن تتخيل هذا الموقف العصيب، والذي يبرز معادن الرجال والهمم التي تعلو قمم الجبال؛ فالحصن شاق جدًّا وهو سيسقط من فوقه فقد يُقتل عند نزوله، أو تُكسر عظام جسده.. ناهيك عن أنه سيسقط في وسط آلاف الجنود المدججين بالسلاح، وهو وحده.

إنها البطولة، والفدائية التي تربى عليها على مائدة القرآن وسنة النبي العدنان -عليه الصلاة والسلام-.

الشاهد: أنهم فعلوا ذلك ... ودخل الحصن وقاتل قتالًا مريرًا حتى مكَّنه الله تعالى من فتح باب الحصن وتم النصر المبين من رب العالمين، وفُتحت مصر ليكون ذلك في ميزان النبي ﷺ أولًا فهو الذي عَلَّم هؤلاء معنى التضحية والفداء، ثم في ميزان عمر بن الخطاب، ومن بعده عمرو ابن العاص، ثم بعد ذلك في ميزان الزبير بن العوام ومن معه من المجاهدين حتى يكون كل مصري أسلم في ميزان حسنات هؤلاء جميعًا.

*** أطع الله يُطعك كل شيء:**

ولقد كان فتح مصر بركة وسلامًا على أهلها، ومن ذلك أنه كان من عادات أهلها في ذلك الزمان، أنهم كانوا إذا جاء شهر «بؤونة» من كل عام؛ إذا نقص وانحسر ماء النيل حتى يكاد يشرف على الجفاف..كانوا يأتون بفتاة من أجمل الجميلات ويشترونها من أهلها بوزنها ذهبًا

ويُرصعون جسدها بالذهب والحلى ثم يلقونها في النيل..اعتقادًا منهم أنهم بذلك يُرضون النيل ويقللون من غضبه، ويفيض بالماء عندما يهبوه فتاة جميلة على قيد الحياة تقربًا وإرضاء له، وكانت تسمى «عروس النيل»، ومن الفتن العجيبة أنه كان -بقدر الله تعالى- يفيض بالماء بعد هذا الذي يفعلونه ولكن لما فتح عمرو بن العاص هذه البلاد ... فلما كان الوقت قد حان لهذه الطقوس التي اعتادوا عليها، وقَلَّ ماء النيل كالمعتاد..أراد أهل مصر أن يقوموا بما اعتادوا عليه؛ فأنكر عليهم عمرو ذلك وقال: والله هذا لا يكون في دين الله أبدًا، وأرسل إلى عمر بن الخطاب، وقَصَّ عليه القصص؛ فأرسل عمر بن الخطاب إليه رسالة قال فيها: «لقد أنصفت يا عمرو..وستأتيك في رسالتي هذه بطاقة؛ فألقها في نهر النيل»؛ فلما وصلت الرسالة إلى عمرو بن العاص، وفتح البطاقة وجد فيها: «من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر أما بعد: إن كنت تجرِي من قبلك فلا تَجرِ، وإن كنت تجري من عند الله فأسأله أن يُجريك» ... فألقى عمرو البطاقة في النيل.

وفي الوقت ذاته كان الناس في مصر يستعدون للرحيل منها؛ فحيث لا مياه لا حياه؛ فإذا بهم في صبيحة يوم رحيلهم يرون ماء النيل قد فاض حتى وصل قرابة الستة عشر مترًا؛ فما الذي حدث؟

المسألة باختصار شديد: أن من أطاع الله -جل وعلا- أطاعه كل شيء في هذا الكون؛ فالنيل مخلوق مُسخَّر من قِبل الله تعالى الذي سخر كل ما في الكون لخدمة الإنسان الذي ما طلب منه إلا ليعبده وحده ويمجده ويقدسه ولا يشرك به شيئًا، بل ويُعبِّد الكون كله لله تبارك وتعالى.

ولا زلنا تحت شعار: «أطع الله يطعك كل شيء»؛ فهناك قصة عجيبة؛ أبطالها هم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، والذي أرسل سعد بن أبي وقاص لفتح بلاد العراق في معركة القادسية؛ فلما وصل سعد إلى نهر دجلة وجد سُفن الفُرس راسية على الشاطئ؛ فلما رأوا جيوش المسلمين هرعوا إلى البحر عابرين إلى الجانب الآخر من النهر..فماذا يفعل سعد؟ هل يرجع؟ وإن فعل فهو معذور لا حيلة له في الأمر؛ فكيف له أن يطارد القوم وليس معه سفن يلاحقهم بها؟

ولكن انظر إلى قمة التوكل واليقين والعزيمة والهمة العالية ... التفت سعد إلى جنوده، وقال لهم: إني قد عزمت على أمر، قالوا: وما هو؟ فقال: عزمت على أن أعبر النهر بالخيول!! فبماذا رَدَّ الصحابة على سعد؟ هل قالوا له: إن هذا غير معقول أنت ستُهلك نفسك وإيانا بما ستقدم عليه؟

كلا..فما كان لهؤلاء الذين رباهم الحبيب ﷺ أن يقولوا مثل هذا الكلام؛ وإنما قالوا له: سِرْ على بركة الله فنحن معك، قال الراوي: «فوالله لقد كانوا يتحدثون في البحر كما كانوا يتحدثون في البر؛ فلما رآهم (يزدجرد) قائد الفرس، قال: والله ما تقاتلون إنسًا وإنما تقاتلون الجن؛ فألقى الله الرعب في قلوب القوم، وانهزموا بفضل الله تعالى».

واسمع إلى سعد وهو يقول: «والله لو كان فينا رجل واحد في قلبه مثقال ذرة من ضعف يقين أو توكل على الله لغرقنا جميعًا».

يالله على التوكل، والثبات، والثقة التي لا حدود لها في معية الله تعالى ونصره لعباده المؤمنين.

هكذا كان هؤلاء؛ فأين نحن منهم ومن بذلهم وتضحياتهم؟

ماذا قدمنا لدين الله تعالى؟

هل بذل أحدنا ولو شيئًا يسيرًا في سبيل نصرة هذا الدين بكلمة طيبة..بأمرٍ بالمعروف، ونهي عن المنكر، ولو حتى بدعوة صالحة، ودمعة على الخد نازلة تناشد الله فيها أن يُمكِّن لهذا الدين، وأن يحقق النصر المبين لعباده الصالحين.

فلا تدخر جهدًا في سبيل ذلك؛ فالنصر آتٍ لا محالة ولكن أين دورك؟ وأين مكانك في الصف؟

نسأل الله جل في علاه أن يجعلنا من جنده المنصورين وعباده الصالحين الذي ينصر بهم الدين ويجعلهم في مصافِّ المتقين على سُرر متقابلين مع الذين تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم..دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الدعوة الرحيمة

سؤال لا يزال يطرح نفسه وبقوة ويحتاج إلى إجابة لا لَبس فيها ولا مجاملة ولا مراء..بعد كل ما علمناه من أحوال هؤلاء السابقين إلى الله تعالى، هل عَلَت همتنا حتى إذا ما أردنا أن نكون معهم كنا أهلًا لذلك؟

فإذا كانت الإجابة بنعم؛ فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن كانت الإجابة بغير ذلك؛ فالحمد لله على كل حال، ولكني لن أترك الأمر على ما هو عليه، وإنما سأسوق أمثلة شائقة باهرة في علو الهمة من الشباب لتزداد همة من زادت همته أكثر وأكثر ولتعلو همة من لم تعلُ همته بعد..

مع هذا النموذج الذي يشع نورًا وضياء، ويضرب المثل الأعلى في طلب العلم والدعوة إلى الله تعالى ... إنَّه الصحابي الجليل أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر، الذي كنَّاه النبي ﷺ بأبي هريرة عندما رآه يحمل هرة -أي: قطة- وهريرة تصغير هرة، ولقد أسلم في غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة النبوية المطهرة، ولازم النبي ﷺ أربع سنوات حتى لكأنه لا يكاد يفارقه.

وانظروا إلى الهمة العالية في هذه الفترة القصيرة روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة جدًّا حتى صار أكثر الصحابة رواية عنه ببركة ملازمته، كما أن النبي ﷺ دعا له: ألا ينسى شيئًا مما علَّمه إياه، وكان رضي الله عنه من أهل الصُّفة الفقراء، وكان من قبيلة دوس وكانت آخر القبائل دخولًا

في الإسلام حتى أنها جاءت بكاملها لتُسلم بين يدي النبي ﷺ لما دعاهم زعيمهم (الطفيل بن عمرو)؛ فكانوا وعلى رأسهم أبو هريرة في ميزان حسناته؛ فالدالُّ على الخير كفاعله.

ولقد كان لذلك قصة عجيبة تبدأ أحداثها عندما أتى الطفيل لأداء شعيرة الحج مع وفد من المشركين، وكان مشركوا مكة قد جعلوا من يرصد لهم الأحوال حتى لا يأتي أحد من خارج مكة إلى النبي ﷺ خشية منهم من انتشار الدعوة الإسلامية؛ فلما أقبل الطفيل حذروه أشد التحذير من الحديث مع النبي ﷺ، وقالوا له: إنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو مجنون يفرق بين الولد وأمه وأبيه والأخ وأخيه وبين الأزواج؛ فلما سمع مقالتهم وضع في أذنيه شيئًا من (الكرسف)، أي: القطن، حتى لا يسمع شيئًا من ذلك.

الشاهد: أنه وهو يطوف حول الكعبة سمع شيئًا من القرآن، يقول: «فأبَى الله إلا أن يُسمعني كلامه من فم نبيه ﷺ»،... ولك أن تتخيل رجلًا يسمع القرآن من فم النبي العدنان -بأبي هو وأمي وروحي ﷺ- فقال في نفسه يحدثها: أنت رجل عاقل وشاعر لبيب وتستطيع أن تميز الكلام الطيب من غيره؛ فهلا سمعت الرجل؟

فذهب -رضي الله تعالى عنه- ودخل على النبي ﷺ، وقال: أنت تزعم أنك نبي، ويأتيك الوحي من السماء؟ فقال ﷺ: «**أجل**»، فقال الطفيل: اقرأ عليَّ شيئًا مما أُوحي إليك؛ فلما قرأ النبي ﷺ بعض الآيات من الذكر الحكيم..ما كان من الطفيل إلا أن قال: والله ما هذا بشعر ولا سحر ولا كهانة، ولم يبرح مكانه عند النبي ﷺ حتى أسلم، ثم قال: فما

تأمرني يا رسول الله؟ فأوصاه النبي ﷺ بقومه خيرًا وأن يدعوهم إلى الله - جل وعلا- لعله يكون سببًا في هدايتهم.

وكان الطفيل سيدًا في قومه..فيه من قوة الشكيمة والحزم ما ليس في غيره، فلما رجع إلى قومه، ودخل على زوجته قال لها: إليك عني لا تقربيني؛ فلما سألته عن ذلك، قال لها: أنت مشركة، وأنا على دين الإسلام، فإما أن تُسلمي وإما كل واحدٍ منا يذهب في طريق؛ فأسلمت في وقتها.

ثم فعل مثل ذلك مع أبيه وغيره من أقاربه، ولكن هذا الأسلوب الغليظ لم يكن نافعًا مع قومه ولم يؤتِ ثماره؛ فلما عاد إلى النبي ﷺ، قال: يا رسول الله إن دوسًا أبت أن تُسلم فادعُ الله عليهم؛ فقام النبي ﷺ ورفع يديه للدعاء، فوضع الصحابة أيديهم على رءوسهم ظنًا منهم أن دوسًا قد هلكت بدعاء النبي ﷺ عليهم.

ولكنه لم يدعُ عليهم وأنّى له ذلك وهو الذي أرسله ربه رحمة للعالمين وهو الذي تحمَّل في سبيل الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته ما تنوء الجبال الرواسي بحمله، وبالرغم من إيذاء قومه له بكل أنواع الإيذاء، قال: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[١].

وهكذا رفع الرسول الكريم ﷺ أَكُف الضراعة إلى الله تعالى قائلًا: «**اللهم اهدِ دوسًا وائت بهم**»[٢]، وبالفعل قد كان وأصابتهم دعوة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٣٧) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٥٢٤) كتاب فضائل الصحابة.

النبي ﷺ لهم وجاءوا مع الوفود التي أتت مُسلمة بين يدي النبي ﷺ ومعهم أبو هريرة رضي الله عنه.

هذا هو أبو هريرة الذي فعل في أربع سنوات لازم فيها النبي ﷺ ما لم يفعله غيره في أكثر من ذلك بكثير، ولكنها الهمة والبذل والتضحية، ومحاولة استدراك ما فاته في زمن الكفر لعل الله تعالى يغفر له ما قد سلف ويتقبل منه ما يبذله من جهد في سبيل الله تعالى.

والذي يلفت الأنظار بشدة أن كثرة ما رواه أبو هريرة وحفظه عن رسول الله ﷺ ليس كرامة لأبي هريرة فحسب وإنما هي قبل ذلك معجزة للنبي ﷺ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه أن أبا هريرة ذهب في يوم من الأيام إلى النبي ﷺ في بداية طريقه مع الرواية؛ فقال: يا رسول الله إني أسمع منك أحاديث كثيرة، ولكني أنساها فما العمل؟ فقال له النبي ﷺ: «ابْسُطْ رِدَاءَكَ»؛ قال: فبسطته، ثم غرف بيديه، ثم قال: «ضُمَّهُ»..يقول أبو هريرة رضي الله عنه: فما نسيت حديثًا بعدها[(١)].

ولنا في هذا الصحابي الجليل الأسوة والقدوة في التشمير للطاعة والمسارعة إليها، وأن يكون الواحد منا فيما يتعلق بالطاعة والعمل الصالح ذو طموح لا حدود له؛ فإذا وفق الله تعالى العبد لطاعة فليزدد منها فلا يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة؛ فعمر الإنسان لا يُحسَب بالسنين التي عاشها بل يقاس بما قدَّمه من خدمات نافعة لدينه ولأمته.

والناس صنفان موتى في حياتهم   وآخرون ببطن الأرض أحياء

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١١٩) كتاب العلم.

*** ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة:**

إن من أروع الدروس المستفادة من قصة الطفيل مع قومه وما كان من النبي ﷺ حين دعا لهم بدلًا من أن يدعو عليهم ... أن يكون الداعي إلى الله تعالى رحيمًا لين الجانب سهلًا سمحًا دائم البِشر ... فهذا هو فرعون -عليه من الله ما يستحق- الذي ادَّعى الألوهية والربوبية فيما لم يفعله غيره من العالمين، وعلى الرغم من ذلك يأمر الله تعالى نبيه موسى، وهارون عليهما السلام أن يقولا له قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى، مع العلم بأن الله -جل وعلا- سبق في علمه أن فرعون لن يؤمن ولن يهتدي، ولَكن الله يُعلم عباده الرحمة في أعظم صورها.

وأذكر في ذلك قصة حدثت لي شخصيًّا، وذلك على سبيل الاستئناس؛ فأذكر أنني كنت عائدًا من رحلة دعوية إلى إحدى البلاد العربية، فتقابلت مع بعض الناس في المطار وإذا بهذا يُسلِّم عليَّ وهذا يقبلِّني وهذا يستفتيني؛ فتأخرت عن الطائرة بحيث كنت آخر من ركبها، وعند صعودي إليها رأيت مطربًا مصريًا مشهورًا تملأ صوره الجرائد والمجلات فلما رأيته تذكرت قصة جميلة، وكأني أراها رأي العين؛ ووقائعها أن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود مَرَّ يومًا على شاب يُدعى (زاذان)، وكان صوته جميلًا أخَّاذًا..وكان يجمع الشباب عنده ببيته ويأتي بالعود والمعازف؛ فيغني لهم ويشربون الخمر، فماذا كان موقف عبد الله بن مسعود؟ هل سبَّه أو دعا عليه أو نَهَره وقال له معنفًا إياه: اتقِ الله وخف عذابه وعقابه؟ لا..لم يفعل شيئًا من ذلك كله، وإنما قال له كلمة وقعت منه بموقع، قال له: «ما أجمل هذا الصوت لو كان

بكتاب الله».

فلم يدر (زاذان) ما قاله عبد الله بن مسعود في أول الأمر كما لم يكن يعرفه أصلًا، فلما سأل مَن حوله وقال لهم من هذا الرجل؟ وماذا قال؟

فقالوا له: إنه عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، يقول لك: ما أجمل هذا الصوت لو كان بكتاب الله.

فلما سمع ذلك كسر العود وألقى الخمر التي كانت بيده، وأسرع خلف عبد الله بن مسعود، وقال له: أنت الذي قلت كذا، وكذا؟ فقال: أجل؛ فبكى (زاذان)، وقال: أُشهدك أني قد تُبت إلى الله ﷻ ؛ فبكى عبد الله بن مسعود واحتضنه. وقال له: وكيف لا أحب من أحبه الله ﷻ ؟ أما علمت أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

ولما تذكرت هذه القصة رأيت أن أتأسى بعبد الله بن مسعود لعل الله أن يجعلني سببًا في هداية هذا المطرب، والنبي ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: «**فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[2].

الشاهد: أنني أقبلت عليه وسلمت عليه بجراءة شديدة وابتسامة جميلة، فقال لي: هل تعرفني؟ فقلت: وهل يخفى القمر؟ ولكن ما أجمل هذا الصوت الندي لو كان بكتاب الله تعالى، ولم أتفوه بكلمة عن تحريم الغناء، أو الموسيقى؛ فلكل مقام مقال ... ولابد أن يكون هناك

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٢٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢١٠) كتاب المغازي، ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

أسلوب وفن في الدعوة إلى الله..كما لابد من مراعاة مطابقة القول للعمل حتى ينجو العبد من براثن النفاق؛ فالإسلام ليس قولًا مجردًا عن العمل، وإنما لابد أن يكون الداعي إلى الله تعالى أحسن الناس خُلقًا، وهو بذلك يدعو الناس إلى دين الله تعالى دعوة عملية؛ فـ«الدين المعاملة»، وهذه العبارة وإن لم تكن حديثًا صحيحًا كما يظن البعض إلا أن معناها صحيح، ولذلك قيل: «أن فعل رجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل في رجل»، ولذا قال القائل الحكيم:

يا مسلمًا يدعي الإسلام مجانًا ... هل أقمت على دعواك برهانا

فالداعي إلى الله والمسلم بصفة عامة قد يكون بسلوكه داعيًا إلى الله وقد يكون صادًا عن سبيل الله؛ فنحن نريد كما يقول البعض: «أن نشهد للإسلام شهادة عملية كما شهدنا له من قبل شهادة قولية، وذلك بقولنا لا إله إلا الله».

ولما كان بعض الناس -إلا من رحم ربي- أبعد ما يكونون عن تعاليم دينهم؛ مما جعل أحد المستشرقين الذين قرأوا عن الإسلام الشيء الكثير مما جعلهم يعتنقونه بكل طواعية وحب واختيار، فلما أراد أن يرى واقع الإسلام العملي ورأى ما عليه المسلمين، قال قولة مؤسفة هي وبحق وصمة عار في جبين هؤلاء الذين ينتسبون لهذا الدين وفقط، فلا يعلمون منه إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه؛ أتدرون ماذا قال هذا الرجل؟

قال: «الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أرى المسلمين»!!

وكيف لا يقول ذلك وقد قرأ عن الإسلام وعن المسلمين الأوائل

وعلم من سيرتهم ما تطيب به النفوس وتقرّ به العيون وتسمو به الأرواح من الصدق والأمانة والوفاء بالعهد والبذل والتضحية وغير ذلك مما لم يجد له أثرًا في واقع هؤلاء البعيدين كل البعد عن كتاب ربهم وعن سنة نبيهم ﷺ فصاروا معول هدم قبل أن يصيروا معول بناء، وقد صدق القائل:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبني وغيرك يهدم

فاختر لنفسك -حبيبي في الله- أي الطريقين تريد وأي الوجهتين تقصد؟

وأسوق إليك قصة شاب صغير كان سببًا في دعوة غيره من غير المسلمين في بلاد الغرب الكافر، وتتلخص قصته في أنه ركب يومًا أتوبيسًا وكان في مؤخرته وكان سينزل بعد محطتين أو ثلاث، وقبل أن يصل إليه المُحصِّل ليأخذ ثمن تذكرته، كان عليه أن ينزل؛ فعمد إلى سيدة كبيرة في السن وقال لها: خذي هذه النقود وأعطيها للمحصل وقولي له أنها خاصة بالشاب الذي كان جالسًا هنا؛ لأنني يجب أن أنزل هنا؛ فتعجبت المرأة وقالت لكل من كانوا في الأتوبيس: هل رأيتم أمانة كهذه؟

إنه هو الإسلام الذي لا يفهمه كثير من أهل الشرق والغرب، ولقد ضرب هذا الشاب المسلم مثلًا عظيمًا بتلك الأخلاق الحسنة التي إنما هي ثمرة كل العبادات، ولذلك حثنا ﷺ على الخلق الحسن والمعاملة الطيبة للمسلمين ولغير المسلمين وبيَّن ما للأخلاق من فضل فقال ﷺ:

«**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[١].

وصَحَّ عنه أيضًا ﷺ أنه قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»[٢].

وعلى النقيض من ذلك تمامًا يُحذرنا من سوء الأخلاق وأنه من محبطات الأعمال التي تجعلها هباء منثورًا كأن لم تكن؛ فقال: «**إِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ لَيُفْسِدِ الْعَمَلْ كَمَا يُفْسِدِ الْخَلُّ الْعَسَلَ**»[٣]؛ فقد يقول المرء كلامًا جميلًا، ولكن لا ينفع الكلام إذا كان بلا عمل؟!

ولذا كان حسن الخلق والمعاملة الطيبة سببًا رئيسًا في دخول الناس في دين الله تعالى أفواجًا، ومن ذلك ما كان للتجار من دور كبير في نشر هذا الدين في رحلاتهم إلى بلاد الشام وغيرها ... فهذا رجل رومي يذهب ليشتري شعيرًا من تاجر مسلم، فيقول له هذا التاجر: إن الشعير الذي يبيعه التاجر المجاور لي أفضل من هذا؛ فيقول له: ولكني أريد أن أشتري منك، فيقول له التاجر المسلم مُصرًّا على رأيه: اذهب واشترِ من أخي الذي بجواري، فلما رأى هذا الرومي إصرار التاجر المسلم على ذلك؛ سأله: ما الذي حملك على فعل ذلك؟ فقال: لأن أخي لم يبع بقدر ما بعت، وإنما أحب له الخير كما أحبه لنفسي.

فيندهش الرجل ويقول له: أين تعلمت هذه الأخلاق النبيلة؟ فيقول

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٩٨) كتاب الأدب، وأحمد في «المسند» (٢٣٨٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٧٩٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠١).

(٣) حسن: رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ٣١٩ رقم: ١٠٧٧٧)، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦).

له: من محمد..فيقول الرجل: ومن هو محمد؟ فيقول التاجر المسلم: هو رسول الله ﷺ ثم يتجاذبان أطراف الحديث فما يكادان ينتهيان منه حتى يدخل الرجل في دين الله، ويكون ذلك في ميزان حسنات هذا التاجر المسلم، وبسبب اتباعه لتعاليم هذا الدين العظيم.

وهذا رومي آخر يذهب ليشتري جَمَلًا من أحد التجار المسلمين، فيقول له: بكم تبيعني هذا الجمل؟ فيقول له: بكذا، فيتعجب الرجل من قلة ثمنه، فيسأل التاجر: إنه يساوي كذا، وكذا؛ فلماذا تبيعه لي بهذا الثمن؟ فيقول له التاجر المسلم: إن هذا الجمل يمكنك أن تحمل عليه ما شئت من المتاع وأن تستعمله كيفما شئت في غرض كان، غير أنك لا يمكنك أن تمطتيه، ولقد تعلمنا أن نُبيِّن عيب السلعة للمشتري حتى يكون مالنا حلالًا لا شبهة فيه، فيقول الرجل متعجبًا: أين تعلمت هذا؟ فيقول له: من محمد بن عبد الله..ثم يشرح الله صدر الرجل للإسلام ببركة اتباع المسلم لمنهج ربه وامتثاله الأمر واجتنابه النهي المحرم.

فهلا عدنا إلى كتاب ربنا وسنة حبيبنا ﷺ لنُعلم الدنيا كلها ما هو الإسلام؟ وأن العيب ليس فيه، وإنما هو فيمن لا يفهمونه حق الفهم ولا يجعلون منه واقعًا عمليًا ومنهج حياة يسيرون عليه ويهتدون به في ظلمات الجهالة والشرك والإلحاد.

وأخيرًا وليست آخرًا مع نموذج عجيب لشباب علت همته حتى فاقت كل حَدٍّ..بذل صاحبها كل غالٍ ونفيس في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام، وهو لم يتجاوز السابعة عشر من عمره: إنه محمد الفاتح؛ الذي فتح بلاد الهند والسند، وأتم الله تعالى عليه النعمة بفتح

القسطنطينية وهو ابن الثالثة والعشرين..شاب في هذا السن يقود جيشًا يفتح هذه البلاد الشاسعة المترامية الأطراف ليكون ذلك كله في ميزان حسناته يوم القيامة، ولا تزال الأمثلة على علو همة الشباب كثيرة لا تكاد تقع تحت حصر، ولكننا نستعرض تاريخهم لعلنا نتعلم منهم كيف يكون الصدق مع الله ومع رسوله ﷺ ومع النفس وكيف تعلو الهمة للوصول إلى القمة، وأن السباق قد بدأ فمن سارع سبق ومن تباطأ وتخلف عن الرَّكْب، يمكنه أن يتدارك ما فاته، وأن يبدأ من جديد.

فلربما سبق من كان على قمة السباق وفترت عزيمته، وخبت جذوة الحماس في قلبه؛ فالعبرة بالخواتيم، وما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل.

ولعلي أسهبت في الحديث عن الشباب والهمة العالية، عسى أن يكون لهؤلاء الشباب من دورٍ فعَّال ومؤثر في سير هذه الأمة ومواكبتها للأمم بل وعودة سابق مجدها وعزها الذي قدره الله تعالى لها، كما في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[1].

وأنا أهيب بكل شاب قرأ هذا الكلام؛ فأهمس في أذنيك -حبيبي في الله- إياك ثم إياك أن يُؤتَى الإسلام من قِبلك، وكُن حيث أمرك الله أن تكون ولا تكن حيث نهاك؛ فإن فعلت فقد بلغت أسمى معاني التقوى، وكنت مما يستحق معية الله ونصره وتأييده.

والله أسأل أن يجعل ما قلناه حجة لنا لا علينا، وألا يجعل حظنا من

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١١٠).

ذلك قولًا بلا عمل..إنه ولي ذلك ومولاه.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصلي الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

حقيقة الدنيا

* حقيقة الدنيا:

إن كثيرًا من الناس لا يدري أنه في سباق حقيقي إلى الله تعالى ... وكل هذا بسبب الغفلة والسعي وراء الشهوات، والملذات، ولكن العقلاء أهل الفطنة والذكاء هم الذين يرون هذه الدنيا على حقيقتها فلا يعطونها أكبر من حجمها ... فالعاقل الواعي هو الذي يضع الأمور في نصابها الحقيقي ويعطي كل شيء قدره الذي يستحقه.

ولقد بيَّن لنا رسول الله ﷺ حجم هذه الدنيا وما تساويه مقارنة بالآخرة؛ فقال ﷺ: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**»[1].

فيالحقارتها وهوانها عند الله تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وإن علموا لا يعملون..ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولذلك قال ﷺ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[2]، وقال ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»[3].

وتحضرني قصة جميلة بمناسبة هذا الحديث النبوي الشريف..تبين هذا المعنى الجميل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٠) كتاب الزهد، وابن ماجة (٤١١٠) كتاب الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق.

هل تعرفون من هو الحافظ ابن حجر؟

إنه قاضي القضاة في مصر، وهو صاحب كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وهو إمام عَلَم ثَبْتٌ ثقة من أئمة الحديث الذين قَلَّ أن تجد مثله في زمانه فضلًا عما يلي ذلك من عصور، ولقد كان الحافظ خارجًا ذات يوم إلى منصة القضاء؛ فقابله رجل يهودي، فقال له: يا إمام أريد أن أسألك عن شيء، فقال: وما هو؟ قال: سمعت أن نبيكم يقول: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»، وإني أراك في هذه الأُبَّهة والثراء والمنصب والجاه، وترى ما أنا عليه من البؤس والشقاء والفقر، فما تقول في ذلك؟

فقال له الحافظ..وانظر إلى هذا الفهم العجيب، قال: يا هذا بالرغم مما أنا عليه من الثراء والمنصب فإنني في سجن؛ مقارنة بما ينتظرني من النعيم في الجنة إذا مت على التوحيد ... وأنت بالرغم مما أنت عليه من البؤس والفقر والشقاء؛ لو مت على كفرك فإن الدنيا تُعَدُّ بالنسبة لك جنة مقارنة بما ينتظرك من العذاب والنكال في جهنم، فقال اليهودي: أَوَكان هذا الذي يقصده نبيكم؟!!..أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ولذلك صَحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لا وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً**

قَطُّ»(١) ..انظر إلى هذا الذي نسى كل نعيم رآه في الدنيا، ولكن كيف نسى النعيم الذي رآه في الدنيا؟ بغمسة..بغمسة واحدة في النار.

نسأل الله جل في علاه أن يعافينا وإياكم من النار ومن حرها ومن شرها ومن كل قول أو فعل أو عمل يقربنا إليها؛ إن ربنا على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

*** الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر:**

والذي يتأمل ويمعن النظر يجد أن الدنيا لا يقر لها قرار، وهي وسيلة لغاية عُظمى، فهي مزرعة الآخرة، فلا يركن إليها إلا كل مغبون؛ فهي بحقٍّ دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له؛ فأنت ما عليك إلا أن تأخذ منها ما يكفيك لا ما يطغيك، ولذلك كان يقول علي بن أبي طالب ﵁ مخاطبًا إياها: إليك عني..غُرِّي غيري..طلقتك ثلاثًا، ... وكان النبي ﷺ يضرب لنا أروع المثل في الزهد في هذه الدنيا وهو الذي عُرضت عليه الدنيا بما فيها فآثر ما عند الله تعالى فهو خير وأبقى، ولذا يوصينا قائلًا: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**»(٢) ..وتأمل إلى هذا الحديث الجميل الذي يُطمئن القلوب المؤمنة ويملأها بالتوكل واليقين والثقة فيما عند الله تعالى أكثر من الثقة مما في هذه الدنيا الزائفة الزائلة ... يقول النبي ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(٣) ..الله أكبر.

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٢٣٤٦) كتاب الزهد، وابن ماجة (٤١٤١) كتاب الزهد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٢).

وكم من أُناس حُرموا نعمة الأمن والأمان ولم تُحرَم؟ وكم من الناس قد قضى عمرًا طويلًا وهو طريح الفراش يتمنى أن لو سجد لله سجدة أو صلى الفريضة مع جماعة المسلمين في المسجد ولم تُحرَم؟ وكم من الناس لا يجدون ما يسدون به رمقهم وحُرموا ما لَذَّ وطاب من الطعام ولم تُحرَم؟

فإذا فكرت في نعم الله تعالى والتي لا تُعد ولا تُحصى ونظرت إلى من هو دونك في حظوظ الدنيا فهذا أجدر بك ألا تزدري نعمة الله عليك.

وهذا ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدخل على النبي ﷺ فيراه نائمًا وقد أثَّر الحصير في جنبه الشريف؛ فيقول: يا رسول الله؛ ألا نتخذ لك فراشًا لينًا، فقال ﷺ: «**مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[1]، وهو الذي كان يدعو ربه قائلًا: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»[2]؛ أي: ما يكفيه لقوت اليوم ولا يفيض للغد.

وجاء في الصحيحين أنه ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير، وكانت السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، تقول لعروة ابن الزبير -وكانت خالته-: «إن كان ليمر علينا الهلال تلو الهلال تلو الهلال.. ثلاثة أَهِلَّة ولا يوقد في بيوتنا نار»؛ فقال لها: فما كان يعيشكم يا خالة؟ قالت: «الأسودان[3]»[4] .. انظر علام كان يعيش رسولنا الكريم.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٧٧) كتاب الزهد، وابن ماجة (٤١٠٩) كتاب الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٨).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزكاة.

(٣) وتقصد بالأسودين: التمر والماء، والأسودان: كلمة مشتقة من السواد أي الشيء السائد والغالب.

(٤) **صحيح**: رواه البخاري (٢٥٦٧) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، ومسلم (٢٩٧٢) كتاب الزهد والرقائق.

فالشاهد: أن العاقل هو الذي يزهد في الفاني ويسعى بكل قوة ليغتنم الباقي وهي الجنة؛ فالدنيا والآخرة ضرتان؛ لا يمكن للمرء أن يُرضيهما جميعًا؛ إلا من رزقه الله الحكمة والسداد؛ فأخذ من الدنيا بالقدر الذي يستعين به على طلب الآخرة، ولذلك لما سُئل أحد الصالحين: يا إمام لماذا يُحب الناس الدنيا ويكرهون الموت؟ فقال: لأنهم عمَّروا دُنياهم وخربوا آخرتهم.

فأنت في سباق حقيقي بدأ منذ عقلت الأشياء وعرفت الحق من الباطل؛ فإياك أن يسبقك إلى الله أحد، وإياك أن تتنكب طريق الهدى والرشاد؛ فإن الموفق مَن وفقه الله تعالى لمراضيه، والمحروم من حرمه الله لذة الطاعة والقرب إليه، ومن لم يعش جنة الدنيا بطاعة ربه ومولاه لم يدخل جنة الآخرة ولم ينعم بما أعده الله تعالى فيها لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

*** ماذا قدمت لدين الله؟**

حقيقة.. إنما أردت البدء بهذا السؤال الذي يطرح نفسه بقوة، وذلك قبل أن أستأنف الحديث عن نموذج من نماذج علو الهمة عند الصبيان.. يقف العقل أمامه مذهولًا حائرًا، كيف استطاع هذا الغلام الصغير الذي لم يتجاوز عمره التسع سنوات أن يقف بثبات الجبال ويواجه كل الصعاب لتكون كلمة الله هي العُليا ويكون سببًا في إسلام بلدٍ بأكمله ودخوله في رحمة أرحم الراحمين -جل وعلا- ليكونوا في ميزان حسناته يوم القيامة.. إنه الغلام الذي وردت قصته في خبر أصحاب الأخدود، وسنعود للحديث عن ذلك ولكن بعد الإجابة عن هذا

السؤال؛ ولنكن صادقين مع أنفسنا.

أريدك أن تبدأ بإصلاح نفسك أولًا حتى تكون مستعدًّا بعد ذلك؛ لأن تبذل لخدمة دين الله (جل وعلا) ... فأريدك أن تصلي ... وأريد من أختي المسلمة أن تصلي وتلبس حجابها.

وهل يتصور أن يكون هناك مسلم لا يصلي أو مسلمة لا ترتدي حجابها؟

فهل سمعت النبي ﷺ يومًا يكلم أصحابه عن حكم تارك الصلاة؟ كلا ... فهو لم يكن يتصور أن يكون هناك مسلم لا يصلي.

وهل سمعت يومًا أنه ﷺ قال لامرأة متبرجة لماذا لا ترتدين الحجاب؟ وحتى الحديث المشهور بين العوام: «**يَا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ**»[1]؛ فهذا حديث ضعيف لا يصح عنه ﷺ بالمرة وإن كان بعض أهل العلم قد حسَّنه.

وإذًا فنحن نتحدث عن أبجديات الإسلام والتي لا تحتاج إلى كلام؛ فكيف لنا أن ندعوا غير المسلمين إلى الإسلام ونحن فيما بيننا نحتاج إلى فهم وتطبيق أساسياته؟ وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقال فلا ينبغي أن نؤدي العبادات بصورة روتينية عارية عن حقيقتها والغاية والثمرة المرجوة منها، ولنا في السلف الصالح الأسوة والقدوة ... فهذا الحسن حين سُئل كيف كنتم تصلون على عهد النبي ﷺ؟ قال: «كنا نصلي وكأننا وقوفٌ على الصراط والجنة عن يميننا والنار على شمالنا والكعبة أمامنا

---

(١) رواه أبو داود (٤١٠٤).

وملك الموت من خلفنا؛ ونحن جميعًا بين يدي الله ... فإذا قُضيت الصلاة فلا يدري أحدنا أقُبلت أم رُدَّت؟!».

وهذا مسلم بن يسار -رحمه الله تعالى- كان يصلي في مسجد البصرة ذات يوم؛ فانهدم ثلث المسجد فهرع الناس وفرُّوا هاربين؛ فلما عادوا بعد ذلك لينقذوا مَن وقع تحت الهدم وجدوا هذا الرجل لا يزال يصلي، ولما فرغ من صلاته؛ سألوه: أما دريت بما حدث؟..ألم تفزع؟ فقال: «والله ما دريت!!» وكيف لا وقد انشغل قلبه بل وكل جوارحه بالله تعالى والدار الآخرة؛ فأين نحن من هؤلاء؟

*** الإسلام قول وعمل:**

إن من أبسط معاني الإسلام: الإنقياد والإذعان والاستسلام لله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فما كان لأحد أن يكون له بعد حكم الله وحكم رسوله رأي، أو اتباع لهوى.

ولذا قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2].

بل إن القول بخلاف ما قاله الله ورسوله والعمل بخلافه هو أقصر طريق للهلاك في الدنيا قبل الآخرة ... ولقد حذرنا ربنا -جل وعلا- في

---

(١) سورة النور: الآيتان: (٥١، ٥٢).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٣٦).

كتابه الكريم من أن نقدم بين يدي الله ورسوله أو أن نرفع أصواتنا فوق صوت نبيه ﷺ؛ فإن ذلك مما يحبط العمل؛ فيجعله هباءً منثورا كأن لم يكن.

وسأذكر في بيان ذلك حديثين لتوضيح المعنى؛ فلقد جاء في «صحيح البخاري» من حديث ابن أبي مليكة، قال: «كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر!!»؛ فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: «جاء وفد بني تميم فدخلوا على النبي ﷺ فقال أبو بكر: يا رسول الله: أمِّر عليهم الأقرع بن حابس، وقال عمر: لا..يا رسول الله أمِّر عليهم القعقاع بن معبد؛ فقال: أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: والله ما أردت خلافك..وارتفع صوتهما في حضرة رسول الله ﷺ؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1]؛ ففزع عمر واهتم لذلك همًّا كبيرًا؛ فصار بعدها إذا كلم النبي ﷺ يكلمه كأخي سرار»؛ أي: بصوت خافت حتى أنه ﷺ كان يستفهمه..ماذا تقول يا عمر؟ وذلك من انخفاض صوته ... وهو الذي قالت عنه أُمَّنا عائشة رضي الله عنها: أنه كان إذا تكلم أَسْمَع وإذا ضرب أوجع، وإذا مشى أسرع، ولكنه الخوف من هذا الوعيد الشديد من حبوط عمل من وقع في هذه المخالفة.

وأما الحديث الثاني الذي ورد في سبب نزول هذه الآية فقد ورد في صحيح مسلم أن ثابت بن قيس وكان خطيب النبي ﷺ يخطب في الوفود فيؤثر فيهم كما لا يمكن لأحد غيره أن يفعل فقد آتاه الله فصاحة وطلاقة

(١) سورة الحجرات: الآية: (٢).

لسانٍ وصوتًا قويًا يخطف القلوب قبل الأسماع.

فلما نزلت هذه الآية حبس نفسه في منزله؛ فلما سأل عنه رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وكان جارًا له؛ فسأله: لماذا لا تأتي إلى مسجد النبي ﷺ؛ فقال: شَرٌّ يا سعد؛ أما علمت أني أرفعكم صوتًا فوق الصوت النبي ﷺ وما أراني إلا قد حبط عملي، وأنا من أهل النار.

فلما علم ﷺ مقالة ثابت تبسم وقال لسعد: «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[1].

فهذا جزاء من خشي أن يكون ممن وقعوا في هذا النهي فما بالكم بمن يقولون بآراء وأحكام من عند أنفسهم مما لا يصح به نص ولا دليل من كتاب ولا سنة؛ وإنما هو الهوى والنفس الأمارة بالسوء والتي إن لم يشغلها صاحبها بالطاعة شغلته بالمعصية ولا شك؛ فاللهم آت نفوسنا تقواها وزكِّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها.

*** الثبات حتى الممات:**

وها نحن قد عدنا إلى قصة الغلام بعد أن طوفنا بحضراتكم حول ما يجب أن يكون عليه المسلم الحق الذي لا يرضى بأن يسبقه إلى الله أحد ويرفع شعار: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[2]، وقبل أن نكمل الحديث عن هذه القصة نود أن نوضح إننا لا نريد بذلك مجرد التسلية أو سرد وقائع وأحداث، وإنما نريد أن نستخلص العظة والعبرة والدروس المستفادة منها لتكون عونًا وومضة مضيئة على طريق الحق..فتعلو همتنا لتعانق السحاب.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٩) كتاب الإيمان.

(٢) سورة طه: الآية: (٨٤).

فمن أراد المنزلة العالية فينبغي له أن تكون همته على نفس القدر الذي يريد أن تصل إليه منزلته ومكانته في الجنة، ونحن لا نرضى عن الفردوس بديلًا، وكيف لا؟ وقد أمرنا ﷺ أن نسأل الله إياها؛ فنسأل الله جل في علاه أن يحشرنا مع نبيه ومصطفاه ﷺ كما آمنا به ولم نره وألا يفرق بيننا وبينه حتى يُدخلنا مُدخله.

وسوف نقوم بسرد القصة مجملة بنص الرواية التي جاءت في «صحيح مسلم» ثم نتناولها بشيء من التفصيل.

فعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ؛ فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ؛ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ؛ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ؛ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ؛ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ؛ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ؛ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ؛ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ؛ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ؛ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؛ فَأَخَذَ حَجَرًا؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ؛ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ؛ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ؛ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى؛ فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ؛ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ؛ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ؛ فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي؛ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي

أَحَدًا..إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ؛ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ؛ فَآمَنَ بِاللهِ فَشفَاهُ اللهُ؛ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ؛ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي، قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ؛ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ؛ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ؛ فَجِيءَ بِالْغُلَامِ؛ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفعَلُ؛ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ؛ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ؛ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ؛ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ؛ فَأَبَى..فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ..فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ..فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ؛ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ؛ فَأَبَى..فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ..فَشَقَّهُ بِهِ؛ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ؛ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ..فَأَبَى..فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا؛ فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ؛ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ؛ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ؛ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ؛ فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ؛ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ، قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ..فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ..فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ..فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ..فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ؛ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ..فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ..فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ؛ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ، قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ؛ فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي؛ حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ..ثُمَّ

ارْمِنِي؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي؛ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ..ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ..ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ..ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ..ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ؛ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ..فَمَاتَ؛ فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ..آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ..آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ؛ فَأُتِيَ الْمَلِكُ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ..قَدْ آمَنَ النَّاسُ؛ فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ؛ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ؛ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا؛ فَقَالَ لَهَا: الْغُلَامُ يَا أُمَّه اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ» (١).

*** في رحاب القصة:**

كان هناك ملك اسمه (ذو نواس) وكان يعيش فى بلدة تُسمى (نجران) فى اليمن.

وكان هذا الملك عنده ساحر يعمل له كل ما يستطيع من الحيل والأعمال السحرية؛ لكى يُقنع الناس بأن هذا الملك هو إله الكون الذى يستحق أن يُعبد من دون الله (جل وعلا).

وهذا الساحر فى الحقيقة هو أهون الناس على الملك، فإذا وجد الملك من هو أفضل منه تخلَّى عنه فى التو واللحظة بل إن حدث منه أى شيء يُغضب الملك فسرعان ما يتحول الملك إلى إعصار مدمر يعصف بحياة الساحر بلا تردد.

* وفى يوم من الأيام كان الساحر جالسًا مع الملك كعادته فإذا به

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٥) كتاب الزهد والرقائق.

يقول للملك: أيها الملك .. لقد أصبحت كبيرًا فى السن وأشعر بضعفٍ شديد فى صحتى ولم أعد أستطيع أن أقدم إلا القليل من الحيل والأعمال السحرية.

الملك: وماذا تريد أيها الساحر .. فأنا لا أستطيع أن أستغنى عنك لحظة واحدة .. فأنت الذى تجعل الناس يطيعونى بل ويعبدونى بفضل أعمالك السحرية.

الساحر: أنا لن أتخلى عنك أبدًا يا سيدى .. لكنى أخشى أن أموت فيموت السحر معى .. فأنا أريدك أن تبعث لى غلامًا صغيرًا ذكيًّا أعلمه السحر ليكون ساحرًا لك بعد موتى .. وبذلك أضمن أن يستمر السحر من بعدى.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: لماذا طلب الساحر من الملك أن يبعث إليه غلامًا صغيرًا ولا يبعث إليه شابًّا أو شيخًا كبيرًا؟!

والجواب: لكى يتعلم الغلام السحر من صغره ويبقى مع الملك أكبر وقت ممكن ليخدمه فى تنفيذ ما يريد .. ونحن نعلم جميعًا أن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر.

* وأنا أتعجب من أمر هذا الساحر الذى عاش حياته كلها كافرًا بالله (جل وعلا) وعلى الرغم من ذلك بدلاً من أن يفكر فى التوبة قبل أن يموت – فقد اقترب أجله – وإذا به يفكر كيف يستمر هذا الشر من بعده؛ ليكون ذلك فى ميزان سيئاته من بعده.. كما قال النبى ﷺ: «**ومن سَنَّ فى الإسلام سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنقص من أوزارهم شىء**».

* المهم أن الملك وافق على طلب الساحر .. وعلى الفور أمر الملك أعوانه أن يبحثوا عن أذكى غلام فى المملكة كلها ليكون ساحرًا للملك... وبعد بحثٍ طويل وقع الاختيار على غلام فى قمة الذكاء.. وذهبوا به إلى الملك، فرحب به وأخبره أنه سيتعلم السحر على يد الساحر الكبير؛ ليكون بعد ذلك هو الساحر الخاص بالملك.

* فرح الغلام فى بداية الأمر .. فهو الآن على أبواب الشهرة والثراء... وذهب الغلام إلى الساحر فى اليوم التالى، فوجد أن أعوان الملك قد أحضروا له ملابس جديدة وتركوا له أموالاً كثيرة، ففرح بذلك أشد الفرح وعلم أنه سيصبح قريبًا من المشاهير الأثرياء فى هذه المملكة.

* وبدأ الساحر الكبير يعلم الغلام فنون السحر، والغلام يتعلم منه كل يوم شيئًا جديدًا .. والهدايا والأموال تنهال كل يوم على الغلام؛ لكى يحب السحر ويُخلص فى خدمة الملك بعد ذلك.

وتدبروا معى كيف أن الملك وكل من حوله يجندون كل طاقاتهم ليصنعوا من هذا الغلام ساحرًا كافرًا .. ولكن الله ﷻ يريد أن يصنع منه مؤمنًا موحدًا بل وداعية إلى دين الله (جل وعلا): ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[1].

* وكان الغلام يذهب إلى الساحر كل يوم ليتعلم السحر على يديه... وكان الطريق من بيت الغلام إلى قصر الملك طويلاً وشاقًّا على الغلام فكان الغلام أحيانًا يجلس؛ ليستريح من التعب.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٢١).

وبينما كان الغلام يومًا جالسًا ليستريح وإذا به يسمع صوتًا يصدر من بيت صغير.. وكان صاحب الصوت شيخًا كبيرًا وإذا به يقول: لا إله إلا الله .. يا فاطر السماوات والأرض.. يا حى يا قيوم، اللهم اجعلنى من عبادك الصالحين ..

فتعجب الغلام من تلك الكلمات .. ولم يعلم ماذا يقصد هذا الشيخ الكبير بهذه الكلمات ..

وانصرف الغلام وخاف أن يدخل على هذا الشيخ ليسأله.. ولكن الكلمات ظلت تتردد فى عقل هذا الغلام.

* ذهب الغلام إلى الساحر وبدأ يتعلم على يديه الدرس اليومى فى السحر، فظل الغلام يسمع تلك الطلاسم السحرية والكلمات التى لا يفهم منها أى شىء.. وأخذ يقارن بين كلمات الساحر التى لا يفهمها أحد وبين كلمات هذا الراهب الشيخ الكبير وهو يقول تلك الكلمات السهلة الجميلة، فأحسَّ الغلام لأول مرة بارتياح شديد لكلام الراهب.

* وفى اليوم التالى جلس الغلام بجوار صومعة الراهب يستمع إليه وهو يدعو بتلك الكلمات الجميلة.

وأصبح الغلام يمر على صومعة الراهب وهو ذاهب إلى الساحر وكذلك وهو عائد إلى بيته.. حتى أحسَّ فجأة أنه يريد أن يدخل على هذا الراهب ليعرف من هو وماذا يصنع.

* وفى يوم من الأيام.. كان الغلام ذاهبًا إلى الساحر، فمرَّ على صومعة الراهب وسمعه وهو يقول: يا حى يا قيوم يا فاطر السماوات والأرض أنت الإله الحق، لا إله غيرك ولا ربَّ سواك.. أسألك باسمك

الأعظم أن تغفر لى وترحمنى.

فدخل الغلام عليه فجأة وهو يبكى ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله.

فقال الراهب: من أنت أيها الغلام الصغير؟

فقال الغلام: أنا ساحر الملك الصغير .. وقد سمعتك وأنت تقول هذه الكلمات الجميلة فتأثرت وأردت أن أعرف من هو هذا الإله الذى تعبده.

فقال الراهب: إنه الله الذى خلقنا ورزقنا وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

فقال الغلام: إن الناس يقولون إن الملك الذى يحكمنا هو الله.

فقال الراهب: يا بُنى! إن الملك ما هو إلا بشر ضعيف لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا .. إنه بشر يحتاج إلى الماء والطعام والدواء، فهو يخدع الناس ويقول: إنه إله .. وليس هناك إله إلا الله.

فانشرح صدر الغلام وقال للراهب: علمنى كيف أعبد الله (جل وعلا).

فأخذ الراهب يعلم الغلام كيف يعبد الله وكيف يذكره وكيف يوحده، فأصبح الغلام مسلمًا عابدًا لله (جل وعلا).

* أصبح الغلام بعد ذلك يكره لقاء الساحر لكنه يذهب إليه؛ لأن الملك أمره بذلك.

وعلى الرغم من أنه يذهب للساحر إلا أنه أصبح زاهدًا فى تعلم السحر.. فقد علم أن هذا الساحر كذاب ودجال وأنه هو والملك على باطل.

* وفى المقابل أصبح الغلام يشتاق كل لحظة للقاء الراهب ليتعلم منه كيف يعبد ربه ويوحده.

فكان كلما ذهب إلى الساحر ضربه؛ لأنه تأخر عليه.. وكلما ذهب إلى أهله ضربوه لأنه تأخر عليهم.. فشكا ذلك إلى الراهب فقال له الراهب: إذا سألك الساحر لماذا تأخرت؟ فقل: حبسنى أهلى.. وإذا سألك أهلك لماذا تأخرت؟ فقل: حبسنى الساحر.

وبذلك تخلَّص هذا الغلام من بطش الساحر وأهله.

* وفى يوم من الأيام كان الغلام فى طريقه إلى الراهب، فوجد الناس مذعورين خائفين .. فنظر فوجد أسدًا كبيرًا قد قطع الطريق على الناس .. فاغتنم الغلام هذه الفرصة وقال فى نفسه: اليوم أعرف وأتيقن أيهما أفضل عند الله: الساحر أم الراهب.

فأخذ الغلام حجرًا صغيرًا وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس .. فرماها فقتل الأسد ومضى الناس وهم يظنون أن الغلام قتل الدابة بسبب نبوغه فى السحر.

ولذلك علينا أن نتخيل هذا المشهد: غلام صغير، لا يستطيع أن يحمل إلا حجرًا صغيرًا فكيف يضرب الأسد بذلك الحجر الصغير فيموت؟! إن الحجر الذى أمسك به الغلام لا يقتل فأرًا صغيرًا، فضلاً عن أن يقتل أسدًا كبيرًا.. لكنها كانت كرامة من الله أكرم بها هذا الغلام لأنه لجأ إلى الله وتوكل عليه.. وفى نفس الوقت أراد الله (عز وجل) أن يُعرفه طريق الخير من طريق الشر ليكون على يقين من أنه على الحق فيبذل من أجله كل ما يملك حتى نفسه التى بين جنبيه.

* ثم ذهب الغلام إلى الراهب وأخبره بما حدث.

فقال له الراهب: أى بُنى أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى .. ولكن اعلم أنك ستتعرض لابتلاءٍ شديد، فإذا وقعت فى هذا البلاء فلا تدل الناس على مكانى ولا تخبرهم عنى.

وهذا درس عظيم فى التواضع لأن الراهب أفضل من الغلام - بلا شك - فهو الذى علمه التوحيد ولقَّنه العلم وعلى الرغم من ذلك يقول له: أنت اليوم أفضل منى.

وقد أجرى الله على يد الغلام شفاء المرضى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكان يخبر الناس أن الشافى هو الله، وأن من آمن بالله فإنه يشفيه، فكان يتخذ من المعالجة طريقًا لنشر دعوته، ونشر الإيمان.

* فسمع جليس الملك - وكان أعمى - أن هناك غلامًا يداوى الناس من كل الأمراض.

فما كان من جليس الملك إلا أن أحضر الهدايا الثمينة والأموال الكثيرة وذهب لهذا الغلام فوجد زحامًا شديدًا على بابه فاستأذن من هؤلاء الناس ودخل على الغلام .. وإذا بالمفاجأة الكبرى!!

لقد علم جليس الملك أن الغلام الذى يداوى الناس من الأمراض هو ساحر الملك .. فقال له جليس الملك: لقد جمعت لك كل هذه الهدايا والأموال على أن تشفينى وترد إلىَّ بصرى.

فقال له الغلام: «إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك... فآمن بالله فشفاه الله».

هكذا بدأ الغلام يضع بذرة التوحيد فى قلب جليس الملك ليعلم أن

الله وحده هو النافع الضار وأنه بيده مقاليد السماوات والأرض وأنه هو وحده الذى يملك الشفاء.

* **والفائدة الثانية:** أن الداعية الصادق يستغل حاجة الناس فى دعوتهم إلى الله عز وجل.

* ولكن جليس الملك كان مترددًا، فقال للغلام: ومن هو الله؟

فقال الغلام: الله الذى خلقنا جميعًا وخلق الكون كله.. وهو الذى سيشفيك من مرضك إن آمنت به ودعوته.

جليس الملك: أليس ملك البلاد هو الله؟

الغلام: كلا .. إنه عبدٌ ضعيف ولو كان إلهًا لشفاك ولكن إن كنت فى شكٍّ، فاذهب الآن إلى الملك واطلب منه أن يرد إليك بصرك.

فتيقن جليس الملك أن الملك عبدٌ ضعيف، لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا.

فرفع جليس الملك رأسه إلى السماء وقال: أشهد أن لا إله إلا الله.

فقام الغلام فدعا الله أن يشفى جليس الملك وأن يرد عليه بصره.

فشفاه الله وردَّ إليه بصره.. فصرخ جليس الملك من شدة الفرح وهو يردد: أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.

فقال له الغلام: لا تُخبر الملك عنى ولا تدله علىَّ.

فوعده جليس الملك بذلك، ثم خرج وهو فى قمة السعادة.

فلما أسلم جليس الملك وشفاه الله ﷻ جاء إلى الملك «فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: مَن ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربى. قال: ولك ربٌّ غيرى؟ قال: ربى وربُّك الله».

فأخذه فلم يزل يُعذبه حتى دل على الغلام.

ومع أن هذا الرجل كان جليسًا للملك إلا أن الملوك ليس عندهم وفاء لمن حولهم .. فما إن تعارضت وجهة الجليس مع وجهة الملك وإذا به يأمر بتعذيبه فى التوِّ واللحظة.

قال ﷺ: «**فجىء بالغلام، فقال له الملك: أى بنى قد بلغ من سحرك ما تُبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب**».

* علم الملك أن الغلام وراء هذه الدعوة الجديدة على مملكته: دعوة التوحيد وإنكار ربوبية الملك، فماذا يفعل الطاغية لاحتواء هذه الدعوة؟

إن بطشه بالغلام الذى أحبه الناس وعرفوا إحسانه إليهم، وأنه هو الذى قتل الدابة، وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويداويهم من سائر الأدواء؛ سوف يزيد من محبته ويجعله بطلاً أو شهيدًا، ويصبح موته وقودًا دافعًا لاستمرار دعوته؛ فلا بد من محاولة الاستمالة أولاً، فهو يعرف جيدًا حقيقة دعوة الغلام وأنها تهدف إلى تحقيق العبودية لله وحده ونبذ عبودية الملك، ومع ذلك يقول له: «أى بنى».

والنداء بالبنوة أول محاولات الاستمالة والتلطف، فهو يقول له: أنت ابنى وأنا الذى توليت تربيتك، ثم يقول له: «قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل».

فهو يريد أن يقول له: لا مانع عندى من استمرارك فى ما تفعل، بشرط أن تقول للناس: إن هذا سحر تعلمته فى مدرسة الملك، وأن ما تدعو إليه

هو بتوجيهات الملك وتحت إشرافه وبرعايته،... وهو يقول له ذلك وهو على يقين من أنه هو الذى قال لجليسه ولغيره: ربى وربك الله، وأنه سبحانه الذى يشفى الناس.

رفض الغلام إذن أن يسمى ما يفعله سحرًا، وأبى إلا أن يجابه الملك بأن دعوته هى دعوة التوحيد الخالص بمقولته العظيمة: «إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله تعالى»، وفشلت محاولة الاحتواء وإلباس الحق ملابس الجاهلية، فانكشف الملك على حقيقته ولجأ إلى الأسلوب المعتاد: البطش والتنكيل؛ فجىء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شِقَّاه».

وهنا وصل الملك إلى النبع الذى استقى منه الغلام وجليس الملك (الإيمان والتوحيد)، فأراد الملك أن يجفف هذا النبع وذلك بأن يتخلص منه ويقتله.. ولذلك لم يتكلم معه بنفس اللطف الذى قابل به الغلام فى البداية بل قال له بكل صراحة ووضوح: ارجع عن دينك.

فأبى الراهب أن يرجع عن دينه رغم أنه يعلم أنه سيتعرض للعذاب الشديد.

فأمر الملك بقتل الراهب فى التوِّ واللحظة.

وكان الذى شجع الملك على قتل الراهب أنه لم يكن مشهورًا ومعروفًا بين الناس ولذلك لن يعترض أحدٌ لقتله.

وقتله الملك أبشع قتلة وذلك بأنه أمر أن يُنشر بالمنشار نصفين وعلى الرغم من ذلك صبر الراهب على هذه القتلة البشعة؛ لأنه يعلم

يقينًا أن موت الجسد أفضل بكثير من موت الإيمان والتوحيد فى قلب العبد؛ لأن صاحب التوحيد لو قُتل عشر مرات فإنه سيحيا فى جنات النعيم وسيَجبر الله كسره فى تلك الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. بل إنه سينسى كل شقاء مع أول غمسة فى جنة الرحمن.

فجيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شقاه».

* لقد حدث لجليس الملك مثلما حدث للراهب... لقد ذاق الرجل حلاوة الإيمان فهان عليه أن يقدم حياته لله (جل وعلا) بدلاً من أن يعيش مُنعمًا فى قصر الملك وهو بعيد عن الله (سبحانه وتعالى).

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى.

* لقد كان الملك حتى هذه اللحظة لا يريد أن يقتل الغلام؛ لأنه مازال عنده بريق أمل فى أن يستخدمه فى السحر ويستفيد من مواهبه وإمكانياته.. فاختار طريقة لقتله يستطيع الغلام من خلالها أن يفكر مرة أخرى.

طلب الملك من زبانيته أن يذهبوا بالغلام إلى أعلى الجبل ويعرضوا

عليه أن يرجع عن دينه أو يلقوه من قمة الجبل .. ومن المعلوم أنهم سيسيرون مسافات طويلة؛ لكى يفكر الغلام مرة بعد مرة.

ولكن الغلام كان الإيمان فى قلبه ثابتًا ثبات الجبال الراسيات، فلم يضعف قلبه ولم ترتعد فرائصه لحظة واحدة بل كان يتمنى الشهادة فى سبيل الله من أجل أن تحيا الأمة كلها على التوحيد والإيمان.

* ولما صعدوا به فوق الجبل ما كان من الغلام إلا أن لجأ إلى الله وتوكل على الحى الذى لا يموت فقال بقلبه ولسانه: «**اللهم اكفنيهم بما شئت**» ولم يختر الغلام الطريقة التى ينجيه الله بها من كيد هؤلاء بل ترك الأمر لمالك المُلك وملك الملوك (جل وعلا) ليدبر له الأمر وينقذه بالطريقة التى يراها هو (سبحانه وتعالى).

فما كان من الحق (جل وعلا) إلا أن أمر الجبل فتزلزل بهم الجبل وسقطوا جميعًا - وهم الرجال الأشداء الأقوياء - وبقى الغلام الصغير الضعيف فى جسده القوى فى إيمانه .. بقى الغلام سالمًا بأمر الله ﷻ.

إنه التوكل على الله وإنها الثقة فى الله الذى بيده مقاليد الأمور.

* وعاد الغلام إلى الملك مرة أخرى!!

وقد يسأل سائل ويقول: ما الذى جعل الغلام يعود إلى الملك مرة أخرى ولم يهرب مع أنه على يقين من أن الملك يريد أن يقتله؟!

والجواب: إن الغلام لا يريد النجاة لنفسه بل يريد الحياة لأمته، فهو يريد أن تنتصر العقيدة مهما كان الثمن ولذلك رجع ليعلم الكون كله أنه لن يكون إلا ما قدره الله.

فكان الغلام يريد أن يرجع إلى الملك؛ لأنه حريص على هداية

الأمة .. وهذا هو شأن الدُّعاة المخلصين الذين يتحملون كل أنواع الأذى والبلاء من أجل أن تحيا الأمة فى ظلال التوحيد والإيمان.

ولك أن تتصور كم كانت دهشة الملك وهو يرى الغلام الصغير حيًّا يمشى إليه، وقد ذهب الأصحاب من الجنود الأشداء الأوفياء لملكهم إلى غير رجعة!!

فيسأل الغلام متعجبًا: ما فعل أصحابك؟! فيقول الغلام: كفانيهم الله تعالى. فلم يخبره بما جرى.

ولم يُعلق بكلمة واحدة على تلك الكرامة التى أكرمه الله بها ولكنه اكتفى بأن يذكر للملك بأن الله هو الذى كفاه شرَّ هؤلاء الرجال، فهو وحده الله الذى يستحق أن نتوكل عليه وليس أنت أيها الملك الضعيف الذليل.

* فأرسله الملك مع نفر من أصحابه، فقال لهم: اذهبوا به فى سفينة صغيرة وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، ورجع يمشى إلى الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى.

وهنا لجأ الملك إلى حيلة أخرى لقتل الغلام.. ولكنه اختار أيضًا طريقة تجعل الغلام يفكر مرة أخرى.

وكأن الملك حتى تلك اللحظة لم يعرف أن الغلام لو عُرض على القتل كل يوم مائة مرة، فلن يرجع عن دينه أبدًا.

* فأمر الملك زبانيته أن يأخذوا الغلام إلى البحر ويهددوه بالرجوع عن دينه أو أن يقذفوا به فى وسط البحر.. فأبى الغلام.

وبنفس الثقة فى الله والتوكل على الله لجأ الغلام إلى الحق (جل وعلا) وقال: «اللهم اكفنيهم بما شئت» فما كان من أمواج البحر إلا أن تفاعلت مع تلك الكلمة - بأمر الله - «وما يعلم جنود ربك إلا هو».

فانكفأت السفينة وغرقوا جميعًا - وهم الرجال الأشداء الأقوياء - وحملت مياه البحر هذا الغلام الصغير ليصل إلى الشاطئ سالمًا غانمًا .. ومع ذلك لم يفكر أبدًا فى الهروب بل عاد إلى الملك ليعطى الكون كله درسًا فى الثبات على الدين والإصرار على انتصار الإيمان والعقيدة.

فتعجب الملك .. كيف يعود الغلام هذه المرة أيضًا سالمًا. وكان الملك يظن أن ربَّ الغلام الذى نجاه من على الجبل لن يستطيع أن ينجيه من البحر... فسأل الملك الغلام: «**ما فعل أصحابك؟**».

قال الغلام بثقة ويقين: «**كفانيهم الله**».

* ثم تحول الغلام من مأمور إلى آمر .. فقام يأمر الملك، فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، قال الملك: وما هو؟

قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، ثم تصلبنى على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل: «**بسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمنى؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى**».

* لقد أحسَّ الملك بعجزه الشديد وأنه لا يستطيع أن يقتل هذا الغلام الصغير ولا حتى أن يكون سببًا فى هروب الغلام وخروجه من مملكته؛ ليحفظ الملك ماء وجهه أمام رعيته الذين علموا بعجزه عن قتل غلام صغير مع أنه يدَّعى أنه إله من دون الله ﷻ.

* وهنا يتحول الغلام الصغير من مأمور إلى آمر.. يقوم الغلام ليأمر الملك ويقول له: «**إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به**».

الله أكبر!! يا لها من كرامة... أن يتحول الغلام من مأمور إلى آمر بل ويخبر الملك بعجزه وضعفه عن قتله حتى يفعل الأمر الذى يوجهه الغلام إليه.

* ولما كان الملك قد أحس بأن وجود هذا الغلام أصبح خطرًا على مُلكه قال له بلهفة وشوقٍ: «وما هو؟» أى ما هو الطريق الذى يجعلنى أستطيع أن أقتلك.

فقال له الغلام الذكى: «تجمع الناس فى صعيد واحد» وذلك ليرى الناس جميعًا هذا المشهد ويعلموا الحقيقة كلها ويعرفوا أنه لا شىء يحدث فى الكون كله إلا بأمر من الله (عز وجل).

* وقول الغلام للملك: «ثم تصلبنى على جذع» ليظهر للجميع الظلم الواقع على الغلام بدون جريمة ارتكبها إلا أن يقول ربى الله، وهذا بالتأكيد من أسباب ميل الناس إليه وتعاطفهم معه ومع دعوته؛ فقد فطر الله العباد على كراهية الظالم وعداوته والميل إلى المظلوم ومناصرته.

فإذا أُضيف إلى ذلك أنهم يعلمون عن المظلوم حبّه للخير وحرصه على الإحسان إلى الناس، وجربوه من قبل فى قضاء حوائجهم، وكونه كان دائمًا مستشعرًا لمشاكلهم فى حين غابت مشاكلهم عن الملك وحاشيته؛ بداية من الدابة التى قتلها وانتهاءً بأمراضهم المستعصية التى كان لا يستطيع، بل ولا يلتفت إلى محاولة مداواتها، فلا شك أن هذه الأمور مجتمعة تجعل هذا الجمع كله يعلم الظلم الواقع على الغلام، وعندما يتساءلون ما جريمته؟ يقال: لا شىء إلا أنه يقول ربى الله.

فهكذا ينبغى أن يكون الدُّعاة إلى الله حريصين على ألا يكون لهم تهمة

إلا أن يقولوا: ربُّنا الله، مع إحسانهم إلى الناس... وعليهم ألا يحزنوا من الظلم الواقع عليهم، فإنه قدَّره الله لحِكمٍ عظيمة لانتشار دينه وقبول الناس له، كما أنه سرعان ما يزول، فيكون لهم الأجر الجزيل عند ربهم.

وقول الغلام للملك: «**ثم خذ سهمًا من كنانتى**» مزيد من إظهار عجز الملك وأنه ليس بيده الأمر، فلو أخذ سهمًا من كنانة الملك لم يقتل الغلام حتى يأخذه من كنانة الغلام؛ ليعلم الناس أن الأمر أمر ربِّ الغلام، وأن قتل الغلام كان بإرادته لا إرادة الملك.

وفى أمره أن يقول: «**بسم الله رب الغلام**» إعلان بالعجز التام والافتقار القهرى الاضطرارى إلى الله سبحانه.

* **فإن قيل**: ألم يكن الغلام يعلم باحتمال أن يقتل الملك الناس لو آمنوا،... بل يغلب على ظنه ذلك، وهو يعلم عجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم، فهو بالتالى قد ألزمهم الصبر على القتل خلافًا لما ذكرت؟

فالجواب: أن الموازنة هنا بين البقاء على الكفر مع الحياة أو الدخول فى الإسلام مع القتل، ولا شك أن الدين مُقدَّم على النفس.

* فقام الملك وجمع الناس فى صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه، فوضع يده فى صدغه فمات، فقال الناس: «**آمنا بالله رب الغلام**».

* وفعل الملك ما أمره به الغلام .. وكان هذا الملك فى غاية الغباء لأنه لو ترك الغلام يدعو الأمة إلى توحيد الله لما آمن معه إلا القليل ولكنه لما قُتل الغلام؛ آمنت الأمة كلها وقاموا جميعًا على قلب رجلٍ

واحد فقالوا: آمنا بالله رب الغلام.

* ورحل الغلام الشهيد عن دنيا الناس عزيزًا كريمًا.. وهو الذى صدق الله فصدقه الله وآمنت الأمة كلها لتأتى يوم القيامة فى ميزان حسنات الغلام ومن قبله الراهب الذى علَّم الغلام التوحيد لله (جل وعلا) وقُتل قبل أن يرى ثمرة دعوته .. وهذا أمر يحفز الدُّعاة على بذل وسعهم فى الدعوة وإن لم يروا ثمرة دعوتهم فى حياتهم، فقد تأتى الثمرة بعد موت الداعية.

«فأُتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟! قد والله نزل بك ما كنت تحذر، قد والله آمن الناس، فأمر بالأخاديد (الحُفر) بأفواه السكك فخُدَّت «أى حُفرت»، وأُضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبىٌّ لها، فتقاعست أن تقع فيها (أى ترددت وهمَّت أن ترجع)، فقال لها الغلام (أى ابنها الصبى): يا أُمه! اصبرى، فإنك على الحق».

* فقامت البطانة السيئة لتخبر الملك بأن الأُمَّة قد آمنت بالله ﷻ فما كان من الملك - الذى لا يملك الحُجة ولا الإقناع - إلا أن لجأ إلى البطش والعنف، فأمر زبانيته أن يحفروا الأخاديد فى أفواه السِّكك حتى لا يترك مكانًا يستطيع الناس أن يهربوا منه.

وجىء بالموحدين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان منذ ساعات معدودة وخيّروهم بين الكفر وبين دخول نار الدنيا، فاختاروا جميعًا أن يموتوا على التوحيد والإيمان وأن يدخلوا نار الدنيا على أن يكفروا بالله ﷻ ويدخلوا نار الآخرة التى هى أشد من نار الدنيا سبعين مرة.

*** المشهد الأخير:**

ويأتى هذا المشهد الأخير المؤثر.

قال ﷺ: «**حتى جاءت امرأة ومعها صبىٌّ لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصبرى فإنك على الحق**».

ويا له من مشهد مهيب أن يُنطق الله هذا الطفل الصغير، ليربط على قلب أمه ولتعلم يقينًا أنها على الحق.

* وهكذا رحل هؤلاء الشهداء الأبرار عن دنيا الناس؛ ليسعدوا بالنعيم المقيم فى جنة الرحمن (جل وعلا).

* ولقد ذكر الله قصتهم فى سورة البروج، فقال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾[١].

أولئك هم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله فى كتابه وذكرهم الرسول ﷺ فى سُنته.

لم ينتقموا منهم ويحرقوهم إلا لأنهم آمنوا بالله، وهذه هى سُنة الله فى خلقه المؤمنين الموحدين.

ولا تزال الحرب بين الإيمان وأهله والكفر وأهله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) سورة البروج: الآيات: (٤-١٠).

نسأل الله أن يثبتنا على ديننا حتى نلقى نبينا ﷺ على حوضه يوم القيامة.

*** أول من أسلم من الصبيان:**

تعالوا بنا -إخوة الإيمان- نعود إلى أصحاب النبي ﷺ؛ لنأخذ نموذجًا فريدًا من الصبيان في علو الهمة والبطولة والفداء ... إنه ابن عم النبي ﷺ وأول من شرح الله تعالى صدره للإسلام من الصبيان فلقد كانت بعثة النبي ﷺ يوم الإثنين وصلى معه علي بن أبي طالب يوم الثلاثاء -أي: في اليوم التالي من بعثة النبي ﷺ-.

ويكفينا لندلل على بطولته وفدائيته وبذله لهذا الدين ما كان منه ليلة هجرة النبي ﷺ حين نام في فراشه مُعرِّضًا نفسه للقتل غير مُبالٍ بذلك امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ، والذي لولا أنه يعلم أنه سيقوم بهذه المهمة على أكمل وجه لما اختاره ... فقال له ﷺ: «**يا علي نَمْ على فراشي وتسبَّج ببُردتي فإنه لا يصلك مكروه**»؛ فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولكن السؤال: لو كان النبي ﷺ قال لعليّ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: أنك ستُؤذَى، وسيصيبك مكروه؛ هل كان ينام مكانه؟

والله حتى لو كان هذا قد حدث فما أرى إلا أنه كان على استعداد أن يضحي بحياته فداءً لرسول الله ﷺ ... ونحن لسنا في معرض الحديث عن أحداث الهجرة وإنما نشير إلى ذلك فحسب.

*** هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!**

قضى الله -جل وعلا- أن من بذل شيئًا في سبيل الله وضحى به فإنه سبحانه يعوضه خيرًا منه في الدنيا قبل الآخرة ... فهذا علي بن أبي طالب

عانى ليلة واحدة فكانت سببًا في سعادته، وذلك بأن جعل فاطمة بنت محمد ﷺ زوجًا له.

ويحضرني في ذلك موقف زواج علي بن أبي طالب من فاطمة بنت النبي ﷺ والذي يدل على فراسة النبي ﷺ وشفافيته.

فلقد روى الإمام أحمد بسند حسن، أن عليًّا رضي الله عنه عزم على أن يطلب الزواج من السيدة فاطمة رضي الله عنها، وذلك بعد الهجرة بقليل؛ فلما أقبل على النبي ﷺ نظر إليه وقال: «**يا علي أتريد فاطمة**» قال: أجل يا رسول الله، قال: «**أمعك شيء تَصْدُقها إياه**»، أي: تعطيه مهرًا لها..فقال له: لا، فقال له النبي ﷺ: «**أين درعك التي كنت تقاتل بها؟**»، قال: إنها مكسورة، فقال له: ائتني بها؛ فلما جاء بها أخذها النبي ﷺ ورفعها وقال: «**هذا مهر فاطمة بنت محمد**»؛ ليضرب المثل الأروع في التيسير في الزواج، وهو القائل ﷺ: «**يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا**»[(١)].

وأنا أُهدي هذا الموقف وأناشد به أولياء الأمور أن يرحموا الشباب وييسروا عليهم الزواج لكيلا نتركهم لقمة سائغة للشيطان وأعداء هذا الدين الذين يحيكون لهم المكائد ليل نهار من أجل إفسادهم .... والله من ورائهم محيط.

ليس هذا فحسب؛ وإنما رزقه الله -تبارك وتعالى- بعد أن أقرَّ عينه بفاطمة؛ رزقه منها ولدين هما سيدا شباب أهل الجنة بنص حديث رسول الله ﷺ..ناهيك عن أن عليًّا كان فارسًا مغوارًا لا يُشق له غبار؛ فهو

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩) كتاب العلم، ومسلم (١٧٣٤) كتاب الجهاد والسير.

قاتِل (عمرو بن عبد وُد) الذي كان لا يجرؤ واحد في مكة ولا في غيرها أن يواجهه لقوته وضخامة حجمه ... ولكنه الإيمان، ولو استطردنا في الحديث عن مناقب هذا البطل الهمام لما كفانا الوقت ولما اتسع المقام، ولكن نختم الحديث عنه بهذا الوسام الذي وضعه النبي ﷺ على صدر هذا الصحابي الجليل..

* **رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ﷺ:**

كانت خيبر من أكبر مراكز الشر اليهودية التي كانت قد تجمعت لحرب الإسلام والمسلمين، وكانت مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بُعد ستين أو ثمانين ميلًا عن المدينة من جهة الشمال، ولما كانت خيبر وكرًا للدس والتآمر، والاستفزاز العسكري..كان من الضروري على الجيش الإسلامي أن يتحرك إليها ليتقي شرها ويتفرغ المسلمون للدعوة إلى الله.

والشاهد من الموضوع أن النبي ﷺ قال يوم خيبر: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»؛ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ؛ فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيٌّ»؛ فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ؛ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ؛ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؛ فقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»(١).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠٠٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٤٠٤) كتاب فضائل الصحابة.

ولك أن تتخيل - حبيبي في الله - هذه الشهادة التي سطَّرها التاريخ بمداد من نور على جبين عليّ ﵁؛ حتى أن عمر بن الخطاب ﵁ قال حينها: «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ؛ فتساورت لها رجاء أن أُدعى لها»، وهو لا يريد الإمارة لذاتها، وإنما لينال هذا الوسام الرفيع «حب الله ورسوله»، ولقد أبلى عليّ ﵁ في هذه الغزوة أروع البلاء، وكانت له صولات وجولات؛ فهو الذي قتل مرحب اليهودي، وما أدراكم ما مرحب؟ فقد كان ذا هيئه مهيبة مخيفة، ولقد كان فارس فرسان اليهود قاطبة، وكان مكتوبًا على سيفه باللغة العبرية:

هذا سيف مرحب ... من يذقه يعطب

ولما خرج مرحب للمبارزة قال:

قد علمت خيبر أني مرحبٌ ... شاكي السلاح بطلٌ مُجرَّبُ

إذا الحروب أقبلت تلَّهب

فقام عليٌّ وقال:

أنا الذي سمَّتني أمي حيدرة ... كليث غاباتٍ كريه المنظرة

أوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب؛ فقتله وكان الفتح على يديه ﵁، وكان من قبل قد قتل عليٌّ أخا مرحب، وهو الحارث ... كما بارز عليٌّ قائدًا يهوديًا يسمى عامرًا؛ فقتله عليّ أمام الحصن.

ولقد قال ﷺ واصفًا هذا القائد أن طوله خمسة أذرع، وكان طويلًا جسيمًا؛ فلما دعا للمبارزة، وخرج بسيفه وعليه درعان، وهو مُقنَّع في

الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه خشية منه؛ فبرز له (عليٌّ) فضربه ضربات..كل ذلك لا يصنع شيئًا، حتى ضرب ساقيه؛ فبرك، ثم أجهز عليه فأخذ سلاحه.

وأتم الله -جل وعلا- على عباده المؤمنين فتح حصن (ناعم) وكان من أقوى حصون خيبر، مما يسر فتحها جميعًا؛ بفضل الله تعالى، وببذل وتضحية الرجال من أمثال هذا البطل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ ... فيا لها من نماذج رائعة وصور مشرقة مضيئة لعلو الهمة والبذل والفداء في سبيل إرضاء رب الأرض والسماء.

نسأل الله تعالى أن يهدينا وإياكم لأحسن الأعمال والأخلاق؛ فإنه لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنَّا سيئها فإنه لا يصرف عنَّا سيئها إلا هو وأن يرزقنا وإياكم السداد والهدى والرشاد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

كلكم راعٍ

*** مقدمة في تربية الأولاد:**

هناك مسألة قد تخفى على كثير من الناس، ولذا قررنا أن ننوه عليها وهي أن علو الهمة ليست حكرًا على الرجال والشباب فقط، وإنما تمتد لتشمل الصبيان والنساء كذلك، فالمعيار هنا بالصدق مع الله وبذل الغالي والنفيس في سبيل الوصول إليه ولذلك وحتى تتضح الأمور أكثر فأكثر نضرب أمثلة حية لعلو همة الصبيان الذين لم تتجاوز أعمارهم أكثر من ثنتي عشرة سنة.

وعلى الرغم من ذلك سبقوا كثيرًا ممَّن فاقوهم سنًّا ... والحق يقال: فإن هذه الهمة العالية ليست من فراغ ولم تكن وليدة الطبيعة، وإنما هي ثمرة لغرسٍ وضعه الآباء في أبنائهم وكانت النتيجة مبهرة؛ فالإناء بما فيه ينضح، ولذلك نود قبل أن نسوق هذه الأمثلة أن نُبين خطورة هذا الأمر وأهميته: ألا وهو تربية الأولاد في الإسلام؛ فهو مسئولية كبيرة وأمانة عظيمة ... قال (جل وعلا): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1].

ويقول النبي ﷺ كما في الصحيحين: «**أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[2].

ولذا فإن العبد لن يُسأل عن عبادته وعمله الذي قدَّمه في الدنيا فحسب وإنما سوف يُسأل عن زوجته وأولاده هل حافظ عليهم أم ضيعهم.

---

(١) سورة التحريم: الآية: (٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٣٨) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

فإن كانت الأولى فقد أفلح ونجح وإن كانت الثانية عياذًا بالله؛ فقد خاب وخسر، ولذلك لقول النبي ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»(١).

وهذا أمر في غاية الأهمية والخطورة، فقد يكون الرجل صالحًا حاجًّا ومعتمرًا ومُصليًا ويفعل الخيرات ولكنه مضيع لأهله فتجد أولاده لا يصلون وتجد ابنته لا تلبس الحجاب وهو لا يلقي لذلك بالًا ويظن أنه على الجادة ولكنه يضيع نفسه بذلك فلا يكفي أن يكون عبدًا صالحًا طائعًا حتى يدخل الجنة وإنما عليه أن يراعي زوجته وأولاده ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والرشاد وليحشروا معه يوم القيامة في درجته التي وصل إليها في الجنة ... قال (جل وعلا): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾(٢).

والتربية إنما تبدأ لا من لحظة الولادة أو مما بعدها وإنما تبدأ من اختيار الزوجة، ولذلك لما سُئل أحد السلف عن مولود وُلِدَ منذ شهر..متى تبدأ تربيته؟

فقال: لقد فات أوان ذلك.

لأن التربية تبدأ منذ اختيار الزوجة فهي بمثابة التربة الصالحة التي إن وضعت فيها بذرة طرحت ثمرة طيبة بإذن الله تعالى؛ أما إذا كانت هذه التربة غير صالحة لم تُنبت شيئًا، وحتى إذا أنبتت ستأتي الثمرة ضعيفة غير صالحة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٢) كتاب الإيمان.

(٢) سورة الطور: الآية: (٢١).

ولذا جاء في الصحيحين أنه ﷺ قال: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»(١).. وهذه الأسباب الأربع هي التي تدعو الرجل لنكاح المرأة، ولكن ما هو السبب الرئيس الذي إن توافر في امرأة كان ذلك كافيًا للإقبال على نكاحها؟

إنه الدين كما أخبر النبي الكريم ﷺ حيث قال: «فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»، أي: اغتنم الفرصة إذا أتتك لنكاح المرأة المتدينة التي تعلم شرع ربها وسنة نبيها ... وتربت يداك لها أحد معنيين:

الأول: كناية عن التصاق اليد بالتراب للتعبير عن الخير والنماء ومصدره الأرض.

الثاني: كناية عن التصاق اليد بالتراب كناية عن الخسران والسعي وراء السراب.

والمعنيان صحيحان وكلاهما مراد ومطلوب ولا يمنع نكاح المرأة ذات الدين أن تكون حسيبة نسيبة ذات مال ولكن العكس ليس صحيحًا؛ فالمال والجمال والحسب والنسب كل ذلك مصيره إلى زوال، وأما الدين وتقوى الله وحسن الخلق هذه هي الأسس التي تبقى ليس في حياة صاحبها وفقط وإنما بعد مماته كذلك.

والمرء إذ يبحث عن الزوجة الصالحة إنما يضع لبنة في بناء بيت مسلم ومجتمع قوي البنيان، قائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وله في ذلك الأجر العظيم، كما يعين زوجته وتعينه هي الأخرى على طاعة الله

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٠٩٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٦٦) كتاب الرضاع.

تعالى فتكون سببًا لإصلاحه، ويكون سببًا لصلاحها، قال جل وعلا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(١)، ويكون سببًا أكيدًا لنزول الرحمات والبركات على هذا البيت الذي امتلأ بطاعة الله جل وعلا .... ولذا يقول النبي ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ وَرَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ**»(٢)، وفي الرواية الأخرى، قال: «**مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**»(٣).

وكيف لا وقيام الليل دأب الصالحين، وهو كما قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «**وَاعْلَم أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنْ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ**»(٤)، ولذلك كان رجل في الصحابة قد استضاف أبا هريرة رضي الله عنه وزوجته وخادمه؛ فكانوا -كما قال- يقتسمون الليل على ثلاث بينهم، والمحصلة أنه ليل كامل قد أُقيمت الصلاة فيه لله رب العالمين.

وكذلك كان هناك رجل من التابعين اسمه الحسن بن إبراهيم وله أخٌ اسمه علي بن إبراهيم وكانا يعيشان مع أمهما ... وكانوا جميعًا يقسمون

(١) سورة المائدة: الآية: (٢).

(٢) صحيح: رواه النسائي (١٦١٠) كتاب قيام الليل وتطوع النهار، وأحمد (٧٣٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٤).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (١٤٥١) كتاب الصلاة، وابن ماجة (١٣٣٥) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٢٥).

(٤) حسن: رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١/ ٦١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣).

الليل على ثلاثة أقسام بالتناوب بينهم، فلما ماتت الأم قسم الأخوان الليل بينهما، فلما مات عليٌّ قام الحسن الليل كله ... فأين نحن إخوة الإيمان من هذه العبادة التي غابت عن كثير من بيوتنا، فكان ما كان من قسوة القلوب والضمائر وضياع الأخلاق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

*** من أفدى له النبي ﷺ أبويه:**

* وسوف نبدأ حديثنا عن الصبيان وعلو همتهم بالحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فلقد تعرض لاختبار وابتلاء عظيم ... وتفصيل ذلك أنه كان قبل إسلامه من أشهر الناس قاطبة في البر بأمه، وكان إذا ذُكِرَ الإحسان والبر بالوالدين ذُكِرَ سعد وضُرِبَ به المثل في ذلك.

فلما شرح الله صدره للإسلام، وكانت أمه لا تزال على الكفر، قالت له: أليس دينك يأمرك ببر الوالدين والإحسان إليهما وطاعتهما فيما يأمرانك به؟ فقال لها: بلى، فقالت: إني آمرك أن تترك دين محمد وتعود إلى رشدك ودينك ودين آبائك وأجدادك.

ولا زالت تجاهده في ذلك حتى أعيتها الحيلة، فهددته قائلة: لئن لم تترك هذا الدين لأمتنعن عن الطعام والشراب حتى أهلك؛ فتُعيرك العرب وتقول لك: يا قاتل أمه، فقال لها سعد المحب لله ولرسوله ولدين الحق الصادق في محبته.

قال لها: «إني لأحبك يا أماه ولكن حبي لله أشد فكُلِي أو دَعِي، فوالله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا بعد نفس ما تركت دين محمد ﷺ».

فلما كان ذلك امتنعت عن الطعام لمدة يومين فأُغشي عليها ووقعت على الأرض؛ فقام ابنٌ لها يُسمَّى عمارة فأطعمها وسقاها؛ فقامت تدعو على سعد، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

نعم فطاعة الوالدين أمرٌ واجبٌ بصريح القرآن والسنة المطهرة ولكن بشرط بأن تكون طاعتهما في المعروف وليس فيما يغضب الله ورسوله «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[2].

ولكن لا بد أن نشير إلى مسألة غاية في الخطورة ... فمن الشباب من يتوسع في فهم هذه العبادة بفهمٍ مغلوط ويتخذها ذريعة في التعامل مع الوالدين بصورة هي أبعد ما تكون عن الدين ويصفون أنفسهم كذبًا وبهتانًا بأنهم ملتزمون والالتزام منهم براء، والحق أن هذا الدين متين ولمن أراد أن يوغل فيه فليفعل ذلك برفق كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»[3] فلا يعني تمسكي بالدين وتعاليمه أن أغالي في ذلك وأبالغ فيه لدرجة تُخرجني عن دائرة التوسط والاعتدال بما يكون صدًّا عن سبيل الله ... فقد يكون الأب والأم على معصية أو في

---

(١) سورة لقمان: الآية: (١٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٠٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٩) كتاب الإيماان.

غفلة «وكلنا هذا الرجل».

ويقول النبي ﷺ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[١]، ولا يعني ذلك أن أناصبهم العداء وإنما أتلطف معهم وأدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[٢] ...

وإليكم هذا المثال الرائع:

فهذا شاب أمريكي كان لا يكف عن سب أمه وضربها ليل نهار؛ فلما هداه الله وشرح صدره للإسلام فسأله أحد المشايخ: هل حزنت أمك عندما علمت بإسلامك؟ قال: كلا بل على العكس من ذلك؛ فقد فرحت فرحًا شديدًا؛ فلما سأله الشيخ لماذا؟ فقال له تغيرت معاملتي لأمي بصورة كاملة بعد إسلامي فلما رأت مني كلامًا طيبًا وبسمة لا تفارق وجهي ولمسة حانية قالت: ما الذي غيرك على هذا النحو؟ فقلت لها: لقد أسلمت والحمد لله؛ فقالت له: إذا كان هذا الدين يدعوك لهذه الأخلاق فاثبت عليه، ولا تفارقه أبدًا ما حييت.

ولذا وجب على من طرق باب الالتزام وكان يعامل والديه بجفاء وجمود أن يعيد حساباته ويحسن معاملتهما فهما باباه إلى الجنة لقول النبي ﷺ: «**الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ**[٣] **فَحَافِظْ عَلَى وَالِدَيْكَ أَوِ اتْرُكْ**»[٤].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٩٩) صفة القيامة والرقائق والورع، وابن ماجه (٤٢٥١) كتاب الزهد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥).

(٢) سورة لقمان: الآية: (١٥).

(٣) أوسط أبواب الجنة، أي: أحسن أبواب الجنة.

(٤) صحيح: رواه الترمذي (١٩٠٠) كتاب البر والصلة، وابن ماجة (٢٠٨٩) كتاب الطلاق، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٤٥).

ولئن كان للأم على أولادها من الفضل ما لا يعلمه إلا الله فإن الجنة عند أقدامها، وكذلك نوجه الحديث إلى الملتزمين فمن كان بارًا بوالديه امتثالًا لأمر الله ولأمر رسوله ﷺ فعليه أن يضاعف في بره فهذا من آكد السبل وأوثقها في دعوته إياهما إلى الله بعمله ومعاملته وهو من باب الدعوة العملية ولذا فقد قيل: «إن فعل رجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل لرجل».

والشاهد من الحديث: أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لم يمنعه بره بأمه أن يعصيها في تركه لدينه ولم يمنعه حبه لله ورسوله أن يعصي أمه التي كان يُضرَب به المثل في برها والإحسان إليها ... فلا تعارض بين طاعة الله ورسوله وبين بر الوالدين ومما يوضح هذا ويؤكده اقتران كل منهما بالآخر في كتاب الله كما في قوله سبحانه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[2] .

فهذان مما لا يقبل الله تعالى أحدهما دون الآخر فمن أطاع الله ولم يطع والديه في طاعة الله فلن يقبل منه مهما بلغ من الطاعة والعبادة.

*** حبر الأمة:**

ومع صورة أخرى مشرقة لعلو الهمة، مع حَبر الأمة وتُرجمان القرآن الذي دعا له رسول الله ﷺ أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل أظنك أيها القارئ علمت من هو؟

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٢٣).

(٢) سورة النساء: الآية: (٣٦).

إنه الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي كان ملازمًا لرسول الله ﷺ منذ أن كان صبيًا صغيرًا فقد كان أحرص الناس على ألا يدع مجلسًا من مجالس رسول الله ﷺ فأصابته دعوته فصار أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ وكان من كبار علماء الصحابة ... ولك أن تتخيل مدى ما كان عليه هذا الصحابي الجليل من الجد والاجتهاد في طلب العلم والعمل به ونشره؛ حتى وصل إلى هذا الحد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾(١).

*** عمير بن أبي وقاص:**

ومع مثال آخر من أمثلة علو الهمة للصبيان، ومع عمير بن أبي وقاص رضي الله عنه.

هذا الغلام الذي لم يجاوز الثانية عشرة من عمره جاء إلى النبي ﷺ في غزوة بدر يراوده حلم وطموح منذ أن وعى الأشياء وهو يتمنى أن يموت شهيدًا في سبيل الله.

ولعلمه أن النبي ﷺ لا يجيز في صفوف المقاتلين من كان دون الخامسة عشرة احتال على ذلك، فإذا بالنبي ﷺ وهو يتفقد صفوف الجيش كعادته يرى ثوب سعد بن أبي وقاص يتحرك يمنة ويسرة فإذا بعمير مختبئ خلف هذه الثياب فلما أراد النبي ﷺ أن يرده بكى بكاءً شديدًا، وقال: لا تحرمني الشهادة.

ولا يظن ظانٌّ أن هذا أمر مُستغرَب فها هم أولادنا أبناء العشر سنين على أرض الشرف والجهاد في فلسطين ترى الواحد منهم ليس بيده إلا

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٣٠).

حجر وتراه كالأسد يعدو خلف جندي مدجج بالسلاح وهو يهرب منه هروب الفأر من الأسد ... فأي عزة وأي شرف هذا.

الشاهد: أن سعدًا سأل النبي ﷺ ألا يحرم عُميرًا شرف الشهادة فأجازه النبي ﷺ فقاتل؛ فُقتل فكان شهيدًا وهو الذي لم ينعم بلذة في الحياة الدنيا مدخرًا إحساسه بالسعادة والحبور والحور والقصور حين يرى ما أعده الله تبارك وتعالى لعباده المخلصين من الأجر العظيم والنعيم المقيم.

نسأل الله أن يعيننا على تربية أولادنا وإعدادهم ليكونوا من أمثال هؤلاء حتى يكونوا أهلًا للاستخلاف في هذه الأرض وليكونوا بحقٍّ جيل التمكين الذي يرفع راية هذا الدين عالية خفاقة في كل زمان ومكان ويكون ذلك في ميزان حسناتنا لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[1]، قال أهل العلم من المفسرين أن الولد من كسب وسعي أبيه لعلنا نتدارك ما فاتنا من الطموح لخدمة هذا الدين لنعوضه في أولادنا.

❊ ❊ ❊

(١) سورة النجم: الآيات: (٣٩-٤١).

صبيان .. وقلوب رجال

ولا تزال الأمثلة على علو همة الصبيان تفوق الحصر فهذا طفل صغير من أطفال الأندلس في عمر أطفالنا الذين يلعبون في كل مكان ... يُرسل أحد الملوك عينًا له ليتجسس ويتحسس الأخبار عازمًا غزو بلاد الأندلس فلم يلفت نظره حينما دخل البلاد سوى بكاء هذا الطفل الصغير فسأله ماذا يُبكيك؟

أتدرون ماذا قال؟..لعل بعضكم يقول: لعله ضل الطريق ولم يجد أمه ولعل البعض الآخر يقول: لأنه فقد لُعبته والبعض يقول: لعله يشتكي مرضًا أو وجعًا ما.

لا هذا، ولا ذاك.

وإنما قال له بنظرة فيها من الإزدراء ما فيها: ما هذا الهراء؟ إنما أبكي لأنني كنت أضرب سهمًا فأصيب به عصفورين وأنا الآن أصبت به عصفورًا واحدًا.

فما كان من هذا الجاسوس إلا أن سأل نفسه إذا كان هذا هو حال الصبيان فكيف يكون حال الشباب والرجال؟!

فعلم يقينًا أن هذا الملك لا قبل له بملاقاة هؤلاء الرجال ولا صبر له ولا لجنده على مجالدتهم ... فعاد إلى الملك وقال له: أيها الملك ... لا طاقة لك بهؤلاء الآن ولكن انتظر حتى إذا دخلت عليهم الذنوب والمعاصي، فسوف تدخل تلك البلاد بلا حربٍ ولا خسائر ... وبالفعل

فبعد وقتٍ قصيرٍ جاء مَن جاء من بني العباس وأفتوا بتحليل الخمور من نقيع التمر وأفتوا بتحليل الغناء والموسيقى وانتشر الزنا؛ فأرسل هذا الملك جاسوسه مرة أخرى فوجد شابًا يبكي ويكاد ينفطر كبده من البكاء..فسأله ما الذي يبكيك؟

فأخبره أنه يبكي لفراق حبيبته ومعشوقته فعلم أن الوقت قد حان لالتهام هؤلاء لقمة سائغة لما حَلَّ بهم من الضعف والهوانِ بالبعد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

*** بادر قبل أن تُبادَر:**

والعاقل الواعي هو الذي يدرك أنه إذا أراد الوصول مبكرًا قبل الآخرين فليبدأ السباق مبكرًا ... فالعمر هو رأس مال العبد والذي إن ضاعت منه لحظة لا يمكنه أن يعوضها بكل كنوز الدنيا في الوقت الذي إن فقد فيه أي شيء من الماديات استطاع بشيء من الجهد ومع الوقت أن يعوضه بل وأكثر منه.

ولذلك لما لقي الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا غافلًا عن طاعة الله فسأله: كم عمرك؟ قال: ستون سنة.

فقال له: فإنك منذ ستين سنة تسير إلى الله توشك أن تلقاه؛ فكأن هذه الكلمة وقعت من الرجل موقعًا فمسَّت شغاف قلبه؛ فقال هذا الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون؛ فقال له الفضيل: أتعلم معناها؟ قال: أجل، أعلم أنِّي مِلكٌ لله وأني إليه راجع.

فقال له الفضيل: مَن علم أنه ملك لله وأنه إليه راجع فليعلم أنه بين يديه موقوف، ومن علم أنه بين يديه موقوف فليعلم أنه بين يديه مسئول،

ومن علم أنه بين يديه مسئول فليُعد للسؤال جوابه.

فقال الرجل بعد أن تملكت خشية الله من قلبه: وما الحيلة يا فضيل يرحمك الله؟

قال: أن تتقي الله فيما بقي من عمرك فيغفر الله لك ما قد مضى وما قد بقي.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

وتَحضرني بمناسبة هذه الآية قصة رجل قد بلغ من الكبر عتيًا وقد أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي فلم يدع بابًا إلى الحرام إلا طَرَقه ولا طريقًا إلى المعصية إلا سلكه؛ فجاء إلى النبي ﷺ فقال: إني قد عملت من الذنوب ما لو إن وُزِّع على أهل الأرض لأغرقهم جميعًا فهل يغفر الله لي؟ فقال النبي ﷺ: «**أَلَسْتَ تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله؛ فقال له ﷺ: «**قَدْ غُفِرَ لَكَ غَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ**»(٢)؛ فولى الرجل مكبرًا قائلًا: الله أكبر يغفر لي غدراتي وفجراتي فما يزال يكبر حتى غاب عن عيني الرسول ﷺ، والنبي يبتسم بأبي هو أمي وروحي ﷺ ولنا فيه القدوة والأسوة ... فهو الذي قال: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»(٣).

*** صقري قريش:**

وأخيرًا وليس آخرًا ومع مسك الختام وأروع الأمثلة في البذل والفداء

(١) سورة الفرقان: الآية: (٧٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٨٩٣٩).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٩) كتاب العلم، ومسلم (١٧٣٤) كتاب الجهاد والسير.

وعلو الهمة مع معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء وما كان من خبرهما كما جاء في صحيح البخاري من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إِنِّي لَفِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ إِذِ الْتَفَتُّ فَإِذَا عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَتَيَانِ حَدِيثَا السِّنِّ فَكَأَنِّي لَمْ آمَنْ بِمَكَانِهِمَا إِذْ قَالَ لِي أَحَدُهُمَا سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ يَا عَمِّ أَرِنِي أَبَا جَهْلٍ فَقُلْتُ يَا ابْنَ أَخِي وَمَا تَصْنَعُ بِهِ قَالَ عَاهَدْتُ اللهَ إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ فَقَالَ لِيَ الْآخَرُ سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ مِثْلَهُ قَالَ فَمَا سَرَّنِي أَنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَكَانَهُمَا فَأَشَرْتُ لَهُمَا إِلَيْهِ فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّى ضَرَبَاهُ»(١).

ثم ذهبا إلى النبي ﷺ يتسابقان يقول أحدهما: أنا الذي قتلت أبا جهل، ويقول الآخر: بل أنا الذي قتلته.

ففضَّ رسول الله ﷺ الاشتباك بينهما؛ فقال: **«هل مسحتما سيفيكما»**، قالا: لا، فنظر النبي ﷺ إلى السيفين فإذا دم الهالك أبي جهل على السيفين فقال ﷺ: **«كلاكما قتله»**.

ثم انقضَّ عبد الله بن مسعود على أبي جهل فقطع رقبته انتقامًا منه لما ألحقه بالمسلمين من إيذاء؛ فكانت نهاية هذا الكافر على يد غلامين من الأنصار.

ولا عجب فهما قد نشآ على حب الله وحب رسوله ﷺ والغيرة على انتهاك محارم الله أو النيل من رسوله ﷺ من قريب أو من بعيد ... ولقد كان لمعاذ بن عمرو بن الجموح دورًا فعالًا ومباشرًا في إسلام أبيه الذي كان يعبد صنمًا ضخمًا عند الكعبة اسمه «مناة».

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٩٨٨) كتاب المغازي.

وكان بيت عمرو بن الجموح بعيدًا عن الكعبة كما كان لا يستطيع الوصول إليها إلا بمشقة كبيرة فقد كان أعرجًا فرأى أن يعمل نسخة مصغرة من هذا الصنم ليضعها في بيته بدلًا من الذهاب إلى الكعبة ففكر ولده معاذ مع مجموعة من الشباب من أقرانه في طريقة يُدخلون بها هذا الشيخ المُسن -الذي بلغ الستين من عمره وشارف على الموت- في الإسلام فاحتالوا على سرقة هذا الصنم وألقوه مُنكس الرأس في بئر تُلقَي فيه النجاسات والمخلفات فلما أصبح عمرو يبحث عن إلهه فلم يجده فخرج من بيته هائمًا على وجهه فوجده على هذه الحال وقال: لئن علمت مَن فعل بك هذا لأُخزينَّه ... ثم نظَّفه وطيَّبه وأعاده إلى بيته مرة أخرى، ثم إذا كان من اليوم التالي فعل الشباب مثل فعلتهم الأولى فلم يتعب نفسه في البحث والتنقيب وإنما قصد البئر مباشرة وأعاده إلى البيت مرة ثانية ثم في المرة الثالثة ألهمه الله أن يأخذ سيفه ويضعه في رقبة هذا الصنم، وقال له: «لئن كنت إلهًا حقًا فادفع عن نفسك»؛ فأخذه الشباب وأخذوا السيف من حول رقبته ووضعوا مكانه سلسلة بها كلب ميت ووضعوه في البئر فنظر إليه عمرو وقال:

ربٌّ يبول الثعلبان برأسه	**لقد ذَلَّ من بالت عليه الثعالبُ**
فلو كان ربًا كان يمنع نفسه	**فلا خير في ربٍّ نأته المطالبُ**
برئت من الأصنام في الأرض كلها	**وآمنت بالله الذي هو غالبُ**

وسجد في محراب التوحيد وأسلم لله وآمن به واتبع رسوله ﷺ وكان له من الولد ستًا كلهم جاهدوا في سبيل الله وكان منهم معاذ الذي ذكرنا قصته قبل قليل وعلى الرغم من ذلك لم يكتفِ بتضحية أولاده وإنما أراد

المشاركة في غزوة أُحد؛ فوقف أبناؤه في سبيل ذلك، ومنعوه خشية عليه؛ فاشتكاهم إلى رسول الله ﷺ فقال له: أما أنت يا عمرو فلقد رفع الله عنك الجهاد؛ فقال له عمرو: إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة فتركه النبي ﷺ فشارك في المعركة فقُتل شهيدًا؛ فقال النبي ﷺ: «**يا عمرو لكأني أنظر إليك الآن وأنت تطأ بعرجتك هذه سليمة صحيحة في الجنة**».

انظر وتأمل حبيبي في الله كيف يكون الصبية الصغار سببًا في هداية آبائهم ودخولهم في رحمة الله ... فازرع الخير في أولادك في صغرهم تجنيه وتحصده منهم عند الكبر وقد صدق القائل حين قال:

وينشأ ناشئ الفتيان منَّا ... على ما كان عوَّده أبوهُ

وما دان الفتى بحجًا ولكن ... يُعوِّده التدين أقربوهُ

أسأل الله تعالى أن يعيننا وإياكم على تربية أولادنا على مائدة القرآن وسنة النبي العدنان ﷺ حتى يكونوا ذخرًا لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

❊ ❊ ❊

علو همة النساء

إهداء إلى كل أم وأخت من نسائنا ليتعلمن كيف كانت همة نساء الرعيل الأول من الصحابة الكرام ليسرن على دربهن لعلهن يُحشَرن معهن يوم القيامة فمن أحب قومًا حُشر معهم، والمحبة لا تكون بالادِّعاء وإنما تكون بالطاعة والولاء.

والمرأة بطبعها تميل بما عندها من العواطف الجيَّاشة والمشاعر الدافئة والفطرة السليمة إلى حب الدين والطاعة والأعمال الصالحة.

فتراها إن صدقت محبتها لله ولرسوله تبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل الوصول إلى رضا ربها ... ونضرب من الأمثال لعلو همة النساء ما لا يقل عن الرجال؛ فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»(١)، أي: يشاركنهن العمل الصالح إلا فيما خص الله به الرجال دون النساء كالجهاد في سبيل الله ولو أنهن خُلِّى بينهن وبين الجهاد لفعلن.

*** أولى أمهات المؤمنين:**

وليس أحدٌ أسبق إلى علو الهمة من النساء من هذا المثال الفريد من نوعه الذي لم ولن يجود الزمان بمثله ألا وهو ما كان من السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ... فهي أول من تزوج النبي ﷺ ... وهي التي ضربت أروع المثل في الوفاء والبذل والتضحية والعطاء فهي امرأة وبحق لا نبالغ

(١) صحيح: رواه الترمذي (١١٣) كتاب الطهارة، وأبو داود (٢٣٦) كتاب الطهارة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٣٣).

حين نقول: أنها لا نظير لها على وجه الأرض.

وكيف لا وهي التي ساندت النبي ﷺ حين تخلى عنه الناس وصدَّقته حين كذَّبه الناس مما جعله ﷺ يبادلها هذا الوفاء حتى بعد موتها؛ فكان يذكرها بكل خير بل أكثر من ذلك كان يحسن ويتعهد صديقاتها بالرعاية والعناية برًا ووفاءً لها ... ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: ما غرت من أحد من نساء النبي ﷺ كما غرت من خديجة.

يعلق الإمام الذهبي على هذه المسألة قائلًا: «أن هذا من لطف الله تعالى برسوله إذ لم تَغِر السيدة عائشة من أزواج النبي ﷺ الأحياء وإلا ثارت المشاكل التي لا تنتهي في بيت النبوة».

وحتى أنه من كثرة ثناء النبي ﷺ على السيدة خديجة أن عائشة رضي الله عنها قالت يومًا: «مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا قَالَتْ وَتَزَوَّجَنِي بَعْدَهَا بِثَلَاثِ سِنِينَ وَأَمَرَهُ رَبُّهُ عز وجل أَوْ جِبْرِيلُ عليه السلام أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ»[1].

وكانت السيدة خديجة مثالًا يُحتذى للزوجة التي تساند زوجها بكل ما أُوتيت من أسباب المساندة وقد بدأت منذ اللحظة الأولى التي عرفت فيها النبي ﷺ وما عليه من صدق وأمانة بأن تضع كل ما تملك تحت تصرف النبي ﷺ ... ولما نزل عليه الوحي ورأت ما أصابه من فزع لما عاينه من رؤية جبريل عليه السلام على هيئته التي خلقه الله عليها فلما أتاها يرتجف خائفًا مذعورًا وهو يقول: «زَمِّلُونِي .. زَمِّلُونِي».

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٨١٧) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة.

قالت له كلمات خالدة سطَّرها لها التاريخ بمدادٍ من نور ليتعلم نساؤنا كيف تكون مواساة المرأة لزوجها ولو بكلمة طيبة، قالت: «والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»، وكل هذه صفات تؤكد مكارم أخلاق النبي ﷺ قبل الرسالة.

وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فعلم أنه نبي آخر الزمان، وقال له: «يا ليتني كنت جذعًا -شابًا- حين يُخرجك قومك» فقال له النبي ﷺ: «**أَوَمُخرجيَّ هم؟**»، قال: «نعم..ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي»..والقصة معروفة، وقد ذكرها البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأكثر كتب السيرة المعتمدة.

الشاهد: أن السيدة خديجة كان لها من المواقف العجيبة التي ساندت فيها النبي ﷺ وواسته بنفسها ومالها في أحلك الظروف ... ومن ذلك ما كان منها حينما قاطعت كل القبائل رسول الله ﷺ ومَن تَبِعه من المؤمنين ... وحاصروهم في شِعب أبي طالب وظلوا قرابة الثلاث سنوات حتى أنهم أكلوا ورق الشجر فلم تتخلَّ عنه رضي الله عنها، وظلَّت معه في الشِّعب تعاني مما يُعاني على الرغم من استطاعتها النجاة بنفسها من ذلك ولكنه الوفاء المنقطع النظير.

وكانت الهدية من الله جل وعلا في اللحظات الأخيرة من حياة صاحبة الهمة العالية السيدة خديجة كما جاء عند الإمام مسلم أنها كانت خارج البيت مُقبلة على النبي ﷺ معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فنزل جبريل عليه السلام، وقال: «يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ وَمَعَهَا إِنَاءٌ

فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا ﷻ وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ»(١).

أتدرون ما معنى قصب؟

إنه اللؤلؤ المجوف الذي يمنع وصول الصوت إليه أو خروج الصوت منه مبالغة في الهدوء الذي يحيط بقصرها في الجنة.

أتدرون لماذا؟

قيل: أنها لم تدفع النبي ﷺ لأن يرفع صوته يومًا ما لكي يطلب منها شيئًا فكان الجزاء من جنس العمل، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾(٢)؛ فأين أزواجنا من هذا الخُلق العظيم؟ أين أنت من زوجك وما له من حقٍّ عليك.

*** ما للزوجة وما عليها:**

قال النبي ﷺ لعمة حصين بن محصن: «**أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ؟**»، قالت: أجل يا رسول الله، فقال: «**فَانْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ؟**»(٣).

ولذا يقول النبي ﷺ: «**إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ**»(٤).

ومما يوضح ما للزوج على زوجته من حقوق بأبلغ عبارة ما جاء في الصحيح من أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل عندما قدم إلى النبي ﷺ من

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٢١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) سورة الرحمن: الآية: (٦٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٨٥٢٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦١٢).

(٤) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٦٦٤)، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦١).

اليمن أو الشام، وقد رأى النصارى يسجدون لقساوستهم، وحكى ذلك للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا وَلَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا كُلَّهُ حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا عَلَيْهَا كُلَّهُ حَتَّى لَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ لَأَعْطَتْهُ**»(١)، ووعى ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال لامرأة حين سألته عن حق الزوج: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُعَاذٍ فِي يَدِهِ لَوْ أَنَّكِ تَرْجِعِينَ إِذَا رَجَعْتِ إِلَيْهِ فَوَجَدْتِ الْجُذَامَ قَدْ خَرَقَ لَحْمَهُ وَخَرَقَ مَنْخِرَيْهِ فَوَجَدْتِ مَنْخِرَيْهِ يَسِيلَانِ قَيْحًا وَدَمًا ثُمَّ أَلْقَمْتِيهِمَا فَاكِ لِكَيْ مَا تَبْلُغِي حَقَّهُ مَا بَلَغْتِ ذَلِكَ أَبَدًا**»(٢)..

إلى هذا الحد؟!

نعم..ولم ينسَ رسول الله ﷺ ما للنساء من حقوق فأوصى بهن خيرًا بل لقد كن آخر ما أوصى به قبل موته، فقال ﷺ: «**أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ**»(٣)، أي: أسيرات ... وقال ﷺ في حجة الوداع يوم عرفة آخر لقاء جمع بينه وبين الصحابة الكرام في جمع مهيب فكانت وصية مودع: «**اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ**»(٤)، وكان يقول: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»(٥).

---

(١) حسن صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١٨٩١٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٣٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢١٥٧٣).

(٣) حسن: رواه الترمذي (١١٦٣) كتاب الرضاع، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٢١٨) كتاب الحج.

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٩٥) كتاب المناقب، وابن ماجة (١٩٧٧) كتاب النكاح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣١٤).

* **امرأة فرعون:**

ومع مثال آخر لعلو الهمة مع آسية بنت مزاحم، وهي امرأة فرعون الذي ادعى الألوهية والربوبية فيما لم يفعله أحد غيره فقال عليه لعنة الله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[2]، وزُيِّن له سوء عمله وصُدَّ عن سبيل المهتدين وسام الناس سوء العذاب يقتل فريقًا منهم ويستحيي نساءهم فكان هلاكه على يد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي اصطنعه الله على عينه وألقى عليه محبة منه وهذا ما جعل امرأة فرعون حينما رأته امتلأ قلبها بحبه وقالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[3].. وقرة العين ما تستقر العين عليه وتأنس به ولا ترضى عنه بديلًا.

وقيل: هدى الله امرأة فرعون بسبب حبها لموسى ولم يهد الله فرعون بسبب بغضه لموسى.

* **ولكن كيف آمنت امرأة فرعون؟**

ذلك لنعلم أن الله تعالى إذا أراد أمرًا هيَّأ أسبابه ... وتفصيل ذلك أن ماشطة ابنة فرعون لما وقع المشط منها على الأرض أخذته وقالت: باسم الله؛ فقالت ابنة فرعون: الله ... أبي؟ فقالت الماشطة: كلا..إنما الله ربي وربك و رب فرعون.

فأسرعت البنت إلى أبيها وقصَّت عليه الخبر، فأتى بها فرعون وقال لها: ألك إله غيري؟ قالت: نعم..ربي وربك الله.

---

(١) سورة النازعات: الآية: (٢٤).

(٢) سورة القصص: الآية: (٣٨).

(٣) سورة القصص: الآية: (٩).

فما كان من فرعون الطاغية إلا أن استعمل وسيلة من أشد وسائل التعذيب وهى عبارة عن بقرة مصنوعة من النحاس.

* فأمر بإشعال النار من تحتها حتى حميت وأصبحت كأنها جمرة من النار ثم أمر بإلقاء أولاد هذه المرأة المؤمنة فى تلك البقرة النحاسية.

* ولكنه قبل أن يُلقى أولادها فى تلك البقرة النحاسية التى أصبحت كالفرن المشتعل طلب منها أن ترجع عن دينها وأن تعبده هو مرة أخرى فرفضت وقالت: لا أعبد إلا الله.

* وبدأ فرعون الطاغية يأمر الجنود بإلقاء أولادها واحدًا بعد الآخر... والأم تنظر إلى أولادها وتبكى لكنها ترفض أن تكفر بالله.. وترجو أن يجمع الله بينها وبين أولادها فى الجنة.

* وكادت هذه المرأة أن ينخلع قلبها وهى ترى أولادها يموتون أمام عينيها تلك الميتة البشعة.

* وبعد قتل أولادها لم يبق إلا طفل رضيع كان يرضع من ثديها فى تلك اللحظة فجاء الجنود بكل قسوة فنزعوه من على صدرها فرقَّ قلب هذه المرأة وتألمت ألمًا شديدًا عندما أرادوا أن يقذفوا هذا الطفل الرضيع فى تلك البقرة النحاسية المشتعلة وكادت أن تُفتن وترجع عن دينها فثبتها الله بمعجزة لا تخطر على قلب بشر.

فقد أنطق الله هذا الطفل الرضيع فقال لأمه: يا أُمه اقتحمى فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

* فأخذ الجنود هذا الطفل وألقوه فى البقرة النحاسية المشتعلة فمات.

* وهنا طلبت الماشطة من فرعون طلبًا وقالت له: إن لى إليك حاجة.

قال فرعون: وما حاجتك؟

قالت: أتمنى أن تجمع عظامى وعظام أولادى فى ثوب واحد وتدفننا.

فوافق فرعون.

واقتحمت الماشطة ونزلت فى تلك البقرة النحاسية المشتعلة فماتت..

وأمر فرعون جنوده أن يجمعوا عظام هذه المرأة وأولادها فى ثوب واحد وأن يدفنوهم فى قبر واحد.

وكانت رائحة الشواء تفوح من عظام المرأة وأولادها فأكرمها الله -جل وعلا- بأن جعل لها ولأولادها عطرًا جميلاً يفوح فى السماوات السبع ليشم النبى ﷺ تلك الرائحة فى رحلة الإسراء والمعراج.

* نرجع إلى الحديث عن آسية بنت مزاحم امرأة فرعون التي ضرب الله تعالى بها المثل في القرآن صراحة وشهد لها من فوق سبع سموات بالإيمان ... وكفى بالله شهيدًا كما شهد لها النبي ﷺ بالكمال فقال: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»(١).

وكيف لا وقد سامها فرعون سوء العذاب ولم يُراعِ أنها كانت في يوم من الأيام زوجته التي طالما أحبها، فلما صبرت واحتسبت استجاب الله

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤١١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٤٣١) كتاب فضائل الصحابة.

دعاءها فأراها مقعدها من الجنة وهي لا تزال في الدنيا تسلية لها ومواساة على ما لاقته من هذا اللعين.

ومن الأمور العجيبة التي تُلفت الأنظار وبشدة في قصة كفاح هذه المرأة المجاهدة أن الله تعالى قيَّض لها ملائكة تُظلها بأجنحتها من حَرِّ الظهيرة المحرق الذي ألقاها فيه فرعون -عليه من الله ما يستحق-، فإنه لما يئس فرعون من رجوع زوجته عن دينها وأعيته الحيل في إرغامها على ذلك، أمر جنوده أن يضربوا رأسها بحجر كبير ليتخلص منها، فإذا بها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تبتسم وهي تُلقَى بالحجارة!!

فظنوا أنها جُنَّت، ولكن الله جل وعلا رفع لها بيتها في الجنة فلما رأته تبسمت؛ إنها البشرى وحسن الخاتمة؛ فإذا كان العبد مع ربه وضاقت به السُّبل في هذه الحياة الدنيا وأخذ بكل أسبابها، فلم تُفلح ولم تُجد نفعًا..جاء الدور لأسباب السماء والعناية الإلهية فيأتيه الفرج من الله رب العالمين.

فلا تعجب بعد كل ما تقدم من مناقب هذه السيدة الفاضلة أن يصفها رسول الله ﷺ بالكمال، وكيف لا وهي التي وصلت بها الهمة العالية إلى الدرجة التي جعلتها تزهد في مُلك فرعون وما كانت فيه من الثراء الفاحش والنعيم، وذلك بمقاييس الدنيا، فلقد كان فرعون وقتها من أعظم ملوك الدنيا وكان يمتلك ثروة لا تُقَدَّر بمالٍ ولا تخطر على عقل وقلب بشر.

ناهيك عن أنه كان يُنصِّب نفسه ربًا بل وإلهًا من دون الله، وكان الناس من سفههم وجهلهم يعبدونه ويطيعون أوامره، قال جل وعلا:

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[1].

وعلى الرغم من كل ذلك تركت هذه المؤمنة القانتة العابدة كل هذا الثراء والملك طائعة مختارة مفضلة جوار ربها راغبة فيما عنده من النعيم المقيم الذي لا ينفد أبدًا ... وكان الجزاء من جنس العمل.

فخلَّد الله تعالى ذكرها في كتابه العزيز الذي يتعبد الناس بتلاوته ليلًا ونهارًا.

فأين أنت أختي الفاضلة من الثبات على الدين؟

فقد تكون الأخت مثلًا قد هداها الله تعالى لارتداء الخمار، أو النقاب، ثم تراها سرعان ما تخلعه؛ لا لشيء إلا لأن أهلها وقفوا في طريقها وضيَّقوا عليها الخناق، أو لأن زوجها أمرها أن تخلعه.

اعلمي أختي الكريمة أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق سبحانه وتعالى، واعلمي أن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، فكوني كهؤلاء الصحابيات الجليلات والمؤمنات العابدات اللواتي يُضرَب بهن المثل في البذل والتضحية وهن يرفعن شعارًا واحدًا هو «الثبات حتى الممات».

فلو كان النساء كمن ذكرنا ... لفُضِّلت النساء على الرجالِ

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ... وما التذكير فخرٌ للهلالِ

* * *

(١) سورة الزخرف: الآية: (٥٤).

همة تعانق السماء

ولا يفوتنا حين نتحدث عن علو الهمة فيما يتعلق بالنساء أن ندخل في بستان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نقطف منه أجمل الزهور ونشم منه أزكى العطور، وكفى بها منقبة أن النبي ﷺ عندما سُئل مَن أحب الناس إليك، قال: «عائشة»، قيل له: ومن الرجال؟ قال: «أبوها»(١).

فيا له من فضل لا يدانيه فضل وشرف لا يساويه شرف، ولقد قال أيضًا ﷺ: **«فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ(٢) عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»**(٣).

ولقد عقد النبي ﷺ على السيدة عائشة رضي الله عنها حين بلغت من العمر ست سنين ودخل بها وهي بنت التاسعة، وعاش معها تسع سنوات ومات ولها من العمر ثمانية عشر عامًا.

وهناك شبهة يثيرها المستشرقون في مسألة زواج النبي ﷺ بعائشة وهي أنه كيف تزوجها النبي ﷺ وهي في هذا السن؟ ... ويُرد عليهم بأن هذا السن في هذا الزمان منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام هو السن المناسب للزواج حيث تنضج البنت ولاسيما في الأجواء الحارة -كأجواء مكة- في سنٍّ مبكرة، ولماذا نذهب بعيدًا؟

سَلْ جدك وجدتك كم كان عمرها حين تزوجت؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٢) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) الثريد: طعام شهي جميل كان يحبه النبي ﷺ.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

ولقد سألت عمة لي بالفعل..كم كان عمرك عند زواجك؟ وكانت قد بلغت التسعين من العمر؟

فقالت: تزوجت وعندي إحدى عشر سنة ... هذا منذ مائة عام فما بالكم ونحن نتكلم عن ألفٍ وأربعمائة عام وأكثر؟!!

الشاهد: أن السيدة عائشة رضي الله عنها عاشت مع النبي ﷺ تسع سنوات تعلمت فيها ما عجز الكثيرون من كبار الصحابة من رجالها ونسائها عن تعلُّمِه، وكيف لا وهي التي عاشت لحظات نزول الوحي عليه السلام لحظة بلحظة حتى سُمِّي بيت عائشة «بيت الوحي» ولذلك لما ذهبت السيدة أم سلمة تشتكي عائشة لرسول الله ﷺ قال لها: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا**»(١).

ولذا ملأت السيدة عائشة الدنيا علمًا ولاسيما بسنة النبي ﷺ العملية وعباداته وعاداته، ومَدَّ الله تعالى في عمرها رضي الله عنها فعاشت بعد موته ﷺ سبعًا وأربعين عامًا نشرت فيها العلم والسنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ فهي بحق يَصْدُق عليها وصف المرأة العالمة والداعية النجيبة.

ولذلك يقول الإمام الزهري: «والله لو جُمع علم النساء جميعًا لفَضُل عليه علم عائشة، أو لكان علم عائشة أوسع منهن جميعًا».

ويقول مسروق: «والله لقد رأيت مشايخ أصحاب النبي ﷺ -أي علماء الصحابة وكبارهم- يسألون عائشة عن الفرائض».

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٧٧٥) كتاب المناقب.

وذلك معناه: أنهم كانوا إذا توقفوا في مسألة من مسائل العلم سألوا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي التي روت عن رسول الله ﷺ أكثر من خمسة آلاف حديث، رضي الله عناه وأرضاها وجعل الفردوس مثواها، وحشرنا مع زوجها ونبينا محمد ﷺ في أعلى درجات الجنان.

والسؤال لا يزال مطروحًا، وإليك أختي الكريمة أوجهه: أين أنت من تلك الهمة العالية في طلب العلم؟ فهذا أمر في غاية الأهمية والخطورة، وإلا فإن رب العزة (جل وعلا) ما أمر نبيه ﷺ أن يستزيد من شيء إلا من طلب العلم، فلم يقل: وقل رب زدني مالًا، أو صحة، أو قوة، أو جمالًا، وإنما قال جل وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] .

ذلك لأن العلم هو سلاح المؤمن الذي به يتعبد الله جل وعلا، ويعرف الحلال والحرام، فمَن عَبَدَ الله على جهل فكأنما عصاه، ومن المؤسف وأقولها والقلب يمتلئ حسرة أن كثيرًا من النساء لا يعلمن حتى فقه العبادات من الطهارة والحيض والنفاس وغير ذلك من فروض الأعيان التي يجب أن تتعلمها كل مسلمة لتصحَّ بها عبادتها، فقد تُصلي بغير طهارة أو ظانَّة أنها على طهارة وهي ليست كذلك، وقد تصوم في وقت يحرم فيه الصيام أو غير ذلك من الأمور التي تقع فيها بسبب قلة علمها.

فهي للأسف الشديد لا تتعلم ولا تسعى لأن تتعلم؛ فكيف لها بذلك أن تصل إلى رضا ربها بطاعته، والبعد عن معاصيه إلا بأن تعلم ما أمرها

(١) سورة طه: الآية: (١١٤).

به في كتابه فتمتثل الأمر وما نهاها عنه فتكون أبعد الناس عنه، ثم إذا هي تعلمت العلم وعملت به وجب عليها أن تنشره بين أخواتها ليكون ذلك في ميزان حسناتها ويعود خيره عليها في الدنيا قبل الآخرة.

*** زينب أم المؤمنين:**

وهاهي زينب بنت جحش العابدة الزاهدة صاحبة أعلى الهمم في العبادة والبذل والإنفاق في سبيل الله، والتي كانت ابنة عمة النبي ﷺ وكانت امرأة حسيبة نَسيبة وضيئة غنية يتمناها سادة القوم في قريش؛ فأراد النبي ﷺ أن يزوجها من سيدنا زيد بن حارثة حِب رسول الله ﷺ؛ فرفضت في بادئ الأمر، لأنها من علية القوم وهو من الموالي، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(١).

وكانت من الوقَّافين عند الحق فابتدرت الأمر طائعة لله تعالى ولرسوله ﷺ؛ فقالت له: أترضاه زوجًا لي يا رسول الله؟ قال: أجل.

فقالت: إذًا فقد رضيت بما رضيه لي رسول الله ﷺ..وتزوجت من زيد ثم نشبت بينهما الخلافات كما يحدث بين أي زوجين فطلقها بعد سنة من زواجهما، وكان الجزاء من جنس العمل.

إذ أنها أطاعت أمر الله ورسوله ﷺ؛ فجاءت المفاجأة التي لم تخطر لها ببال؛ ونزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾(٢).

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٣٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٣٧).

فجاء الأمر بتزويجها من رسول الله ﷺ من عند الملك جل وعلا.

ولذا جاء عند البخاري أنها كانت تتفاخر على سائر نساء النبي ﷺ قائلة لهن: «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»(١).

ولقد كانت رضي الله عنها ممن يُضرب بهن المثل في العبادة بما لا يخطر على قلب بشر، لدرجة أنها من شدة حرصها على الطاعة والتقرب إلى الله ربطت حبلًا بين جدارين تتعلق به عند قيامها بالليل إذا فترت قدماها وأحسَّت بالإعياء، فلما دخل النبي ﷺ ورآه، قال: «**مَا هَذَا الْحَبْلُ؟**» قالوا: لزينب.. تصلي فإذا فترت استندت عليه، قال ﷺ: «**لَا.. حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»(٢).

إلى هذا الحد كان حرصها على قيام الليل؟ نعم.. وكيف لا وهي زوجة من كان يقوم بالليل حتى تتفطر قدماه، ولما سُئل لماذا يفعل ذلك وقد غُفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(٣).

فلقد كان قدوتها وأسوتها الذي تسير خلفه وتهتدي بهداه ﷺ ... وفوق ذلك فقد كانت من أكثر الناس إنفاقًا لمالها في سبيل الله تعالى، كما وَرَدَ أنه ﷺ كان مع زوجاته فقال: «**أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ**

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٤٢٠) كتاب التوحيد.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١١٥٠) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٨٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧١) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

يَدًا»(١)؛ ففهم أزواجه أن معنى ذلك طول اليد التي هي الجارحة؛ فأخذن يقِسن أيديهن فوجدهن أطولهن يدًا سودة بنت زمعة ﵄؛ فظنوا أنها ستكون أول من يلحق بالنبي ﷺ بعد موته.

فلما كانت زينب بنت جحش هي أول من مات بعده، قالت عائشة: «فعلمنا مقصود النبي ﷺ أن طول اليد في النفقة والصدقة على الفقراء والمساكين».

فهي ﵄ لم تدع بابًا للصدقة والإنفاق إلا وجادت فيه وسارعت إليه.

والشاهد: أن الاجتهاد في العبادة يولِّد في الإنسان زهدًا يتولد عنه المسارعة إلى النفقة والإيثار والصدقة والإحسان إلى الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل مما يتقرب به العبد إلى ربه (جل وعلا).

وكما قلنا من قبل أن من أراد المنزلة العليا في جنة الرحمن لابد أن يكون في أعلى منزلة في طلب العلم والعبادة والدعوة إلى الله تعالى وفي البذل والتضحية والنفقة في وجوه الخير وغير ذلك مما يوصل إلى أعلى الدرجات، والموفَّق مَن وفقه الله ... والمحروم من حرمه الله الخير والتوفيق إليه، ولا يظلم ربك أحدًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

فاختر لنفسك مع أي الفريقين تكون -أخي في الله-، واختاري لنفسك مع أي الفريقين تكونين أختي في الله.

أفي حزب الرحمن وعباده المتقين فتفوزين بسعادة الدارين.

أو في حزب الشيطان والعياذ بالله.. عافانا الله وإياكم من أن نكون

(١) صحيح: رواه البخاري (١٤٢٠) كتاب الزكاة، ومسلم (٢٤٥٢) كتاب فضائل الصحابة.

منهم ورزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح وتوفانا على الإيمان الكامل حتى نلقاه جل وعلا وهو عنا راض..إنه ولي ذلك والقادر عليه.

*** صبرًا آل ياسر:**

ولقد كنا تكلمنا قبل ذلك على سبيل الإيجاز والإجمال عن أول شهيدة في الإسلام ... السيدة «سمية» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم عمار بن ياسر، والآن نتعرض لسيرتها وما كان من خبرها بشيء من التفصيل علّنا نجد ضالتنا في السبل الموصلة إلى أعلى درجات الجنان والبذل والتضحية والفداء والثبات على الحق حتى الرمق الأخير.

لقد كان سيدنا ياسر وزوجه سمية وولده عمار غرباء عن قريش فلما دخلوا في الإسلام، ساهم الجميع في تعذيبهم والتنكيل بهم، فكان القوم يعذبون سيدنا ياسر وزوجه السيدة سمية بكل ألوان التعذيب وذلك على مرأى ومسمع من ولدهما عمار.

ولك أن تتخيل مدى الإيلام النفسي والمعاناة التي قاستها هذه الأسرة المسلمة، حتى أن أبا جهل عليه من الله ما يستحق، أمر السيدة سمية أن تكفر بالنبي ﷺ فرفضت فأمرها أن تَسُبَّه فرفضت أيضًا فسامها سوء العذاب حتى ضربها برمحه في موطن عفتها أمام ولدها عمار؛ فخرَّت صريعة شهيدة في سبيل الله تعالى فصارت مثلًا يُضرب في الصبر واليقين والثبات على الدين والتوكل على رب العالمين، ثم لحقها زوجها ياسر بعد ذلك إثر تعذيب القوم له من أجل أن يترك هذا الدين ولكنه صبر على العذاب حتى الموت ... وكيف لا يصبرون على إيذاء قريش ويستعذبون العذاب في سبيل الله وقد بشرهم النبي ﷺ

بالجنة ... فلقد كان يمر عليهم وهم يُعذَّبون فيقول لهم: «**صَبْرًا آلَ يَاسِرِ فَإِنَّ مَوْعِدُكُم الْجَنَّة**»[١] ..كان هذا مما يسليهم ويُنسيهم كل بلاء وإيذاء.

ولكن حينما اشتد العذاب على عمار بن ياسر ليقول كلمة في حق النبي ﷺ اضطر لذلك كما اضطر أن يقول كلمة يمدح فيها اللات والعزى ففعل فأطلقوه؛ فذهب إلى النبي ﷺ يبكي فسأله ﷺ: «**ما بك يا عمار؟**» قال: شَرٌّ يا رسول الله؛ فما زالوا يعذبونني حتى نلتُ منك؛ فقال النبي ﷺ وهو يبتسم: «**وكيف تجد قلبك يا عمار؟**»، قال: مطمئنٌ بالإيمان، قال: «**فإن عادوا فعُدْ**»؛ فنزل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٢].

فهذه المرأة وأمثالها لنماذج عظيمة للثبات على دين الله والتضحية والفداء لرفعة وعلو شأن هذا الدين ... وليعلم الجميع أن الإمامة في الدين لا تُنال إلا بالصبر واليقين وأن هذه الأمة لا تزال بخير إلى قيام الساعة ولا سيما إذا كان فيها من يحمل هم هذا الدين ويعمل جاهدًا في سبيل نشره بالكلمة الطيبة والعمل الصالح لنكون وبحق كما قال ربنا جل في علاه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٣].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٣/ ٤٣٢ رقم: ٥٦٤٦)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ١٠٣).

(٢) سورة النحل: الآية: (١٠٦).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١١٠).

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

* * *

نساء صدقن ما عاهدن

ولا تزال الأمثلة على علو همة النساء نابضة بالحياة لتدلل وبقوة على أن علو الهمة ليس حكرًا على الرجال والشباب والصبيان وحسب وأن للنساء صولات وجولات في هذا المضمار.

*** أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين):**

وإذا ذكر علو الهمة ذكرت «ذات النطاقين» أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي كانت في شهرها السابع ومع ذلك كانت تحمل الطعام إلى النبي ﷺ وإلى أبيها في الغار مُعرِّضة نفسها لفقد جنينها وما يستتبعه ذلك من أعراض ناهيك عن الحر الشديد الذي قاسته وهي تحمل الطعام إلى النبي ﷺ وأبيها أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد شقَّت نطاقها نصفين لتحمل فيهما الطعام وتصعد إلى الغار لتوصله إليهما ولقد عُمِّرت حتى زمن الحجَّاج ابن يوسف الثقفي حتى قيل أنها بلغت السابعة والتسعين من عمرها ولم يُنكَر لها عقل ولم تَخْرُف بل ظلت حتى آخر لحظة من حياتها طائعة لله عَزَّ وَجَلَّ مضحية في سبيله بكل غالٍ ونفيس.

*** نسيبة..أم عمارة:**

ومع القمة السامقة التي لا تدانيها قمة في البذل والتضحية والفداء ... مع الصحابية الجليلة نسيبة أم عمارة والتي بلغت من العمر ستين سنة ولم يمنعها ذلك أن تخرج مع زوجها وأولادها جميعًا للجهاد في سبيل الله في غزوة أُحد ... تلك الغزوة التي تَعرض فيها النبي ﷺ لما لم يتعرض له في غزوة قبلها ولا بعدها فلقد كُسرت رباعيته -مقدمة

أسنانه- وأُدخل المِغفر وهو عبارة عن قطعة من الحديد في وجنتيه الشريفتين، وشُجَّ رأسه الشريف حين وقع في إحدى الحفر التي حفرها له الشقي ابن أبي قمئة حتى أُشيع أنه قُتل ﷺ؛ فتفرقت صفوف المسلمين وهرب مَن هَرب والنبي ﷺ ينادي عليهم؛ فلما رأت السيدة نسيبة ما حدث وسمعت مقالة النبي ﷺ فنادت عليهم أن ادفعوا عن رسول الله ﷺ فاجتمع عنده سبع رجال من الأنصار واثنان من المهاجرين وانضمت إليهم هذه الفدائية الرائعة ذات الستين عامًا وأخذت سيفًا وراحت تدافع عن النبي ﷺ حتى قيل أنها ضُربت أكثر من اثنتي عشرة ضربة بالسيف منها ضربة قاتلة غارت في كتفها فظلت سنة كاملة تعالجها حتى قُطع جزء من يدها وكانت على أتم الاستعداد أن تجود بنفسها لا بذراعها فحسب في سبيل الله ودفاعًا عن رسولها ﷺ، ولقد قيل أنها عُمِّرت حتى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان الناس يضحكون من ذراعها فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عمر فاشتد ذلك عليه وجمع الناس وقال لهم: «أتضحكون من امرأة سبقها بعضها إلى الجنة».

فعلم الناس ما لهذه المرأة من شأنٍ، وقدروها قدرها ... فأين أنتن يا نساء المسلمين من هذه المرأة وأمثالها فإذا قلنا لإحداكن ماذا قدمت لدين الله؟

فماذا تكون إجابتك فإن الإسلام لم يأمركن بما لا تطقن، وإنما أمركن بأشياء تحفظ عليكن أموالكن وأعراضكن وتضمن للأمة السلامة والعافية.

فالمرأة نصف المجتمع وهي تلد النصف الآخر فإن استقامت استقام

المجتمع كله وإن اعوجَّت اعوجَّ المجتمع كله؛ فإن أرادت المرأة الصادقة أن تقدم شيئًا لدينها فلا أقل من أن تتمسك بكتاب ربها وسنة نبيها فترتدي حجابها وتصون نفسها مغلقة بذلك باب الفتنة على غيرها من الشباب الذي يحاصر بين شِقَّي رَحى .... بين إعلام لا يرحم فهو يعرض الفتن ليل نهار، وبين دُعاةٍ للفتنة لا يقر لهم قرار ولا ينام لهم جفن حتى يصرفوا الناس عن دينهم فيصيرون بلا هوية كالبهائم العجماء التي لا تعرف من أين أتت وإلى أين تذهب فيسهل القضاء عليهم فاختاري لنفسك أختي في الله إما أن تكوني معول بناءٍ لهذه الأمة وإما أن تكوني معول هدم لها.

متىٰ يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبني وغيرك يهدم

*** أم شريك:**

ومع نموذج آخر لعلو همة النساء ... مع الصحابية الجليلة التي أسلمت مع بزوغ أول فجرٍ للإسلام بمكة، وهي أم شريك وكانت من أوائل النساء اللاتي بدأن في الدعوة السرية إلى الإسلام فكانت كلما دخلت بيتًا من بيوت مكة ووجدت أرضًا خصبة لدعوتها أفصحت وأعلنت عن إسلامها وبدأت تحدث النساء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وعن الإسلام وما يدعو إليه من الأخلاق الحميدة والمبادئ السامية.

فأسلم على يديها عدد كبير من نساء مكة؛ فلما عرف أزواجهن بإسلامهن سألوهن عن كيفية حدوث ذلك، فعلموا أنها أم شريك، فجاءوا بها ولولا أن لها عُصبة وقبيلة قوية ذات شوكة لقتلوها، ولكنهم

اكتفوا بتعذيبها، وأرادوا إعادتها إلى قبيلتها ولكن بعد أن يُنزلوا بها قسطًا من العذاب.

فوضعوها على جمل بلا رحل، أي على سنام الجمل مباشرة وأصعدوها الجبل وفي ذلك ما فيه من المشقة والألم.

كما حرموها من الطعام والشراب لمدة ثلاثة أيام حتى وصل بها الجهد مبلغًا، فلما أناخوا رحالهم ليأخذوا قسطًا من الراحة؛ فأكلوا وشربوا وتركوها تعاني الجوع والعطش والحر الشديد، وما أدراك ما حر مكة.

تقول أم شريك: فأحسست أني أحتضر، وفجأة على حين غفوة مني، شعرت أن شيئًا ينزل بجانبي فنظرت فإذا بدلوٍ مليء بالماء فأخذته وشربت منه، ثم تركته ثم شربت منه ثانية، ثم تركته ثم شربت منه ثالثة، وصببت بقيته على جسدي.

فلما همَّ القوم بالانصراف لاستئناف سيرهم نظروا إليَّ فإذا بي وقد ارتويت وغمرت جسدي بالماء، فقالوا مندهشين: من أين لك بالماء؟ من المؤكد أنك نزلت من فوق الجمل وفتحتي رحالنا وأخذتي الماء ثم عُدتي أدراجك مرة أخرى.

فقالت: لا والله إنما أطعمني الله وسقاني، فقالوا لها: إن كنت صادقة فيما تقولين، فلا شك أنك على الدين الحق، فلما رجعوا إلى رحالهم وأسقيتهم وجدوها كما هي.. فعلموا يقينًا أنها على الحق فأسلموا جميعًا، وأعادوها إلى مكة مرة أخرى وخلوا بينها وبين دعوتها إلى الله تعالى.

نقول هذا الكلام لأختنا الفاضلة التي لا تطيق صبراً على المواظبة على الصلوات المفروضات في أول وقتها؛ لا أقول قيام الليل ... وإلى التي لا تطيق ارتداء الحجاب فتنزعه بسبب الحر الشديد، فنار جهنم أشد حرًّا ورب الكعبة، ونقول ذلك للأخت التي لا يمكنها حتى اليوم أن تتصف بصفة التواضع وحسن الخلق فتُقبِّل يد أبيها ويد أمها، وتصبر على هذه المجَاهدة التي هي طريق النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

ونحن لا نسوق هذه الأمثلة للتسلية ومصمصة الشفاه وتقليب الأيدي، وإنما لتكون لنا ومضة على طريق الوصول إلى الله جل وعلا؛ فأنت أختي الفاضلة، سلي نفسك سؤالًا واحدًا مباشرًا وكوني صادقة مع نفسك: ماذا قدمت لدين الله؟

كم مرة أمرتِ بمعروف، أو نهيت عن منكر.

ما عدد الأخوات اللاتي اهتدين على يديك ليكُنَّ في ميزان حسناتك إن قصرت في العبادة والطاعة؛ فيكون ذلك تعويضًا عن تفريطك، وهو ما يسمى بالتأمين على العبادة، فالدالُّ على الخير كفاعله، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سُنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن يُنقص من أجورهم شيئًا.

فاجعلي حياتك وما تملكين وقفًا لله تعالى، واستعملي في سبيل الدعوة إلى الله كل أسلوب جميل تصلين به إلى قلوب الآخرين بكلمة طيبة أو بسمة جميلة أو لمسة حانية أو هدية بسيطة؛ فكل ذلك يكون له وقعٌ طيب مؤثر في قلوب من تدعينهم إلى الله تعالى..قال (جل وعلا):

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[١].

واعلمي يقينًا أختي في الله أن هذا الطريق هو طريق الأنبياء والمرسلين والصالحين، وهو محفوف بالابتلاءات والاختبارات، ولذا قال جل وعلا على لسان لقمان وهو يعظ ابنه ليعلم الدعاة إلى الله من بعده: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[٢].

فطالما أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلابد أن تتحمل الأذى في سبيل تبليغ كلام الله وسنة رسوله إلى الناس، ولا يصبر على ذلك إلا من ابتغى الأجر من الله وحده وكانت دعوته خالصة لا يبتغي بها إلا وجه الله تعالى، ومن ثَم لا يخشى في الله لومة لائم، وسوف يجد ذلك عند الله تعالى في ميزان حسناته، فما من شيء يضيع سُدى، وإنما يجد العبد ما قدم يوم القيامة بلا زيادة ولا نقصان، قال (جل وعلا): ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[٣]، وقال (جل وعلا): ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾[٤].

ولذلك نؤكد على أن الإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى هو السبيل الأكيد لنجاحها بإذن الله رب العالمين.

---

(١) سورة النحل: الآية: (١٢٥).

(٢) سورة لقمان: الآية: (١٧).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٤٧).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٣٩).

فما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل؛ فابذلي أختي في الله واعلمي أن ما تضحين به سيكون لك زُخرًا يوم القيامة، وإذا ما رأيت ما أعده الله تعالى لك من الأجر في مقابِله؛ لتمنيتي أن لو بذلتي أضعافه، فالفرصة لا زالت سانحة لتدارك ما فات والمضي قُدُمًا نحو المعالي والقمم العالية.

*** أم سليم:**

ومن الأمثلة على علو الهمة والبذل والتضحية كذلك، الصحابية الجليلة أم سُليم وهي أم أنس بن مالك ﵁؛ ماذا كان منها؟

لما قَدِم النبي ﷺ إلى المدينة فأقبل إليه أهلها من الأنصار، فما من واحد منهم إلا وأهدى إلى النبي ﷺ هدية.

وكانت أم سليم ﵂ من الفقر بحيث لم تجد ما تُهديه إلى رسول الله ﷺ؛ فأخذت ولدها أنس وكان عمره وقتها عشر سنوات، فقالت: يا رسول الله أُقدِّم لك ولدي أنس هدية ليكون خادمًا لك.

فقبل النبي ﷺ هديتها ... فطلبت أم سليم من النبي ﷺ أن يدعو لأنس.

فدعا له النبي ﷺ بثلاث دعوات، قال: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**»(١).

فأصابته دعوة النبي ﷺ فعاش أكثر من مائة سنة حتى أنه أدرك زمن الحجَّاج وعاصر التابعين وتابعي التابعين، وأكثر الله ماله وولده حتى أنه

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣٨٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٦٦٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

قال: «لقد أخبرتني ابنتي أنه قد دُفن لي من صُلبي أكثر من مائة ولد»، وذلك حتى مقدم الحجاج وهو حَيٌّ يُرزَق ... وذلك ببركة دعوة النبي ﷺ.

الشاهد من الموضوع: أن لما مات مالك أبو أنس، تقدم أبو طلحة الأنصاري -وكان مشركًا وقتها- لخطبة أم سليم، وكان من أكثر الأنصار مالًا، فأرسلت إليه أنها لا تريد مالًا وإنما إذا أسلم فهذا مهرها..انظروا إلى العفاف وحسن الدين.

فظن أنها تريد مالًا أكثر من الذي عرضه عليها، فغاب فترة من الزمن ثم عاود الكَرَّة مرة أخرى وضاعف المهر، فردَّت عليه بمثل ما قالته في المرة الأولى فعلم أنه يتعامل مع امرأة لا ينبغي أن يفرط فيها بعد أن علم ما هي عليه من المبادئ وعزة النفس، فقال لها: وكيف لي بالإسلام؟ فقالت: تذهب إلى رسول الله ﷺ فتشهد الشهادتين وتُسْلِم بين يديه، فلما أقبل أبو طلحة إلى مسجد النبي ﷺ قال النبي ﷺ: لصحابته -وانظر إلى فراسته ﷺ- فبمجرد أن رآه، قال: «**جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه**»؛ فدخل أبو طلحة فأسلم عند النبي ﷺ ... يقول الراوي: فكان مهرها: الإسلام، فما أعلم امرأة كانت أعظم مهرًا من أم سليم[1].

ولا يختلف اثنان على أنه ليس من الإنصاف أن نضع امرأة من هذا الزمان في مقارنة مع أم سليم وما كان منها، فهي لم تطلب ذهبًا بكذا وكذا ولم تطلب من الأثاث والأقمشة والزينة مهرًا لها كما تفعل الكثيرات من

---

(١) رواه النسائي (٣٣٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٦٥ رقم: ٧٣٨١) انظر أحكام الجنائز للعلامة الألباني رحمه الله (١/ ٢٤).

النساء في هذه الأيام ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ونقول لهن ولأولياء الأمور منهن: اتقوا الله في الشباب وترفَّقوا بأحوالهم، فأنتم تعلمون ما تمر به البلاد من الغلاء وأن الشباب لا يزالون في مقتبل عمرهم؛ فلا أقل من أن نيسر عليهم الزواج حتى لا يقعوا فيما حرم الله تعالى.

ولذا كان المعيار في اختيار الزوج الصالح هو الدين، والخلق الحسن لقول النبي ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»(١).

فلا المال يدوم، ولا الحَسَب والنَّسَب ينفع العبد في آخرته ... إنما الذي ينفع صاحبه في دنياه قبل أُخراه هو تقواه وطاعته لله رب العالمين، فإذا فعل الأب والأم ذلك ورضيت الفتاة بذلك راغبة فيما عند الله تعالى من الثواب العظيم والأجر الجزيل، فليبشروا بالفوز بسعادة الدارين وبالبركة في الذرية وفي المال، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

* * *

---

(١) حسن: رواه الترمذي (١٠٨٤) كتاب النكاح، وابن ماجه (١٩٦٧) كتاب النكاح، وصححه الألباني في المشكاة (٣٠٩٠).

نساءٌ على الدرب

انتهى بنا الحديث عن هذه الصحابية الجليلة أم سُليم حين لم ترضى عن إسلام أبي طلحة الأنصاري بديلًا كمهرٍ لها ... وهكذا يكون العبد إذا خالط الإيمان قلبه وامتلأ به فتراه صورة متجسدة في جوارحه؛ فالإيمان قول وعمل.

ومن آثار ذلك ما كان منها حينما خرج زوجها للجهاد في سبيل الله تعالى تاركًا ولده مريضًا، ولكن المرض اشتد عليه وساءت حالته ومات بعدها؛ فلمَّا عاد الزوج ألانت هذه المراة الصالحة فراشه، وأعدت له الطعام والشراب ثم كان بينهما ما يكون بين الأزواج، وقد سألها قبل ذلك: كيف حال ولدنا؟ فقالت له: هو أسكن ما يكون، وفي ذلك من التورية المباحة وهي أن يقول المرء كلامًا يراد به معنًى بعيدًا؛ فتتم المصلحة ولا يُعَدُّ كذبًا.

فلما وقع عليها قالت: أرأيت إن أعطاني جيراننا وديعة، أو أمانة، ثم جاءوا ليأخذوها؛ فهل نعطيهم إياها أم نمنعهم؟ فقال: بل لهم أن يأخذوها فهم أولى بها وهي حقهم، فقالت: إذن فاحتسب ولدك؛ فلقد رُدَّت الأمانة إلى خالقها.

فغضب غضبًا شديدًا وقال لها: هلا أخبرتيني قبل أن آكل وأشرب وأفعل كذا، وكذا؟

ثم شكاها إلى النبي ﷺ بعدما صلى الصبح؛ فقال له النبي ﷺ: «بَارَكَ

الله لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتكما»(١) ..يقول الراوي: ولقد أصابتهم دعوة النبي ﷺ؛ فلقد رزقهما الله تعالى في هذه الليلة ولدًا صالحًا أنجب بعد ذلك عشرًا من الولد كلهم حفظوا كتاب الله .... وفي رواية كلهم جاهد في سبيل الله -جل وعلا-..نعم، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

ولقد ضربت هذه المرأة بذلك أروع المثل في الصبر والثبات والرضا عن قضاء الله تعالى وقدره؛ فلقد استقبلت هذا الخبر وعاينته بنفسها ... وهذه رسالة لكل أم وأب قدَّر الله أن يقبض ولدهما.

ونهديهم هذه الهدية .... وهي حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ فَيَقُولُ اللهُ ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»(٢).

وجاء في الصحيح وفي غيره أيضًا أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَمُوتُ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُمَا اللهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمُ الْجَنَّةَ قَالَ يُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَيَقُولُونَ حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا فَيُقَالُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ»(٣)، وهذا إنما هو محض فضل من الله تعالى.

ولذلك كان هناك صحابيٌ من أصحاب النَّبي ﷺ له ولد يراعيه ويلاعبه ويكاد لا يفارقه من فرط حبه إياه؛ فسأله النبي ﷺ «أَتُحِبُّ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٤٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) حسن: رواه الترمذي (١٠٢١) كتاب الجنائز، وأحمد في «المسند» (١٩٢٢٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٢٤٨) كتاب الجنائز.

وَلَدك»؟ فقال الرجل: أَحَبك الله يا رسول الله كما أُحبه، وغاب هذا الصحابي يومًا فسأل عنه النبي ﷺ -وقد كانت عادته أن يتفقد أصحابه وأن يسأل عنهم وعن أحوالهم-؛ فقيل له: لقد مات ولده، فأرسل النبي ﷺ في طلبه وقال له: «**يَا فُلَانُ أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ، أَوْ لَا تَأْتِي غَدًا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ**» قال: يا نبي الله؛ بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي لهو أحب إليَّ، قال: «**فَذَاكَ لَكَ**»، وفي رواية أحمد، قال أحد الصحابة: أهو له خاصة يا رسول الله، أم لنا جميعًا، فقال: «**بَلْ لَكُم جَمِيعًا**»(١).

وهذا من الأمثلة التي يجب أن تُحتذى في الصبر والثبات وتفضيل الآخرة وما فيها من النعيم المقيم على الدنيا وما فيها من اللذة الفانية، والمتعة الزائفة، فوجب على كل أخت مسلمة أن ترضى بما قسمه الله لها وأن تقنع بما آتاها الله -تبارك وتعالى- فلا ترضى لنفسها زوجًا إلا مَن كان على خُلق ودين، وإن كان في قلة من المال ولا تفضل الثري الغني الذي لا دين له بسبب غناه؛ فهو لن يدوم ولذلك بيَّن ﷺ ذلك فقال ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»(٢).

فمن كان عنده دين فهو عنده كل شيء حتى وإن كان رزقه كفافًا -

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٢٠٨٨) كتاب الجنائز، وأحمد في «المسند» (١٥١٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٣).

(٢) حسن: رواه الترمذي (١٠٨٤) كتاب النكاح، وابن ماجه (١٩٦٧) كتاب النكاح، وصححه الألباني في المشكاة (٣٠٩٠).

أي: قوت يومه بيومه-، ومن ليس عنده دين؛ فهو لا يملك شيئًا على الحقيقة وإن مَلَك الدنيا بأسرها.

*** ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء:**

ولك أختي في الله القدوة والأسوة في هذه التابعية ابنة أحد سادة التابعين التي بلغت من الجمال والحسن بل ومن العلم غايته ... إنها ابنت سعيد بن المسيب رحمة الله عليها وعلى أبيها.

ولقد أورد هذه القصة الإمام الذهبي في كتابه الجميل البديع «سير أعلام النبلاء»، كما أوردها الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»، وتدور أحداثها حول الآتي:

قال أبو بكر بن أبي داود: كانت بنتُ سعيد قد خطبها عبدُ الملك لابنه الوليد، فأبى عليه، فلم يزل يحتالُ عبدُ الملك عليه حتى ضربه مائة سوطٍ في يومٍ بارد، وصبَّ عليه جرة ماء، وألبسه جُبة صوف... قال كثير بن أبي وداعة كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أيامًا، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: تُوفيت أهلي - يعني زوجته - فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، ثم قال: هل استحدثت امرأةً؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا. فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمَّد، وصلى على النبي ﷺ، وزوَّجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي وجعلتُ أتفكر فيمن أستدين. فصليتُ المغرب، ورجعت إلى منزلي، وكنتُ وحدي صائمًا، فقدمت عشائي أفطر، وكان خبزًا وزيتًا، فإذا بابي يُقرع، فقلتُ: مَن هذا؟ فقال: سعيد، فأفكرت في كل من اسمه سعيد إلا

ابن المسيب، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجتُ، فإذا سعيد، فظننت أنه قد بدا له[١]، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ قال: لا، أنت أحقُّ أن تُؤتى، إنك كنت رجلاً عزبًا فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك. فإذا هي قائمةٌ من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب، وردَّ الباب. فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعتُ القصعة في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدتُ إلى السطح فرميت الجيران، فجاءوني فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم. ونزلوا إليها، وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرامٌ إن مسستها قبل أن أُصلحها إلى ثلاثة أيام؛ فأقمت ثلاثًا، ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق زوج. فمكثت شهرًا لا آتي سعيد بن المسيب. ثم أتيته وهو في حلقته، فسلمت، فردَّ عليَّ السلام ولم يُكلمني حتى تقوّض المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حالُ ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، على ما يُحبُّ الصديق، ويكرهُ العدوُّ. قال: إن رابك شيءٌ، فالعصا. فانصرفت إلى منزلي، فوجَّه إِليَّ بعشرين ألف درهم[٢].

* سبحان الله.. من لنا بمثل هذه النماذج المضيئة التي تشع نورًا وتفيض ورعًا وتقوى وعلمًا؟

ولكنه فضل الله تعالى الذي يؤتيه من يشاء من عباده؛ فهو سبحانه

---

(١) أي بدا له أن يرجع عن تلك الزيجة.

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤).

يصطفي من الملائكة ومن الناس من يفيض عليه من النعم والآلاء التي لا تُعد ولا تُحصَى.

وقد يظن البعض أنه من العيب أن يتعلم الرجل شيئًا من العلم من زوجته؛ فهذا أمر ليس من المستغرب فكم من مشايخنا وعلمائنا الكبار أخذوا العلم على بعض النساء، وكيف لا..والنساء شقائق الرجال كما صَحَّ عنه ﷺ؟

فنحن نأخذ الحق من أي شخصٍ كان ونتقبل النُّصح والإرشاد وإن كان من النساء والصبيان طالما أنهم يتكلمون بالحق ويصدعون به، ويدعون إليه، ويناضلون في سبيل إظهاره، وكما قيل: «اعرف الحق تعرف أهله»، والحكمة ضالة المؤمن فأينما وجدها فهو أحق بها.

*** خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا:**

لقد رأيتني في حيرة من أمري، فلا أدري عمَّن أتحدث لبيان علو همة النساء؛ فرأيت أنه من المناسب أن نتكلم عن هذا النموذج العجيب الذي إن دَلَّ وجوده على شيء فإنما يدل على أن كل مصيبة في الدنيا تهون طالما لم تكن في الدين، وأن العبد إذا فهم الحكمة والغاية من وجوده في هذا الكون على الحقيقة هانت عليه كل الصعاب واستعذب العذاب في سبيل رضا ربه عنه فهو غاية المنى ومنتهى الآمال.

*** تُرى عن من سنتكلم؟**

إنها الخنساء؛ فلقد قيل أنها كان لها أخ في الجاهلية قبل الإسلام اسمه صخر، وكانت تحبه كأشد ما تحب الأخت أخاها فلما قُتل اهتمت وحزنت عليه حزنًا شديدًا وملأت الدنيا عليه صراخًا وعويلًا حتى يخلد

ذكره في التاريخ وبين الناس طالما هي تفعل ذلك، وكانت تقول:

يُذكرني طلوع الشمس صخرًا ... وأذكره بكل غروب شمسِ
ولولا كثرة الباكين حولي ... علىٰ إخوانهم لقتلت نفسي

وهذا مما يسميه العلماء بـ«التسلية»؛ فإذا رأى العبد ما حَلَّ بغيره من المصائب يعلم أنه يقينًا أفضل من غيره؛ فمن رأى بلاء الناس هان عليه بلاؤه .... ولذلك يقول الله -جل وعلا- في محكم التنزيل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

يؤمن بالله، أي: يرضى بقضائه وقدره.

ويهدي قلبه، أي: يُنزل في قلبه من السكينة والرضا والثبات ما الله به عليم.

الشاهد من الكلام: أن الخنساء كانت تُسلِّي نفسها بهذا الكلام وتقول: أن عزاءها الوحيد أنها لم تكن الوحيدة التي ابتُليت بفقد أخيها فخفف ذلك من وطأة المصيبة عليها، ولما أسلمت بعد ذلك، وكان لها أربع أولاد وعلمت أن الجيش الإسلامي يستعد للخروج إلى القادسية، فدفعت بهم جميعًا للجهاد في سبيل الله، وقالت لهم: «والله يا أولادي إنكم أبناء رجل واحد، وإني لأحتسبكم عند الله في يومٍ لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم؛ فاصبروا وتكفَّنوا وتحنطوا وأخلصوا في جهادكم في سبيل الله»؛ فقدَّر الله تعالى أن يستشهدوا جميعًا.

فجاء الناس يهنئونها قائلين: بشرى لكِ فقد استشهد أولادك جميعًا،

---

(١) سورة التغابن: الآية: (١١).

فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في سبيله، وإني لأحتسبهم في يومٍ لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

*** أختاه إياك ثم إياك أن يؤتى الإسلام من قبلك:**

ونحن نسوق هذه الأمثلة والنماذج في علو الهمة في طلب العلم وفي العبادة والصبر والثبات على الدين، إنما نريد لأختنا الكريمة أن تعلم أن الإسلام يتعرض في كل يوم بل في كل لحظة إلى طعنة بل إلى طعنات في حلقة من السلسلة الدامية من هذه المعركة الضروس على الإسلام في بلاده وخارجها ومن أهله ومن غير أهله.

فأنتِ على ثغرٍ من ثغور الإسلام؛ فاحرسيه بتقواك ومراقبتك لله وعفافك وحجابك وقرآنك، وإياك أن يُؤتَى الإسلام من قِبلك.

واعلمي أن أعداء الإسلام والذين يرفعون شعارات «تحرير المرأة»، و«مساواة المرأة بالرجل»، وحرية الفكر والدين..وغير ذلك؛ إنما يريدون أن يحرروا المرأة من دينها وحجابها ومصدر شرفها وعزتها، وهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم جفن ولا تسكن لهم همة حتى يفعلوا ذلك ... ففساد المرأة في أي مجتمع يضمن لهؤلاء فساد المجتمع بأسره وكيف لا، والمرأة هي نصف المجتمع وهي تلد لنا النصف الآخر؟

قال -جل وعلا-: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[1].

(١) سورة النساء: الآيتان: (٢٧، ٢٨).

* **المرأة..ما لها وما عليها:**

ونختم بهذه الرسالة الرقراقة..نهمس بها في آذان أخواتنا ليعلمن من أين تؤكل الكتف؛ حتى تتخذ من التدابير والاحتياطات الوقائية ما يكون حائلًا بينها وبين وقوعها في براثن هؤلاء وأوحالهم؛ فلا تنخدع بهذه الشعارات الرنانة والكلمات البراقة، وعمود الأمر وأصله إنما يكمن في خروج المرأة من بيتها لتختلط بالرجال، ومن ثم تكون الفتن والفاحشة عياذًا بالله ولذا سوف نقف مع المرأة وقفات سريعة لإعادة النظر في بعض الأمور لنراها وإياها بمنظور الشرع ونستعرضها في إطار الكتاب والسنة وما يصح وما لا يصح والله الموفق وعليه التكلان.

* فأما عن الضمانات الوقائية فهي[1].

* أن الله سبحانه منع الزواج ممن عُرف - أو عُرفت - بالفاحشة إذا لم يتب، فقال سبحانه: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[2]، أخذًا بالحيطة إذ من اعتاد الفاحشة لا يأمن أن يعاودها.

* حرم البذاء ومنع الفحش في القول، وكره التلفظ بالسوء.

قال ﷻ: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾[3]، وقال ﷺ: «**ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء**»[4].

---

(١) سأذكرها باختصار من كتاب «عودة الحجاب» للشيخ/ محمد إسماعيل المقدم..

(٢) سورة النور: الآية: (٣).

(٣) سورة النساء: الآية: (١٤٨).

(٤) صحيح: رواه الترمذي (١٩٧٧)، وأحمد (٣٨٢٩)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٢٠).

*وحرم أن يُظن بمؤمن سوء، وأوجب على المؤمن إذا سمع عن أخيه سوءًا أن يظن به البراءة من الإثم، والطهارة من السوء كما هو طاهر وبريء، قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٣)﴾(١).

والقصد من وراء هذا عدم السماح للفاحشة أن تظهر، ولو على ألسنة المتكلمين، أو في أذهان السامعين تركيزًا للطهارة وتثبيتًا لها في جو البلاد والعباد، وفي هذا من معنى محاربة الفاحشة بالوقاية ما لا يخفى على عاقل.

*وحرم قذف المؤمن أو المؤمنة بالفاحشة، ووضع لذلك عقوبة زاجرة ـ الجلد ثمانين جلدة ـ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾(٢).

وعليه فمن قذف امرأة مؤمنة عفيفة أو مؤمنًا عفيفًا بكلمة الفاحشة، وجب عليه أن يُحضر أربعة شهود على صحة ما قاله، أو يُجلد حدًّا على ظهره ثمانين جلدة، مع إسقاط عدالته حتى يتوب توبة نصوحًا.

*وحرم مجرد حب إشاعة الفاحشة في البلاد والعباد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)﴾(٣).

---

(١) سورة النور: الآيتان: (١٢، ١٣).

(٢) سورة النور: الآيتان: (٤، ٥).

(٣) سورة النور: الآية: (١٩).

* ومن إجراءات الإسلام في هذا الشأن تحريم التحدث بما يكون بين الزوجين متعلقًا بالوقاع ونحوه.

* حظر على الرجل أن يغيب عن زوجه مدة طويلة، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[1].

فإذا حلف الرجل ألا يطأ زوجته أربعة أشهر فأكثر كان مُوليًا، فإما أن يرجع في تلك المدة فيطؤها، ويُكفر عن يمينه، وإلا تُطلق منه بمجرد مضي المدة حتى لا تتضرر الزوجة.

* فرض الحجاب على النساء، واعتبار قرارهن في البيت هو الأصل الأصيل في دائرة عملهن، قال ﷺ: «**والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسئولة عن رعيتها**[2]»، وما عداه استثناء، ثم إن هي خرجت تخرج محجوبة، لا تخالط الرجال.

* ومن ذلك أيضًا: تحريم التبرج، وإظهار الزينة، والتجمل للفت نظر الأجانب، قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[3].

* ومنها تشريع الاستئذان، فقد حرم الله - عز وجل - الدخول إلى البيوت إلا بعد الإذن، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ

(١) سورة البقرة: الآيتان: (٢٢٦، ٢٢٧).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٥٨) كتاب العتق، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.
(٣) سورة الأحزاب: الآية: (٣٣).

﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾(١).

ووضحت السنة الهدف من الاستئذان وهو خشية أن تقع عين آثمة على عورة غافلة، فتلد تلك النظرة الخاطفة فاحشة فاضحة.

* ومنها الأمر بغض البصر، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾(٢).

فالله ـ سبحانه ـ يعلم مدى تأثير النظرة المحرمة في القلب، وما تُحدثه من تحويل النفس إلى بركان، وما تحركه من الاندفاع نحو المرأة، والواقع يصدق ذلك.

* ومنها تحريم مس الأجنبية ومصافحتها:

وإذا كان الإسلام يطارد الحرام أنَّى وُجد، ويترصد المنكر حيثما كان ليقضي عليه، فلمس المرأة باليد يحرك كوامن النفس، ويفتح أبواب الفساد، ويسهل مهمة الشيطان، من أجل ذلك توعد الله من يفعل ذلك بصارم عقابه، وشديد عذابه:

فعن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لأن يُطعن في رأس أحدِكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له**»(٣).

وإذا كان هذا في مجرد المس إذا كان بغير شهوة، فما بالك بما فوقه؟!

---

(١) سورة النور: الآيتان: (٢٧، ٢٨).

(٢) سورة النور: الآيتان: (٣٠، ٣١).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢١١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٤٥).

وهذا أطهر ولد آدم ﷺ وأخوفهم لله، وأرعاهم لحدوده، يقول ـ وهو المعصوم: ـ «**لا أمس أيدي النساء**»[١]، ويمتنع من ذلك حتى في وقت البيعة الذي يقتضي عادة المصافحة، فكيف يباح لغيره من الرجال مصافحة النساء مع أن الشهوة فيهم غالبة؟، والفتنة غير مأمونة؟، والشيطان يجري منهم مجرى الدم؟!

* ومن ذلك: تحريم الخلوة بالأجنبية: وحقيقة الخلوة أن ينفرد رجل بامرأة في غيبة عن أعين الناس.

إن الخلوة بالأجنبية من أعظم الذرائع، وأقرب الطرق إلى اقتراف الفاحشة الكبرى.

إن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية مدرجة الهلاك، وداعية الإثم والفجور، وكيف لا يكون ذلك، والفرصة سانحة، وقد مهدت الخلوة للغريزة أن تستيقظ؟

وقد تكون القرابة إلى المرأة أو زوجها سبيلاً إلى سهولة الدخول عليها أو الخلوة بها، كابن العم وابن الخال مثلاً، ولذلك حذرنا النبي ﷺ من ذلك؛ لأنه من مداخل الشيطان، ومسارب الفساد، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»[٢].

والحمو: هو قريب الزوج الذي لا يحل للمرأة، فبين النبي ﷺ أنه

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٣٣٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٣٢) كتاب النكاح، ومسلم (٢١٧٢) كتاب السلام.

يفسد الحياة الزوجية كما يفسد الموت البدن.

* فلا يحل لشخص بعد هذه النصوص أن يخلو بامرأة لا تحل له.

* فلا يحل لقريب الزوج كأخيه وابن عمه أن يأتي إلى البيت في غياب الزوج ويخلو بالزوجة.

* ولا يحل لصديق الزوج أن يأتي إلى المنزل في غياب الزوج ويخلو بالزوجة، ولا يحل له أن يخلو بها في حضور الزوج في البيت ويُغلَق على الأجنبي مع الزوجة باب.

* لا يحل لمدرس أن يخلو بفتاة يعلمها، ولا أن يُغلَق عليهما باب، فهذا باب عظيم من أبواب البلاء.

* وكذلك لا يحل لمحفظ قرآن أن يخلو بامرأة يعلمها القرآن.

* وكذلك لا يحل لمعالج يعالج بالقرآن أن يخلو بامرأة يعالجها.

* ولا يحل لطبيب أن يخلو بمريضة ولا بممرضة.

* وقبيح - أيما قبح - أمر صيدلي يستأجر فتاة للعمل معه حيث هناك مكان يخلو بها فيه.

* وكذلك لا يحل - ثم لا يحل - لمدير أن يخلو بسكرتيرة، ولا أن يغلق عليهما باب، فالشيطان ثالث هؤلاء.

* ولا يحل كذلك لخاطب أن يخلو بمخطوبته، فهو لا يزال رجلاً أجنبيًّا عنها.

* كذلك لا يحل لرجل أن يخلو بالخادمة التي تخدم في بيته، فليست هي من محارمه.

* ولا يحل لسائق أن يخلو بامرأة من يعمل عنده فهو رجل أجنبي

كذلك[١].

* ومن الضمانات الوقائية: قرار المرأة في بيتها:

فلما كان احتكاك النساء بالرجال واختلاط النساء بالرجال من أكبر أسباب هذه الفاحشة وأعظمها جاء الحث على قرار النساء في البيوت.

قال الله تعالى لأزواج نبيه ﷺ ـ اللواتي هن خير أسوة لنسائنا وبناتنا ـ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[٢].

وقال النبي ﷺ: **«المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون المرأة من ربها وهي في قعر بيتها»**[٣].

وانظر إلى جميل الاعتذار الذي اعتذرت به هاتان المرأتان لما سألهما موسى عليه السلام: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[٤].

فذكرتا عذرهما في خروجهما، وأوضحتا السبب الذي من أجله كان الخروج ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[٥].

شيخ كبير لا يطيق سقي الأنعام، ولا يطيق العمل ولا الخروج، ولولا ذلك ما خرجتا.

ولكنهما مع هذا الخروج «تَذُودَانِ» تصرفان الأنعام والمواشي

---

(١) «ولا تقربوا الزنا»/ الشيخ مصطفى العدوي (ص: ٦٩، ٧١) بتصرف.

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٣٣).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (١١٧٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٦٩٠).

(٤) سورة القصص: الآية: (٢٣).

(٥) سورة القصص: الآية: (٢٣).

والأغنام عن الاحتكاك بالناس!!

* من ذلك: أنه حرم سفر المرأة بغير محرم:

فإن المرأة مظنة الشهوة والطمع، وهي لا تكاد تقي نفسها، لضعفها ونقصها، ولا يَغَار عليها مثل محارمها، الذين يرون أن النَّيل منها نيل من شرفهم وعِرضهم.... وسفرها بدون محرم يعرضها إلى الخلوة بالرجال ومحادثتهم، وقد يطمع فيها من في قلبه مرض، وربما سهل خداع المرأة، وربما يعتريها مرض، وإذا سلمت من كل هذا فلن تسلم من القيل والقال إذا سافرت بدون محرم يصونها ويرعاها.

* ومنها تحريم خروج المرأة متطيبة متعطرة:

فمن المعلوم أن من دواعي فتنة الرجل بالمرأة، ونزوعه إليها، ما يشم منها من الطيب الذي يفوح شذاه فيجر إلى الفتنة، ويكون رسولاً من نفس شريرة إلى نفوس أخرى شريرة.

قال ﷺ: «**أيما امرأة استعطرت، ثم خرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية**»[1].

* ومنها تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها:

فقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح**»[2].

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما من رجل**

---

(١) حسن: رواه النسائي (٥١٢٦)، وأحمد (١٩٢١٢، ١٩٢٤٨)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٧٠١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٩٣) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٣٦) كتاب النكاح.

يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها»[(١)].

* ومنها عدم وصف المرأة لامرأة أخرى:

قال ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[(٢)].

فقد قال ذلك رسول الله ﷺ، وذلك خشية أن يفضي هذا الوصف إلى افتتان الزوج بهذه الموصوفة.

* ومنها تحريم الخضوع بالقول:

فقد يكون صوت المرأة رخيمًا، يحرك النفوس المريضة، فيجرها إلى التفكير في المعصية، أو يوقعها ويوقع بها في بلية العشق.

وقد سدَّ الإسلام على المرأة كل سبيل للتسيب في هذا الباب حينما جعل أمهات المؤمنين محلاً للقدوة، فلم يبق هناك عذر لمعتذر، قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾[(٣)].

* ومن أعظم وسائل الإسلام لتجفيف منابع الفتنة بالمرأة: تحريم الاختلاط المستهتر: وقد حذَّر القرآن الكريم من هذا الاختلاط كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[(٤)]، فخير حجاب للمرأة بيتها، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾[(٥)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٣٦) كتاب النكاح.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٢٤١) كتاب النكاح.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (٣٢).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٣٣).

(٥) سورة الأحزاب: الآية: (٥٢).

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لو تركنا هذا الباب للنساء؟»** قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات[(١)].

قال أبو داود في «سننه»: «باب انصراف النساء قبل الرجال من الصلاة» ثم ساق حديث أم سلمة رحمها الله قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم مكث قليلاً، وكانوا يرون أن ذلك كيما ينفذ النساء قبل الرجال».

وعن أم سلمة رحمها الله قالت: «كان يسلم فينصرف النساء فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ»[(٢)].

قال الشيخ محمد بن إسماعيل: والآن نستطيع أن نجزم بحقيقة لا مراء فيها، وهي أنك إذا وقفت على جريمة فيها نُهش العرض، وذُبح العفاف، وأُهدر الشرف، ثم فتشت عن الخيوط الأولى التي نسجت هذه الجريمة وسهلت سبيلها، فإنك حتمًا ستجد أن هناك ثغرة حصلت في الأسلاك الشائكة التي وضعتها الشريعة الإسلامية بين الرجال والنساء، ومن خلال هذه الثغرة دخل الشيطان، وصدق الله العظيم: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[(٣)] [(٤)].

* ومنها: الحض على الزواج لمن استطاع إليه سبيلاً والحض على الصيام لمن لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٢، ٥٧١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٢٥٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٨٥٠) كتاب الأذان.

(٣) سورة النساء: الآيتان: (٢٧، ٢٨).

(٤) عودة الحجاب / الشيخ محمد إسماعيل ـ حفظه الله ـ (٣ / ٥٩ - ٦٠).

قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإن له وجاء»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لو لم يبق من أجلي سوى عشرة أيام أعلم أني أموت بعدهن، ولي طَول النكاحِ فيهن لتزوجت مخافة الفتنة».

* ومنها الحض على تعاون المسلمين على تزويج الشباب والفتيات حتى لا يبقى بين المسلمين عزب تخشى فتنته.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾[٢].

والأيامى: جمع أيم، وهو من ليس متزوجًا من ذكر أو أنثى، فالرجل أيم، والمرأة أيم إذا لم يكن لهما زوج... قال ابن مسعود رضي الله عنه: «التمسوا الغنى في النكاح»، وتلا هذه الآية، وقال عمر رضي الله عنه: «عجبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾[٣].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٥) كتاب الصوم، ومسلم (١٤٠٠) كتاب النكاح.

(٢) سورة النور: الآية: (٣٢).

(٣) سورة النور: الآية: (٣٢).

علو همة الشيوخ

*** ليس الشيب شيب الرأس وإنما الشيب شيب الهمم:**

قلنا قبل ذلك أن علو الهمة لا يقتصر على الشباب والصبيان والنساء، وإنما يتسع ليشمل الشيوخ أيضًا حتى لا يقولن شيخ كبير: لقد تقدم بي السن؛ فماذا أستطيع أن أقدم بعد هذا العمر؟

وإنما ينبغي أن يكون لكل فرد في هذا المجتمع دور بنَّاء فعَّال له أثره في رفعة شأن هذا الدين ومواكبة ركب الحضارة والتقدم؛ فنحن أمة قائدة اصطفاها الله تعالى لتكون خير الأمم، وحتى نكون أهلًا لهذه الخيرية وهذا الاصطفاء لابد ألا ندخر جهدًا في بذل كل طاقتنا لنكون جديرين بذلك؛ حتى آخر رمق في حياتنا؛ فلقد كان من الصحابة مَن لم يدخل في الإسلام إلا بعد أن جاوز الستين من عمره؛ فتراه وكأنه فيما يتعلق بهمته يفوق الشاب الذي لم يجاوز العشرين من عمره، وكيف لا؟ وقد امتلأ قلبه بالإيمان وعرف طريق الحق، ويسعى حال انشراح صدره للإسلام أن يعوض ما فاته؛ فهو قاب قوسين أو أدنى من الموت وقد جاءه النذير، وهو الشيب؛ فهو أولى من يعمل لهذا اليوم، ولذا قال القائل:

إنَّا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى يُدني من الأجلِ

وهو يعلم يقينًا إنه إذا مات فلن يأخذ معه إلا عمله، وسوف يُسأل عن كل لحظة في حياته وعن كل علم تعلَّمه، هل عمل به أم لا؟ فتراه يُشمر عن ساعد الجد والاجتهاد ليلحق بمن سبقه إلى الله تعالى، وليعد لكل سؤالٍ جوابًا:

ولــــو أنَّــــا إذا متنـــا تُركنـــا ... لكــان المــوت راحــة كــل حــي
ولكنَّـــا إذا متنـــا بُعثنـــا ... ونُــسأل حينهــا عــن كــل شــيء

فالعبرة ليست بشيب الرأس، وإنما شيب الهمم؛ فكلما علت همة الشيخ الكبير صار قلبه شابًّا، وراوده الطموح وداعبته الآمال ولاحت إليه الأهداف والغايات فلا يرى إلا هدفًا واحدًا وقد وضعه نصب عينيه فلا يرضى عنه بديلًا؛ إنه الفردوس الأعلى من الجنة، ولا حرج على فضل الله تعالى، فإن العبد إذا صدق مع الله تعالى، وأخلص العمل تقبَّله ربه بقبولٍ حسن وأعطاه عليه أجزل العطاء وأوفر الجزاء.

عجوز بني إسرائيل:

نستهل حديثنا عن علو همة الشيوخ بقصة امرأة عجوز من بني إسرائيل؛ فما خبرها؟

فى يوم من الأيام نزل النبيُّ محمد ﷺ ضيفًا على رجل من الأعراب، فلم يُصدق الرجل نفسه أن ضيفه هو رسول الله ﷺ، فأخذ الرجل يقدم الطعام والشراب والفاكهة لرسول الله ﷺ مع أنه رجل فقير، لا يملك شيئًا لكنه كان فى قمة السعادة لأن بيته قد امتلأ بركة ونورًا بوجود الرسول ﷺ.

تعجب النبى ﷺ من كرم هذا الأعرابى الفقير.

ولكن أين يبلغ كرم هذا الأعرابى بجوار كرم رسول الله ﷺ الذى كان أجود من الريح المرسلة فى الإنفاق وفعل الخيرات.

فما كان من النبى ﷺ إلا أن طلب من هذا الأعرابى أن يأتى إليه بعد ذلك ليجزيه ويكافئه على ما فعله معه ﷺ.

ومرت الأيام وتعرض هذا الأعرابى لأزمة مادية كبيرة، فتذكَّر أن رسول الله ﷺ كان قد طلب منه أن يأتى إليه ليجزيه ويكافئه، فما كان منه إلا أن ذهب إلى النبىِّ ﷺ واستأذن فى الدخول عليه، فلما علم النبىُّ ﷺ بوصول هذا الأعرابى أَذِن له فى أن يدخل عليه.

دخل الأعرابى على رسول الله ﷺ وسلم عليه فردَّ النبى ﷺ عليه السلام ورحَّب به غاية الترحيب .. وأخذ يسأله عن أحواله ليطمئن عليه فبدأ الرجل يشكو إليه الفاقة والفقر والحاجة.

فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال له: يا أعرابى اطلب ما تريد.

وكان النبى ﷺ يظن أن هذا الأعرابى سيطلب شيئًا كبيرًا .. وذلك بأن يسأل رسول الله ﷺ أن يدعو له بمغفرة ذنوبه أو بدخول الجنة أو بصحبة النبى ﷺ فى الجنة .. لكن هذا الأعرابى لم يسأل النبى ﷺ أى شىء من كنوز الآخرة بل سأله شيئًا يسيرًا من حُطام الدنيا.

قال له الأعرابى: يا رسول الله! أريد ناقة برحلها نركبها ونسافر عليها وأعْنُزًا نحلبها ونشرب حليبها.

فحزن النبى ﷺ حزنًا شديدًا؛ لأن هذا الأعرابى أُتيحت له فرصة العمر بأن يدعو له رسول الله ﷺ دعوة مستجابة، فيفوز فى دنياه وآخرته.

لكنه ترك كل ذلك وسأل شيئًا يسيرًا يمكن أن يُطلب من أى إنسان.

فإذا بالنبى ﷺ يقول لهذا الأعرابى: «**أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل؟!**».

فتعجب الصحابة لأنهم لم يسمعوا بسيرتها قبل ذلك فقالوا: يا رسول الله وما عجوز بنى إسرائيل؟

فبدأ النبى ﷺ يحكى لهم قصة عجوز بنى إسرائيل التى كانت صاحبة همة عالية .. فلما أُتيحت لها الفرصة بأن تطلب شيئًا من نبى الله موسى عليه السلام لم تطلب منه أى شىء من حُطام الدنيا بل طلبت أن تكون معه فى الجنة .. فيا تُرى ما هى قصتها؟

تعالوا بنا لنتعرف على قصتها.

* تبدأ القصة من أيام نبى الله يوسف عليه السلام.

فإنه لما أصبح يوسف عليه السلام عزيز مصر وأحسَّ بعد ذلك بقُرب أجله وقال: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ﴾ (١).

وهنا أخذ نبى الله يوسف عليه السلام العهد والميثاق على بنى إسرائيل عند موته أنهم إذا خرجوا فى يوم من الأيام من مصر أن يحفروا ويأخذوا جسده ليدفنوه فى الأرض المقدسة فى فلسطين.

* ومات يوسف عليه السلام .. ومرت سنوات وسنوات ولم يستطع بنو إسرائيل أن يأخذوا جسده من مصر ليدفنوه فى الأرض المقدسة.

* ولما بُعث نبى الله موسى عليه السلام وذهب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله (جل وعلا) فأبَى فرعون أن يؤمن بالله بل وحارب رسول الله موسى عليه السلام وخرج بجيشه وراء موسى ومن آمن معه من أجل أن يقتلهم.

فخرج موسى عليه السلام وقومه .. وبينما هم فى الطريق؛ إذ ضلوا الطريق فتعجب نبى الله موسى عليه السلام فسأل من معه من علماء بنى إسرائيل عن

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠١).

سبب ذلك فقالوا له: إن يوسف عليه السلام كان قد أخذ العهد على بنى إسرائيل أنهم إذا خرجوا من مصر أن يحفروا ويأخذوا جسده ليدفنوه فى الأرض المقدسة.

فقال موسى عليه السلام: وهل هناك أحد يعرف مكان قبر يوسف عليه السلام ؟

قالوا: لا يعرف مكان قبر يوسف عليه السلام إلا امرأة عجوز من بنى إسرائيل.

فقال موسى عليه السلام: ائتونى بها.

فذهبوا إليها وجاءوا بها إلى نبى الله موسى عليه السلام .

فلما رآها قال لها: دُلينى على قبر يوسف عليه السلام .

فقالت المرأة: لن أدلك على قبر يوسف عليه السلام إلا إذا حققت طلبى.

فسألها موسى عليه السلام: ما هو طلبك وماذا تريدين؟

قالت: أريد أن أكون معك فى الجنة!!

فتعجب نبى الله موسى عليه السلام من طلبها.. وكره أن يحقق لها طلبها لأنه رأى أن هذا العمل الذى ستقوم به لا يساوى أن تكون معه فى تلك المنزلة العالية.. أو لأنه لا يستطيع أن يعدها بشىء لا يملكه هو.. فهو لا يستطيع أن يقول لأحد أنه سيكون معه فى الجنة إلا إذا أوحى الله عز وجل إليه بذلك.

وبالفعل أوحى الله إليه فى تلك اللحظة بأن يعطيها حكمها وأن يخبرها بأن الله قد حقق لها أمنيتها وأنها ستكون معه صلى الله عليه وسلم فى الجنة.

وهكذا كانت هذه المرأة صاحبة همة عالية فلقد اغتنمت الفرصة عندما أُتيحت لها وطلبت من نبى الله موسى عليه السلام أن تكون معه فى الجنة.

* وعندما أخبر نبى الله موسى عليه السلام هذه المرأة العجوز بأنها ستكون معه فى الجنة .. قامت المرأة وتوجهت إلى بحيرة صغيرة قريبة منهم وطلبت منهم أن ينضحوا ذلك الماء، ثم قالت لهم: احفروا هذا المكان فلما حفروا وجدوا جسد يوسف (عليه السلام) كما هو وكأنه قد دُفن الآن فلما رفعوه وساروا به أضاء لهم الطريق كأنما هم فى ضوء النهار.

*** بل أحياء عند ربهم يُرزقون:**

إنه الصحابي الجليل الذي جاد بنفسه في سبيل الله تعالى، بعد أن شرح الله صدره للإسلام وهو ابن الستين.

ولكن الله تعالى أراد به الخير وليكون مثلًا للصدق وعلو الهمة.

إنه عبد الله بن عمرو بن حرام والد الصحابي الجليل جابر بن عبد الله، والذي لم يجد شيئًا يقدمه لدين الله تعالى ليُكفر به ما كان عليه من الشرك إلا أن يُقاتل فيقُتل في سبيل الله تعالى لينال الشهادة فيحظى بما للشهيد من كرامة ومكانة لايعلمها إلا رب العالمين.

وكان عبد الله له من البنات تسعًا وكان ولده جابر لا يزال في الرابعة عشر من عمره فأراد أن يخرج للجهاد ويترك أولاده أمانة في عنق جابر؛ فذهب عبد الله إلى النبي ﷺ وأخذ ولده جابرًا وقال له أمام النبي ﷺ: «يا جابر إني ما تركت أحدًا أعز وأحب إلى قلبي بعد النبي ﷺ منك، وإني قد تركت دَينًا فلتقضِه عني، وتركت بناتي التسع وأوصيك بهن خيرًا؛ فإني ما أراني إلا سأُقتل...».

فما كان من جابر إلا أن سلَّم بالأمر الواقع ونزل على رغبة أبيه على مسمع ومرأى من النبي ﷺ على ما تحمَّله من المسئولية التي لا يمكن

لمن في مثل سنه أن يتحملها ولكنها الرجولة المبكرة والهمة العالية التي لا حدود لها.

ولما استشهد عبد الله بن حرام خرجت إحدى بناته تصيح وتبكي، فقال لها النبي ﷺ: «**تَبْكِيهِ أَوْ لا تَبْكِيهِ مَا زَالَتِ الْمَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ**»(١).

وفي رواية أخرى أخرجها الترمذي في سننه، قال النبي ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «**مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ عِيَالًا، وَدَيْنًا، قَالَ «**أَفَلا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ**» قَالَ: قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا؛ فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي؛ فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ** عز وجل: **إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ قَالَ وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾**(٢)»(٣).

وإن لم ينزل القرآن في مثل هؤلاء ليُبين قدرهم ومكانتهم عند الله تعالى؛ ففيمن سينزل؟

إنه الجزاء من الله تعالى على قدر الهمة والبذل والفداء، وإنها حسن الخاتمة فهذا الرجل الذي جاوز الستين من عمره في الشرك والضلال؛

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٤٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٠١٠) كتاب تفسير القرآن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٠٥).

فلما هداه الله إلى الإسلام صادف همة لا تدانيها همة فكانت الكرامة من الله -جل وعلا- أن نال منزلة الشهداء، وما أدراك بتلك المنزلة؟ إنها منزلة عالية سامية.

ويبين ذلك ما جاء في سبب نزول الآية التي وردت في فضل الشهداء الذين بذلوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى؛ ... عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾**[1]»[2]؛ فاللهم ارضَ عن جابر وعن أبيه وارضَ عنا معهم أجمعين.

*** إن الحسنات يُذهبن السيئات:**

وهذا مثال آخر من أروع الأمثلة في البذل والعطاء وعلو الهمة.

كان من أصدقاء النبي ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام؛ مما جعل كثيرًا من الناس يظنون أنه سيكون أول المصدقين للرسول الكريم.

ولكن وبكل أسف تأخر إسلامه كثيرًا؛ فلم يُسلم إلا بعد ما يقرب من إحدى وعشرين عامًا ... إنه الصحابي الجليل حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٢٠) كتاب الجهاد، وأحمد في «المسند» (٢٣٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٥).

أسلم عام الفتح، وكان إذا اجتهد في قَسَمِه ويمينه، قال: «والذي نجَّاني يوم بدر»؛ فقد أنجاه الله يوم بدر، وقد كان وقتها مشركًا يحارب النبي ﷺ مع المشركين في غزوة بدر، وادَّخر الله له الخير يوم الفتح، ففتح الله به أقفال قلبه؛ فأصبح من أصحاب الرسول الذين شهد الله لهم بالإيمان والإحسان، ورضي عنهم.

يقول أهل السير: أن حكيم حجَّ ثلاث مرات متتاليات؛ فأخذ في المرة الأولى مائة بعير ونَحَرها في يوم عرفة، وأطعم فقراء الحرم، وفي المرة الثانية: أخذ ألف شاةً فنحرها أيضًا وأطعم فقراء الحرم، ثم في المرة الثالثة: أخذ مائة عبدٍ وجعل في رقابهم كأمثال الخواتيم مكتوب عليها «عتقاء الرحمن»، ووقف يوم عرفة يبكي، ويقول: «اللهم إني أُشهدك أنِّي قد أعتقتهم من أجلك وأنت أولى بالمسامحة فأعتق رقبتي من نار جهنم».

ثم قيل: أنه اشترى دار الندوة، ثم باعها بعد ذلك بمائة ألف وتصدَّق بها جميعًا في سبيل الله، فقال له أحد الصحابة: بعت مَكْرُمة قريش يا حكيم؟ فقال: «يا بني ذهبت المكارم كلها ولم يبقَ إلا تقوى الله، أُشهدك أني قد بعتها وأنفقت ما أخذته من ثمنها في سبيل الله لأشتري به دارًا في جنة الرحمن - جل وعلا-».

ونام حكيم بن حزام على فراش الموت يبكي ويقول: «لا إله إلا الله قد كنت أخشاك، وأنا اليوم أرجوك».

*** خير الناس من طال عمره وحسن عمله:**

جرت حكمة العلي الكبير - جل وعلا - أن من عاش على شيء

مات عليه، ومن مات على شيء بعُث يوم القيامة عليه، وأن العبرة بالخواتيم، وكما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**»[١]، ولذلك بيَّن النبي ﷺ أن خير الناس وأفضلهم عند الله مَن طال عمره وحسن عمله، وأن شر الناس وأبغضهم عند الله من طال عمره وساء عمله، ولذلك فحسن الخاتمة من علامات قبول الله تعالى للعبد؛ فقد سأله أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله مَن خير الناس؟ ، قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»، ثم سأله: مَنْ شَرُّ الناس؟، قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**»[٢].

وسوف نُعرج فيما يَلي على باقة من النماذج التي أذهلت الدنيا بأسرها فوقعت العقول عاجزة عن فهم وإدراك ما وصلت إليه تلك النماذج المشرقة المشرفة.

ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر؛ الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري الذي استقبل رسول الله ﷺ حين قَدِم إلى المدينة واستضافه وكان له الشرف بإقامة النبي ﷺ عنده قرابة السبعة أشهر.

ولقد عمَّر بعد موت النبي ﷺ حتى بلغ الثمانين من عمره؛ فلما علم بخروج الجيش الإسلامي لفتح القسطنطينية طلب منهم أن يأخذوه

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١١٨٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح وضعيف الجامع» (٣٠٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٣٠) كتاب الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

معهم، فقالوا له: لا تشقَّ على نفسك فأنت لا تستطيع أن تسير على قدميك، فقال لهم: احملوني على فرسٍ ثم اضربوه وتوغلوا بي في صفوف الروم حتى إذا وصلت إلى أسوار القسطنطينية فادفنوني تحت تلك الأسوار، وقد كان له ما أراد؛ فقد مات أو استشهد -على خلاف بين الروايات- هناك -رضي الله عنه ورحمه الله رحمة واسعة-.

وهذا موسى بن نصير -الشيخ الكبير- الذي فتح بلاد الأندلس وبلاد المغرب الأقصى وهذا أبو عثمان المهدي أتدرون كم سنة عاش؟ لقد عاش مائة وثلاثين سنة؛ فقد أدرك الجاهلية والإسلام، وكان يقول: «ما من شيء إلا وقد أنكرته إلا همتي»، يعني: بلغ من الكبر عتيا حتى خارت قواه ورقَّ عظمه واحدودب ظهره ولكن بقيت همته كما هي؛ فلقد حفظها الله -تبارك وتعالى -عليه لأنه استعملها في ما يُرضيه ﷻ ...

ولقد شهد أبو عثمان معركة اليرموك وتُستر ونهاوند وأذربيجان، وقيل إنه حج ستين مرة ما بين حج وعمره فلم يُعلَم عنه أنه تأخر يومًا عن بيت الله الحرام.

وهذا أبو إسحاق السبيعي الذي بلغ من العمر ثلاثة وتسعين عامًا قضاها جميعًا في طاعة الله؛ فقد كان يختم القرآن مرة كل ثلاثة أيام حتى مات، وكان يقوم الليل بنصف القرآن على الأقل -حتى أنه في آخر أيامه كان يقول: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون..ضاعت الهمم، والله ما أستطيع أن أصلي الآن في ركعتين من قيام الليل إلا بالبقرة وآل عمران!!».

فماذا يقول أمثالنا؟ والله إن الواحد ليتصبب عرقًا من الخجل عندما يسمع هذه الأخبار، ولكن عزاؤنا أننا نحب هؤلاء ونسأل الله تعالى أن

يجمعنا بهم وأن يحشرنا معهم يوم القيامة في جنته ودار كرامته وإن لم نعمل بعملهم.. اللهم آمين.

وهذا الإمام الطبري صاحب التفسير المشهور -رحمه الله تعالى- جمع تلامذته يومًا وقال لهم: «هل لكم من همة في تفسير القرآن؟»، قالوا: أجل -هو يقول وهم يكتبون- ولكن في كم سنكتبه؟ قال: «في ثلاثين ألف صفحة»؛ فقالوا: إن هذا مما تفنى دونه الأعمار- أي: تنتهي الأعمار دونه-؛ فقال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ماتت الهمم؛ أكتبه في ثلاثة آلاف»؛ فكتبوه، وبعد ذلك بفترة قال لهم: «هل لكم في كتابة التاريخ؟»؛ فقالوا: أجل ولكن في كم؟ فقال: «في ثلاثين ألف صفحة»؛ فقالوا: إن هذا مما تفنى دونه الأعمار؛ فقال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ماتت الهمم؛ أكتبه في ثلاثة آلاف»؛ فكتبوه.

وحُكي عنه -رحمه الله تعالى- أنه كان مع تلامذته ذات يوم في نزهة فقفز قفزة كبيرة، -وكان طاعنًا في السن- من فوق صخرة عالية؛ فقالوا له: يا إمام.. ماذا تصنع؟! فقال: إنها جوارح حفظناها في شبابنا فحفظها سبحانه لنا في الكبر.

ومن مشايخنا في العصر الحديث الذين لا نزكيهم على الله ونحسبهم على خير الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- كان يجلس بعد صلاة الصبح يوميًّا لمدة تزيد عن ثلاث ساعات يشرح ثلاث كتب؛ حتى أن تلامذته أنفسهم كانوا يتعجبون من صبره على هذه الهيئة في حين لا يستطيعون ذلك.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذهب بعد ذلك إلى عمله؛ فيدخل بكل تواضع ليصافح

الموظفين جميعًا، ويهش ويبش لهم، ويستقبل المكالمات من جميع أنحاء العالم ويُفتي الناس ... فاللهم ارحمه رحمة واسعة.

وكذلك كان الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي ظل يعلم الناس ويلقي الدروس والمحاضرات حتى آخر لحظة في عمره؛ لدرجة أنه كان في الحرم يعطي دروسه وقد عُلقت له المحاليل وقد أدخل بعضهم إليه الميكرفون حتى يلقي محاضرته وينفع الناس بعلمه.

وهذا هو الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ظل حتى آخر لحظة في حياته يعمل في تحقيق أحاديث رسول الله ﷺ وتنقيحها حتى يطهر هذا النبع الصافي من كل شائبة قد يلقي بها أعداء الإسلام ليصرفوا الناس عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

* والسؤال: هل علت عمة الشيوخ وكبار السن؟ فضلًا عن همة غيرهم من الشباب ممن يقرأون هذا الكلام من باب أولى؟

نسأل الله -جل وعلا- أن يرزقنا وإياكم الهمة والهمَّ للحركة لهذا الدين لنكون سببًا في إظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون، وأن نكون أهلًا لأن يستعملنا الله -جل وعلا- فيما يرضيه، وما تقر به أعيننا من نصر هذه الأمة وإعادة سابق مجدها وعزها إن ربنا على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير.

* * *

علو الهمة في طلب العلم

*** إنما يخشى الله من عباده العلماء:**

العلم علمان؛ علم بالله: أي بأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلم بحدود الله، أي: بالحلال والحرام، وكلاهما مطلوب ومأمور به، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى رضا الله تعالى إلا بطاعته وعبادته، ولا يكون ذلك إلا بالتسلُّح بالعلم.

وكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وهذه الخشية هي التي توجب له البُعد عن المعاصي والإقبال على الطاعات والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا من آكد الأدلة على فضيلة العلم، فهو داعٍ إلى خشية الله.

وأهل خشيته سبحانه هم أهل كرامته كما قال ﷻ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[1].

والعلم الشرعي غايته البيان والتبليغ ... وتوحيد الله -تعالى- وعبادته هما غاية البيان والتبليغ؛ فالغاية من العلم -وفقًا لهذا المعنى- هي توحيد الله ﷻ وعبادته.

والأولى بمن نصَّب نفسه للعلم وتصدَّى له -سواء كان عالمًا أو متعلمًا- أن يظهر عليه أثر التوحيد والعبادة، والذي لا يكون إلا بالتسليم الكامل للشرع الحنيف من كتاب وسُنة.

---

(١) سورة البينة: الآية: (٨).

*** العلم بالله تعالى أصل كل العلوم:**

وهذا معناه أن العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته هو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته ... والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح.

فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته وهلاكه، ولا يتم للعبد هذا العلم إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهما النبع الصافي لكل خير على وجه هذه البسيطة.

وبالجملة: فينبغي لطالب العلم أن يصرف همَّه، ويُوجِّه همَّتَه إلى علوم القرآن والسنة على وجه الخصوص، فالعلم بهما هو العلم بالحق، ولذلك نُوجِّه هذه النصيحة الغالية لكل من طرق هذا المجال وتصدى له كما يقول ابن القيم:

يا أيها الرجل المريد نجاته ... اسمع مقالة ناصح معوانِ
كن في أمورك كلها متمسكًا ... بالوحي لا بزخارف الهذيانِ
وانصر كتاب الله والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقانِ
واصدع بما قال الرسول ولا تخف ... من قلة الأنصار والأعوانِ
وتعرَّ من ثوبين مَن يلبسهما ... يلقى الردى بمذمة وهوانِ
ثوب من الجهل المُركَّب فوقه ... ثوب التعصب بئست الثوبانِ
واجعل شعارك خشية الرحمن مع ... نصح الرسول فحبذا الأمرانِ
وتمسكنَّ بحبله وبوحيه ... وتوكلن حقيقة التكلانِ

نعم إذا أردت عز الدهر، وخيري الدنيا والآخرة فعليك بالقرآن ... هذا الكتاب المُعجِز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وعليك بسنة المعصوم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، فعضَّ عليهما بالنواجذ.

فأصل العلم ومعدنه كتاب الله ﷻ، وما جاء في الوحي الثاني وهو سنة النبي ﷺ فالبدار البدار إليهما، والحرص الحرص عليهما، فهما واحة الأمن، وملاذ الراحة، وهما الظل الظليل، وحبل الله المتين.

ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول:

كل العلوم سوىٰ القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدينِ
العلم ما كان فيه قال حدَّثَنا ... وما سوىٰ ذاك وسواس الشياطينِ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولوا العرفانِ
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلانِ

ومن رام العلم بعيدًا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد رام المستحيل، ومن أخذ بغيرهما استغناء عنهما فقد ضل سواء السبيل، وتنكَّب طريق عباد الله الصالحين؛ فهما البُرء من الجهل ودواؤه وهما العافية من العي وشفاؤه؛ ورحم الله العلامة ابن القيم إذ يقول:

والجهل داءٌ قاتلٌ وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقانِ
نَصٌّ من القرآن أو من سُنة ... وطبيب ذاك العالم الربانِ
والعلم أقسامٌ ثلاثٌ ما لها ... من رابعٍ والحق ذو تبيانِ

علـمٌ بأوصـاف الإلـه وفعلـه	وكـذلك الأسـماء للـرحمنِ
والأمـر والنهـي الـذي هـو دينـه	وجـزاؤه يـوم المعـاد الثـانِ
والكـل في القـرآن والـسنن التـي	جـاءت عـن المبعـوث بالفرقـانِ
والله مـا قـال امـرؤٌ متحـذلقٌ	بـسواهما إلا مـن الهـذيانِ

*** العلم والمال..أيهما أقرب نفعا؟**

قضت حكمة العليم -جل وعلا- أن يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لم يحب ولكنه سبحانه لا يعطي الدين إلا لمن أحب.

ولذا قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1]؛ فهذه الدنيا لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة، ولو كانت كذلك ما سقى كافرًا منها شربة ماء، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال -جل وعلا-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[3].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٣١٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

(٢) سورة هود: الآيتان: (١٥، ١٦).

(٣) سورة الإسراء: الآيات: (١٨-٢١).

إذا كان الأمر على نحو ما سبق؛ أليس من الحكمة أن نقدم الباقي على الفاني؟

ولكن مَن هم أهل الحكمة إن لم يكونوا أهل العلم المشتغلين بتحصيله وتبليغه للناس، وأن الذي يجهل حقيقة الدنيا ويراها على صورتها المجردة من الزينة والزيف والخداع لابد ولا شك أن يقع في أوحالها ويغتر بها، وهذا مما حذرنا منه ربنا في كتابه العزيز حين قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾(١)؛ فالمغرور مَن غرَّته الدنيا فلهث في طلبها.

ولذلك فالناس وفقًا لهذا المعنى على أربعة أقسام كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**»(٢).

أرأيت حبيبي في الله كيف أن المال الذي هو في أصله من أجلِّ نعم الله

---

(١) سورة لقمان: الآية: (٣٣).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٥) كتاب الزهد، وأحمد في «المسند» (١٧٥٧٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

على عباده قد ينقلب نقمة وسببًا للهلاك في الدنيا قبل الآخرة، ولكن في غياب العلم الذي يدفع صاحبه إلى شكر نعمة ربه عليه باستعمالها في مراضيه، ولذا فإن العلم يُخلد ذكرى صاحبه وليس العكس صحيحًا، فالعلم خير من المال ولا شك، فأنت تحرس المال وأما العلم فيحرسك وهذا مما جعل الأئمة الأعلام على الرغم من ثرائهم لم يشتهروا بالتجارة وأعمالها، وإنما اشتهروا بالعلم فهذا موسوعة في الفقه، وهذا أمير المؤمنين في الحديث، وهذا جهبذ التفسير..وهكذا.

وأنت حين تطلب العلم وتشتغل به فإن هذا ليس تفضُّلًا منك وإنما يلزمك أن تتعلم من الدين ما تستقيم به عبادتك، وعقيدتك وهو ما يُعبر عنه بأنه من المعلوم من الدين بالضرورة؛ بحيث لا يُتصور أن رجلًا مسلمًا قد ينكر شيئًا منه ومن ثم فلا يُعذَر بالجهل في مسألة من مسائله، وهذا وأمثاله من فروض الأعيان بحيث يجب على كل مكلف أن يحيط به وأن يفهمه فهمًا صحيحًا لا لَبس ولا خلط فيه.

أما فروض الكفاية، والتي إن قام بها البعض سقط عن الآخرين؛ فهو يتعلق بأهل التخصص المتصدرين للإفتاء وتعليم الناس أمور دينهم كمن يتخصص في علم الحديث أو التفسير أو أصول الفقه، ولذلك قال -جل وعلا-: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١].

وما يدلل على فضل العلم ومكانته التي لا تعدلها مكانة أن الله -تبارك وتعالى- لم يأمر نبيه ﷺ بأن يتزود من شيء إلا من طلب العلم،

(١) سورة التوبة: الآية: (١٢٢).

وكيف لا وهو السبيل الآكد لمعرفة الطريق الموصلة إلى رضا الله -جل وعلا-، وحصول سعادة الدارين؟ وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو مما يوصل صاحبه إلى جنة الرحمن جل جلاله؟ ألم تسمع قوله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»[١]. [٢].

* كان لزامًا علينا قبل الحديث عن نماذج من صور أصحاب الهمة العالية أن نبين مرتبة العلم وأهميته وأنه بمثابة الرأس من الجسد في ديننا الحنيف إذ به يعرف المرء ربه ومولاه، ويعلم مراده من كلامه فيمتثل الأمر ويبتدره ويكون أبعد الناس عن ما حرمه الله ورسوله فتُكتب له النجاة في الدنيا من المعاصي والشهوات والشبهات وفي الآخرة ببلوغ أعلى المنازل والدرجات.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) يقول ابن الجوزي في كتابه الماتع «صيد الخاطر»:

دعوت يومًا فقلت: اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل، وأطل عمري لأبلغ ما أحب من ذلك فعارضني وسواس من إبليس، فقال: ثم ماذا ؟ أليس الموت ؟ فما الذي ينفع طول الحياة ؟ فقلت له: يا أبله. لو فهمت ما تحت سؤالي علمت أنه ليس بعبث؛ أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي فتكثر ثمار غرسي، فأشكر يوم حصادي ؟ أفيسرني أنني مت منذ عشرين سنة ؟ لا والله؛ لأني ما كنت أعرف الله تعالى عُشر معرفتي به اليوم، وكل ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاع البصيرة، واطلعت على علوم زاد بها قدري، وتجوهرت بها نفسي، ثم زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتي في إنقاذ المباضعين من المتعلمين.

وقد قال الله لسيد المرسلين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**» [صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢)، وأحمد في «المسند» (٢٧٤٠٦)]؛ فيا ليتني قدرت على عمر نوح فإن العلم كثير فكلما حصَّل منه حاصل رفع ونفع.

وإذا كان ما ذكرناه عن العلم والعلماء من الفضل الذي لا يدانيه فضل ومن العاقبة التي يتمنى كل عاقل أن يُختَم له بها فليس بمُستغرب أن نسمع ونرى من الأمثلة التي تفوق الخيال في الهمة لطلب العلم ... وحسبنا أن نشير إلى ذلك إشارة سريعة بحيث تتم الفائدة؛ فهذا موسى عليه السلام كليم الله، وأحد أولي العزم من الرسل وأكثر الأنبياء والرسل ذكرًا في القرآن..صار تابعًا لمن؟ للخضر عليه السلام وهو على أصَحِّ الأقوال نبي من أنبياء الله تعالى، ولكن الله -جل وعلا- فضَّل موسى عليه، كما قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾(١) .

وهذا على سبيل العموم ولكن لما كان الأمر متعلقًا بطلب العلم وتفضيل العالم على غيره..كان على موسى عليه السلام أن يكون في مقام المتعلم على ما يستتبعه ذلك من التواضع والتأدب مع من يتعلم منه، وأنتم جميعًا تعلمون قصته التي ورد ذكرها مع الخضر في سورة الكهف.

*** رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله:**

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له جار من الأنصار يشاركه تجارته، فاتفقا عند خروج أحدهما لطلب الرزق أن يجلس الآخر بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يطلب العلم، ثم إذا كان آخر اليوم تقاسما ما رزقهما الله إياه وعلَّم أحدهما الآخر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* وهذا حَبر الأمة وترجمان القرآن الذي أصابته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم: **«اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»**(٢). إنه الصحابي الجليل عبد الله بن

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٢٣٩٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٨٩).

عباس -رضي الله عنه وعن أبيه-، والذي يرى سيرة هذا الرجل يرى العجب العجاب، حتى قال أحد الصحابة: «والله لو اجتمعت الفرس والروم عن بكرة أبيهم واستمعوا لابن عباس لأسلموا من فورهم».

وقيل أنه ظل يخطب في الناس من الظهر إلى المغرب لا يقطع ذلك إلا الصلاة يُعلمهم أمور دينهم ويُفتيهم ويذكِّرهم بالله تعالى؛ فكان -رضي الله عنه- من أكثر الصحابة وأغزرهم علمًا.

* وهذا معاذ بن جبل الذي حظى بوسام الشرف من المرتبة الأولى وهو الذي لم يجاوز الثالثة والثلاثين من عمره؛ فقد قال ﷺ في حقه: «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

وأما أبو هريرة رضي الله عنه؛ فهذا الصحابي الأكثر ملازمة للنبي ﷺ ورواية عنه على الرغم من أنه لم يزد في مرافقته للنبي ﷺ عن أربع سنوات، ولكنها الهمة الفولاذية، ولذا لما راح أعداء الإسلام ينسبون من الأحاديث لأبي هريرة ما لم ينزل الله به من سلطان، ولم تفلح حيلتهم ودحضهم الله تعالى وبيَّن مرادهم وأبطل مكرهم، لم يجدوا بُدًّا من التشكيك في عدالته وراحوا يسبُّونه ويرمونه بالتُّهم المُعلَّبة من كل نوع زورًا وبهتانًا، ولكن الله تعالى ينصر دينه ويحول بين هؤلاء وبين ما يحيكون لهذه الأمة..والله من ورائهم محيط.

ولا نزال -أحبتي في الله- مع أصحاب النبي ﷺ خير القرون.

فهذا جابر بن عبد الله يرحل من المدينة إلى بلاد الشام ليسمع حديثًا واحدًا لم يسمعه من النبي ﷺ!

أتقول حديثًا واحدًا؟؟!!!

نعم..ذهب إلى عبد الله بن أُنيس فسمع منه الحديث ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى، أي همة هذه بالله عليكم؟!

وهذا أيضًا ما فعله أبو أيوب الأنصاري لما سافر إلى عقبة بن عامر في مصر..لماذا؟ ليسمع حديثًا لم يسمعه من رسول الله ﷺ.

إذا كان هؤلاء على مثل هذه الدرجة العالية من الهمة في طلب العلم..فأين نحن منهم؟

وأكاد أجزم بأن كثيرًا من بيوت المسلمين فيها من الكتب الصحاح التي قاسى أصحابها في جمعها وتصحيحها ما لا يعلمه إلا الله.

فكم سهروا الليالي الطوال في تحصيله؛ فحافظوا عليه ونشروه في ربوع الدنيا؛ فلماذا نزهد فيه ونُعرض عنه؟؟

وإذا قال قائل: هؤلاء هم الصحابة؛ فأين لنا أن نصل إلى هممهم وقد كانوا يرون النبي ﷺ رأي العين، وتربطهم بالسماء ونزول الوحي أقوى الروابط وأوثق العُرى؟

فنقول له: لا تزال الأمة مليئة بمثل هذه الصور المشرقة، وما عقمت أرحامها أن تلد لنا مثل هؤلاء، وإليك بعض النماذج من التابعين الذين ساروا على نهج أسلافهم فَعَلَا شأنهم وسطع نجمهم في سماء الهمم العالية.

فهذا هو الإمام عبد الرحمن بن القاسم..كان من أنجب طلبة العلم وقد ترك زوجته وهو حامل ورحل إلى المدينة المنورة ليطلب العلم على الإمام مالك -رحم الله الجميع- فشغله طلب العلم حتى صار له سبعة عشر سنة، لم يرَ فيها زوجته ولا ولده؛ فإذا به بعد هذه السنين يرى

شابًّا وسيمًا عليه من الهيبة والوقار ما عليه ... فإذا به يسأل: أين عبد الرحمن بن القاسم؟ وكان ذلك في مجلس الإمام مالك؛ فقال له: ماذا تريد منه؟ قال له: هل أنت هو؟ قال: أجل، قال أنا ولدك الذي تركتني حملًا في بطن أمي وقد أتيت على إثرك لأطلب العلم..فبكى ابن القاسم بُكاءً شديدًا واحتضنه.

وليس الذي يجري من العين ... ولكنها روح تسيل فتقطُرُ

* وهذا هو الإمام النووي الذي ملأ الدنيا بعلمه، ولم يجاوز عمره فيها الخامسة والأربعين ولكنها الهمة؛ فلقد صنَّف من الكتب ما عَمَّ به النفع على المسلمين في كل أقطار الدنيا، ولا أرى إلا أن الله تعالى قد ادَّخر هذا الرجل لعلم شريف ليُصنِّف ما يربو على خمسين كتابًا في هذا المجال وغيره من العلوم الشرعية التي لا يستغنى عنها كل مسلم، وتقدم على جميع أصحابه من طلبة العلم، ولقد قيل أنه كان يقرأ على المشايخ شرحًا وتصحيحًا كل يوم اثني عشر درسًا موزعة بين كتب (الوسيط، والمهذب، والجمع بين الصحيحين، واللمع، وإصلاح المنطلق، وأصول الفقه..وغير ذلك).

فرحم الله الإمام النووي وجزاه عن المسلمين خير الجزاء، وجعل ما خطَّت يمينه في ميزان حسناته.

* وهاكم الإمام البخاري والذي وصفه ولقَّبه أهل العلم عن جدارة واستحقاق بلقب «أمير المؤمنين في الحديث» وكيف لا، وهو الإمام العالم العَلَم الذي صنَّف كتابًا هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى؟

فلقد قال: «ما وضعت فيه حديثًا إلا واغتسلت وصليت ركعتين».

ويقول الإمام الذهبي: «لو أن رجلًا سار سنة كاملة ليُحصِّل حديث البخاري لم يكُ مفرطًا ولا مضيعًا لوقته؛ فإن ذلك مما يستحق مكابدة المشاق في تحصيله».

ومن الأمور العجيبة التي تبين جانبًا مما كان عليه هذا الرجل من الهمة، وما حباه الله من الذكاء وقوة الذاكرة؛ أنه كان معه بعض الطلبة من أقرانه وأصحابه، فكانوا يكتبون ما يسمعونه من الأحاديث ولا يكتب؛ فقالوا له: إنك قد ضيعت وقتك فيما لا طائل من ورائه ونراك قد فرطت في طلب العلم، وسيضيع عمرك هباءً؛ فقال لهم: «وكيف ذلك؟»، فقالوا: نحن نكتب هذه الأحاديث فلِمَ لا تكتبها كي تحفظها؟ فقال لهم: «كم حديثًا كتبتم؟»؛ فقالوا: خمسة عشر ألف حديثا، فقال: «والله لقد حفظتها جميعًا»؛ ثم راح يسردها عليهم حتى رواها بإسنادها ومتنها كاملة ... ولله في خلقه شئون وشئون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن الأخبار العجيبة أيضًا فيما يتعلق بقوة حفظه وقدرته على التحصيل بصورة ليس لها مثيل ... فلقد رحل الإمام البخاري إلى بلدة تُدعى «مقدار» فاجتمع أهل الحديث، واحتالوا حيلة ليتأكدوا مما سمعوه عن هذا الإمام الفذ؛ فأحضروا مائة من طلبة العلم فحفظ كل واحد منهم حديثًا من أحاديث النبي ﷺ سندًا ومتنًا ولكنهم عند إلقائها على سمعه غيَّروا في السَّند، وقالوا للإمام البخاري: نريد أن نعرض عليك بعضًا من أحاديث النبي ﷺ لنقف على صحتها، فقال: أجل - وكان ذلك في مشهد عظيم من الناس-.

فأخذ هؤلاء الطلبة يسردون الأحاديث على الإمام الواحد تلو

الآخر، والإمام البخاري كلما سمع حديثًا قال: لا أعرفه ... وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: لقد فهم الرجل ... ومن كان لا يدري ماذا حدث كان يتهم البخاري بالعجز وقلة الحفظ ... فلما فرغ الطلبة من إلقاء الأحاديث على الإمام البخاري التفت الإمام إليهم وقال: أما الحديث الأول فقد قال فيه: هذا الرجل سنده عن فلان عن فلان، وإن هذا السند ليس بصحيح، وإنما الصحيح أنه روى عن فلان عن فلان، ثم أخذ يعيد الأحاديث المائة بسندها الصحيح..وذلك في التو واللحظة.

فأي بركة وأي كرامة تلك التي جعلها الله لهذا الرجل؟ إنها التقوى والعمل الصالح الذي لا يعرف هذا الملل والراحة والدعة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1].

هذا قليل من كثير من النماذج التي سقناها لتعلو هممنا في طلب العلم الذي كلما ارتقينا في تحصيله والعمل به ونشره بين الناس، كلما علت منزلتنا في جنة الرحمن -جل وعلا- نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يعلمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

*** أعلام الموقعين عن رب العالمين:**

العلماء هم الذين يوقعون عن الله وعن رسوله ﷺ ومن ثَمَّ فإن بين أيديهم أمانة عظيمة تنوء الجبال الرواسي بحملها فليس لأحدٍ كائنًا مَن كان أن يتصدى لذلك إلا أن كان على قدر من العلم الشرعي مما يسمح له بذلك.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٨٨).

وتعالوا بنا لنخوض في غمار هؤلاء السابقين ونستعرض سويًا تلك النماذج التي هي أندر من الكبريت الأحمر مما يحفز الهمم ويشعل الحماس في القلوب والنفوس لتدارك ما فات والتشمير لمواكبة الرَّكب والمنافسة على أعلى منازل الجنان.

* فهذا أحد سلفنا الصالح الذي كتب عن أكثر من ألف شيخ من شيوخه وكانوا جميعًا رجالًا ثقات عدولًا وظل يطلب العلم قرابة الثلاثين سنة ويشتغل بالتصنيف والتدوين لسنة النبي ﷺ، حتى قيل أنه عمي بصره من فرط ما كان يقضي من الليل في الكتابة والاطلاع على أمهات الكتب.

فنام ذات ليلة وقد أخذ منه الحزن كل مأخذ..لا لأنه عمي بصره وحُرم من متعة النظر إلى الأشياء وإنما لأن ذلك كان يمثل بالنسبة إليه حجر العثرة، وعقبة كوود في سبيل طلبه للعلم فضلًا عن نشره بين الناس؛ أتدرون من هو؟

إنه يعقوب بن سفيان، يقول: فنمت في تلك الليلة وأنا في غاية الحزن والأسى؛ فجاءني النبي ﷺ في المنام؛ فقال: ما لك يا يعقوب؟ فقلت: حزين يا رسول الله، قال: ولِمَ الحزن؛ قلت: لأنني فقدت بصري وكنت أود أن أكتب سُنتك؛ فقال: أدنُ مني؛ فدنوت(١) منه فوضع يده الشريفة على عيني، وتَفَل فيها.

فلما قمت من نومي فإذا بي قد صرت بصيرًا؛ فعكفت بعد ذلك على

---

(١) اقتربت منه.

كتابة سنة النبي ﷺ، وكرَّست حياتي كلها في سبيل ذلك ... إنها الهمة العالية والنية الصادقة والعزيمة التي لا تلين؛ فيا ليت شعري من لنا بمثل واحد من هؤلاء.

* وهذا بقي ابن مخلد وكان عَلَمًا من أعلام بلاد الأندلس ولقد قال عن نشره العلم في بلاد الأندلس: «والله لقد غرست لهم غرسًا لا يُقلَع أبدًا إلا بخروج الدجال».

وكانت له قصة جميلة وهي متعلقة بمحنة إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن، وقد مَنعه الخلفاء من إلقاء دروسه، ومن إفتاء الناس وحُبس في بيته بعد أن لقي من التعذيب والتنكيل ما الله به عليم.

وكان ابن مخلد في طريقه من بلاد الأندلس إلى بلاد العراق ليطلب العلم فكان يسير بمحاذاة الساحل وذلك لفقره الشديد فكان إذا جاع اصطاد سمكًا، أو أكل عُشبًا ليتقوى به على المسير وقد تزامن وصوله مع محنة الإمام فسأل عن داره فدُلَّ عليه؛ فلما طرق الباب قال له الإمام أحمد: من أنت؟ قال: أنا ابن مخلد جئتك من بلاد الأندلس لأطلب العلم على يديك.

فقصَّ عليه الإمام القصة فاسترجع، وقال: وما الحيلة؟ فقال له الإمام: لقد خطرت لي فكرة: أن تأتيني في كل صباح وكأنك سائل، وتقول: الأجر يرحمك الله؛ فأقرأ عليك بعضًا من حديث رسول الله ﷺ؛ فتحفظها ثم تنصرف على عَجَل، وقد كان إلى أن أذن الله تعالى بانفراج المحنة عن الإمام أحمد فكان إذا جلس في مجلسه يُقرب ابن مخلد،

ويقول: هذا هو طالب العلم.

والسؤال: إذا كان هؤلاء على ما كانوا عليه من الفاقة والفقر الشديد قد بذلوا وضحُّوا في سبيل تعلم وتعليم حديث رسول الله ﷺ فأفنوا أعمارهم في ذلك؛ فأين نحن وقد يسَّر الله لنا من وسائل العلم ما لم يخطر لأحدٍ على بال؟ ولكنها الهمم وتصريفها ولما انصرفت همم كثير من الناس للدنيا وتحصيلها كان ذلك من أعظم الأسباب التي أدَّت إلى تلاشي مثل هذه النماذج التي تفوق الخيال.

ولكن عزاؤنا أن هذه الأمة لا تزال ولَّادة ولن ينضب مَعينها من أمثال هؤلاء حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

* وهذا هو الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول حفيده: «لقد رأيت جدِّي واقفًا على هذا المنبر وهو يقول: والله لقد كتبت بإصبعي هاتين أكثر من ألفي مجلدًا».

فأي بركة هذه؟ ومن أين كان يأتي هذا العالم الجليل بوقت ليكتب هذا العدد الكبير من المجلدات؟

إن هذا والله لمحض فضلٍ وعونٍ من الله تعالى..زِد على ذلك أنه قد تاب على يديه أكثر من مائتي ألف مسلم وأسلم على يديه أكثر من مائتي نفس، أتدرون بعد هذا كله ما قال وهو في سكرات الموت؟

قال: «إلهي وسيدي ومولاي إن عذبتني غدًا فلا تخبرهم بعذابي لئلا يقولوا: عذَّب الله من دعا إليه»؛ فبالله عليكم ماذا نقول نحن المفرطون المضيعون الظالمون لأنفسهم؟!

* وهذا هو الإمام الشافعي..وما أدراكم ما الشافعي؟

إنه الذي حفظ القرآن كاملًا وهو ابن سبع سنين وحفظ موطأ الإمام مالك وهو ابن عشر سنين وصار إمامًا علمًا وهو لم يبلغ من العمر سوى أربعة عشرة سنة، وكان يقول الإمام أحمد عنه: «الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للأبدان».

وكان سبب تلك المقولة أن سأل ابن الإمام أحمد أباه فقال: يا أبتِ..إني أسمعك دائمًا تدعو للشافعي؛ فقال: «يا بني..إن الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للأبدان».

ولكم أن تتخيلوا هذا المعنى الجميل، والتصوير البديع؛ فكما أنه لا حياة للأبدان بغير عافية ولا حياة للمخلوقات بغير شمس؛ فإنه لا غنًى للناس عن مثل الشافعي لما حباه الله تعالى من ذكاء عجيب وذهن صافٍ وذاكرة فولاذية ونبوغ فريد من نوعه.

* وهذا هو الإمام أحمد بن حنبل الذي لُقِّب بإمام أهل السنة والجماعة عن جدارة واستحقاق..ولِمَ لا؟ وهو الذي لما سُئل: إلى متى تطلب العلم يا إمام؟ فكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبارته الشهيرة: «مع المحبرة إلى المقبرة».

* وقد قيل أن أحدهم كان لا يأكل الخبز طريًا وإنما كان يجففه ويدقه ثم يسفُّه ويشرب بعده قليلًا من الماء؛ فلما قالوا له: يا إمام لِمَ لا تأكل اللين من الخبز؛ فإنه أهنأ وأمرأ؟ فكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «إن ما بين مضغه وسفِّه قراءة خمسين آية من كتاب الله».

إلى من يضيعون أوقاتهم بل ويُفنون أعمارهم في ما لا طائل من ورائه من سفاسف الأمور ودناياها نوجِّه هذه الرسالة ... فمن الشباب من

تنحصر اهتماماته في سهرة أو لغوٍ أو مشاهدة الفضائيات على ما تعرضه من الفتن التي هي كقطع الليل المظلم وهم بذلك بلا أدنى شك مخدوعون مغبونون بنص حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[1].

فالوقت هو رأس مال المسلم والذي إن ضاعت منه لحظة فلن تُعوَّض أبد الدهر وما من يوم ينشق فجره إلا وهو ينادي على ابن آدم: «يا ابن آدم أنا يومٌ جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإني لا أعود إلى يوم القيامة»، وهذا هو الإمام الحسن البصري يقول: «يا ابن آدم إنما أنت أيام إذا ذهب يومك ذهب بعضك».

فهلا حفظنا أوقاتنا حتى لا نندم في يوم لا ينفع فيه الندم؛ فالدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل، وما من أحد يفارق الحياة الدنيا إلى الآخرة إلا وتمنَّى أن لو عاد إلى الدنيا مرة أخرى صالحًا كان أو غير ذلك.

أما الصالح فرغبة في علو منزلته وأما الطالح فرغبة في التوبة والإنابة إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) سورة فاطر: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١).

نسأل الله لنا ولكم العافية من أن نكون في مثل حال هؤلاء ولاسيما إن كنا في سعة من الوقت والعافية لنتدارك ما فاتنا من الخير.

وللنساء دور لا يُستهان به في طلب العلم بل وفي تعليمه للناس.

فقد جاء في الصحيحين أن النساء ذهبن إلى النبي ﷺ؛ فقالت إحداهن: يا رسول الله ذهب الرجال بالحديث فاجعل لنا يومًا لنتعلم فيه؛ فقال: «**اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا فَاجْتَمَعْنَ**»(٢).

ولا أفضل ولا أروع من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مثالًا في السبق إلى العلم؛ فهي العالمة الزاهدة التي روت عن رسول الله ﷺ أكثر من خمسة آلاف حديث.

وقال الإمام الزهري في حقها: «لو جُمع علم عائشة إلى علم نساء العالمين لكان علم عائشة أفضل».

وقال الإمام مسروق رحمه الله: «لقد رأيت مشيخة أصحاب النبي ﷺ يسألون أُمنا عائشة عن الفرائض».

ومما يدلل على دور المرأة أن الإمام ابن عساكر رحمه الله كان له من شيوخه الذين أخذ عليهم العلم أكثر من ثمانين امرأة..كان يتلقى العلم عليهن من وراء حجاب.

وكذلك كان الإمام ابن القيم وابن تيمية.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان: (٩٩، ١٠٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣١٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (٢٦٣٤) كتاب البر والصلة والآداب.

حتى أنه من الروايات العجيبة أن الإمام مالك كانت له ابنة عالمة فكان كلما جاءه طالب من طلابه ليقرأ عليه شيئًا مما يحفظ من الموطأ كانت إذا أخطأ هذا الطالب تصفق من وراء حجاب فيقول له الإمام: حسبُك ويأمره بالإعادة.

ومن عجائب سير نساء العالمين ما كان من خبر فاطمة بنت الإمام العلم علاء الدين السمرقندي -صاحب كتاب تحفة الفقهاء- وكان له تلميذ من أنجب تلاميذه اسمه أبو بكر الكاساني وقد ألَّف كتابًا سمَّاه «البدائع» شَرَح فيه كتاب «تحفة الفقهاء» فلما رآه أستاذه واطلع عليه ورأى ما فيه من الفوائد أُعجب به كثيرًا فطلب تلميذه أن يتزوج ابنته فقال له شيخه علاء الدين: قد رضينا أن يكون الكتاب مهرًا لابنتي.

وكانت الفتوى تصدر قبل زواجها مُذيلة بتوقيع علاء الدين السمرقندي، وأبي بكر الكاساني، ثم لما تزوجها زادت توقيع فاطمة بنت علاء الدين السمرقندي..فيا له من شرف ويا لها من مكرمة!!

*** طلب العلم..الغاية والوسيلة:**

لا ينكر فضل العلم والعلماء إلا جاحدٌ مكابر؛ فالعلم هو الطريق الموصل إلى أعلى مراتب العبادة فهما -أي العلم والعبادة- وجهان لعملة واحدة لا غنًى لأحدهما عن الآخر ولكن يبقى للعلم فضله ولذلك قال ﷺ: **«فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»**[1].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٨٢) كتاب العلم، وأبو داود (٣٦٤١) كتاب العلم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع (٦٢٩٧).

وقد قال ابن الجوزي في كتابه الماتع «صيد الخاطر» كلامًا هو أحلى من العسل، قال: «ومن أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزُّهَاد فلينظر في رتبة جبريل وميكائيل ومَن معهم ممَّن خصَّهم الله بولاية تتعلق بالخلق وباقي الملائكة قيام للتعبد في مراتب الرهبان في الصوامع وقد حظي أولئك بالتقريب على مقادير علمهم بالله فسبحان من خصَّ فريقًا من عباده بخصائص شُرِّفوا بها على جنسهم ولا خصيصة أشرف من العلم بزيادة صار آدم مسجودًا له وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة؛ فأقرب الخلق من الله العلماء، وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به؛ فكلما دَلَّه على فضل اجتهد في نيله وكلما نهاه عن نقص بالغ في تجنُّبه؛ فحينئذ يكشف العلم له سره، ويسهل عليه طريقه، فيصير كمجتذب يحث الجاذب فإذا حركه عجل في سيره، والذي لا يعمل بالعلم لا يُطلعه العلم على غوره ولا يكشف له عن سره، فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه؛ فافهم هذا المثل وحسِّن قصدك وإلا فلا تتعب».

وأظن أن فيما تقدم من الإجابة على السؤال: هل العلم غاية أم أنه وسيلة لغاية عظمى؟

فالعلم مع العمل كجناحي طائر لا يمكنه أن يُحلِّق في الجو بأحدهما دون الآخر.

*** العلم والعمل قُرناء:**

نعم فعلمٌ بلا عمل بمثابة جسد بلا روح، ولذلك قيل: أن عدم العمل بالعلم من الجهل فالعالم الذي لا يعمل بما يعلم والجاهل سواء؛ بل إن

العالم الذي ليس له من حظه إلا الكلام يكون علمه حجة عليه وسائقًا له إلى نار جهنم يوم القيامة عياذًا بالله وذلك لما جاء عند الترمذي، أن شُفَيًّا الأصبحي وهو ممن سمع من أبي هريرة، أنه: دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس؛ فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة؛ قال: فدنوت منه[1]؛ حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس؛ فلما سكت، وخلا، قلت له: أنشدك بحقٍّ وبحقٍّ لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته[2]؛ فقال أبو هريرة: أفعل ... لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، ثم نشغ[3] أبو هريرة نشغة؛ فمكث قليلًا، ثم أفاق.

فقال لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق؛ فمسح وجهه؛ فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري، وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح وجهه.

فقال: أفعل.. لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا معه في هذا البيت ما معه أحد غيري، وغيره..ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًا[4] على وجهه فأسندته عليَّ طويلًا، ثم أفاق؛ فقال: حدثني

(١) فدنوت منه، أي: قربت منه.
(٢) عقلته وعلمته، أي: حفظته ووعيته.
(٣) نشغ، أي: شهق حتى كاد أن يُغمى عليه.
(٤) خارًا، أي: سقط ووقع.

رسول الله ﷺ : «أَنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ؛ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ[1] ؛ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ يَقْتَتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ، قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ، قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ؛ فَيَقُولُ اللهُ: لَهُ كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؛ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ؛ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ؛ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ»، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتِي؛ فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ[2] بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3] .

والذي يُمعن النظر في هذا الحديث يرى أن هؤلاء الأصناف الثلاثة من أخص الناس ومن أعلاهم منزلة ولكن إذا فسدت النية فلا وزن

---

(١) جاثية، أي: جالسة على ركبتيها.

(٢) تُسعَّر، أي: تُوقد ويُحمى عليها.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٨٢) كتاب الزهد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع (١٧١٣).

للعمل؛ فالله -تبارك وتعالى- يقول في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

ولذلك كان مصير مَن عَلِم ولم يعمل بعلمه العذاب المهين.

والذي يستعرض آيات القرآن يجد هذ التعبير -العذاب المهين- ومادته في معرض الحديث عن هؤلاء الأحبار والرهبان الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه؛ فيكون عذابهم يوم القيامة فضلًا عن كونه شديدًا أو أليمًا أو كبيرًا أو عظيمًا.

فهو فوق ذلك كله فيه من الإهانة ما يوازي استخفافهم بنظر الله تعالى إليهم ومبارتهم له بالمعصية على الرغم من علمهم، وهذا ما يصوره ربنا ﷻ في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

ومما تنخلع له القلوب وتنفطر له الأكباد وترتجف من هوله الأركان ما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ؛ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»(٣).

إذا كان الأمر كذلك فإنه قد صار لزامًا على كل عاقل أن يطلب العلم

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) سورة الجاثية: الآية: (٢٣).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق، وأحمد في «المسند» (٢١٢٧٧).

النافع وأن يسأل الله -جل وعلا- التوفيق إلى تحصيله من مصادره الموثوق بها ومن العلماء الربانيين المتحققين به ثم يسأله أن يوفقه للعمل به فيفوز بسعادة الدارين.

فاللهم إنَّا نسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا متقبلًا وأن تقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

علو الهمة في العبادة والاستقامة

عرفنا فيما مضى ما لطلب العلم من مكانة وقدر في الشرع، ولكن العلم بلا عمل لا ينفع صاحبه، بل يكون وبالًا ونقمة وحُجة عليه يوم القيامة، ولأن العلم يورث الخشية فإن العالم لابد أن يكون أعبد الناس وأطوعهم لله -جل وعلا-.

وكما قلنا أن عدم العمل بالعلم ينزع البركة من هذا العلم.

ومَن عَمِل بما علم أورثه الله تعالى ما لم يكن يعلم؛ فالعمل زكاة العلم وشكر نعمة الله باستعمال هذا العلم في التقرب إلى الله وعبادته، بل وبتعبيد الكون كله لله -جل وعلا-.

ولذلك قال سبحانه عن نبيه يعقوب -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] .
قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: أن المعنى المراد -والله تعالى أعلم بمراده من كلامه- وإنه لذو عمل بما علمناه ... ولذلك ورد في بعض الآثار عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه حفظ سورة البقرة في تسع سنين، وفي رواية في اثنتي عشر سنة..ولكن لماذا؟

يجيب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن السبب في ذلك أنه كان لا يتجاوز الآية يحفظها حتى يعمل بها أولًا، وذلك لأن هذا القرآن إما أن يكون حجة لك أو عليك كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٦٨).

* علموا وعملوا فسبقوا:

ومع أول النماذج المشرقة في مضمار العبادة والعمل الصالح والمسارعة إليه، مع الرجل الأول في هذه الأمة بعد نبيها ﷺ..أول من آمن من الرجال، وأحب الناس إلى النبي ﷺ بنص الحديث؛ فلما سُئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**»، قيل: ومن الرجال؟ قال: «**أبوها**»[١].

إنه أبو بكر الصديق الذي قال في حقه رسول الله ﷺ: «**مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَأْنَاهُ بِهَا مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»[٢]..وذلك لما بذل وضحَّى وقدَّم لهذا الدين؛ فقد سخَّر ماله وولده وابنته وخادمه في سبيل نصرة الإسلام حتى رفع الله رايته عالية خفاقة، وكان له أعظم الأثر وأوفر الحظ والنصيب في تحقيق ذلك ليكون في ميزان حسناته يوم القيامة.

إنه همة القلب المفعم بالإيمان والذي لا يشبع صاحبه من خير حتى يكون منتهاه الجنة ... ففي الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٢) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٦١) كتاب المناقب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦١).

الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

سبحان الله..لكم أن تتخيلوا رجلًا في سن أبي بكر؛ الذي كان يكبر النبي ﷺ بعشر سنين، ولا شك أنه في ذلك الوقت قد قارب على الستين من عمره ... ومع ذلك ويكون أسبق الناس إلى فعل هذه الطاعات على اختلاف أنواعها وطبيعتها ... إنه صدق النية وقوة العزيمة وصلابة الإيمان وعمق التوكل واليقين.

ولذلك صَحَّ في الخبر أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علم أن هناك امرأة عجوزًا لا تقوى على القيام بشئونها؛ فقال في نفسه: «اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا»، وعزم النية على أن يبادر إليها بعد صلاة الصبح مباشرة؛ فلما ذهب إليها وانتهى به المسير إلى بيتها؛ فإذا به يراها على أحسن حال؛ فسألها مَن الذي فعل ذلك؟ فقالت له: إنه شيخٌ كبير؛ جاءني قبل مجيئك بقليل فقَمَّ البيت -أي: نظَّفه- وأعد الطعام ثم ذهب ... فاختبأ له عمر في اليوم التالي فوجد أن هذا الرجل هو أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فقال: والله لا أسبقك بعد اليوم أبدًا.

ولقد اشتهر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكثرة عبادته وبكائه وخشيته لله تعالى، وقيل أنه كان قد جعل لنفسه مُصلًّى بجوار بيته ليصلي فيه؛ فإذا اشتد نحيبه وعلا صوته بالبكاء اجتمع إليه أبناء المشركين ونسائهم ينظرون إليه، وتأخذهم الدهشة مما يصنع.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٢٨) كتاب الزكاة.

ولذلك عندما اشتد المرض برسول الله ﷺ قبيل وفاته -كان لا يستطيع الحراك، ومن ثم الصلاة بالناس- أمرهم أن يقدموا أبا بكر ليؤم الناس فقالت له أمنا عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجلٌ أسيف -أي: شديد البكاء- وقد لا يسمعه الناس من كثرة بكائه؛ فكان يقول ﷺ: **«مُروه فَلْيُصلِّ بالنَّاس»**(١).

* ومن النماذج العجيبة في الإقبال على عبادة الله بما يفوق كل تصور هذا الصحابي الجليل الذي كان يُضرَب به المثل في كثرة العبادة والأعمال الصالحة؛ فقد كان يصوم كل يوم، وكان يقرأ القرآن مرة في كل يوم؛ فلما علم النبي ﷺ ذلك نهاه عن ذلك حتى لا يشق على نفسه فيفتر بعد ذلك عن العبادة.

والشاهد: أنه كان شغله الشاغل هو العبادة والتقرب إلى الله تعالى؛ فلا يلتفت إلى ما سوى ذلك ... إنه سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص؛ فأراد أبوه أن يزوجه وذلك بغير رغبة منه لأنه كان منشغلًا بالعبادة؛ فلما كانت ليلة البناء قام عبد الله وصفَّ قدميه وصلى بستة عشر جزءًا، وزوجته خلفه.

فلما كان الصباح جاء عمرو بن العاص ليزور العروسين، فسأل زوجة ولده: كيف حال عبد الله؟ فقالت: نعم العبد لربه؛ لم يُفتش لنا عن كنف -أي: أنه لم يقربها-؛ فشكاه أبوه إلى النبي ﷺ؛ فلما علم الخبر نهاه عن ذلك.

وأمره أن يعطي كل ذي حقٍّ حقه، وألا تكون عبادته على حساب

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٤) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

جسده، أو زوجته أو ضيوفه..أو غير ذلك.

وقال: عندما علم أنه يصوم كل يوم..«**صُم ثلاثة أيام في كل شهر**»، فقال: إني أطيق أكثر من ذلك، فقال له النبي ﷺ: «**صُم الاثنين والخميس من كل أسبوع**»، فقال عبد الله: إني أطيق أكثر من ذلك؛ فقال له: «**صُم يومًا وأفطر يومًا فإنه صيام داود** عليه السلام **وهو أفضل الصيام**»؛ كما نهاه عن قراءة القرآن كاملًا في يوم وليلة، وقال: «**لا يفقه القرآن من قرأ في أقل من ثلاث**»[1].

وهذا إنما يعني أنه لابد من التوازن في العبادة بما لا يخرج بها عن طورها الطبيعي والثمرة المرجوة منها؛ فإن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق؛ فليس معنى أن أكون عابدًا لله أن أظلم نفسي وأُعطل كل مصالحي الدنيوية ولا أساهم في تعمير الكون وصناعة الحياة.

ولذلك عندما جاء ثلاثة نفر يسألون عن عبادة النبي ﷺ فكأنَّهم تقالُّوها -أي: رأوها قليلة مقارنة بما يريدون فعله منها-.

فقالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أقوم الليل ولا أرقد، وقال الثالث: وأما أنا فأعتزل النساء فلا أتزوج.

فلم علم النبي ﷺ قال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٥٢) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٠٦٣) كتاب النكاح.

هذا هو ديننا الحنيف الذي يدعو إلى الوسطية والاعتدال في كل شيء، فلا رهبانية في الإسلام، ولا يجب أن يُحمِّل الواحد منَّا نفسه ما لا تطيق حتى لا ينفر من الدين.

فالإسلام دنيا ودين، ولا ينفك أحدهما عن الآخر؛ فهما مرتبطان ارتباط السبب بالنتيجة والغاية بالوسيلة؛ فالدنيا مزرعة الآخرة ... مَن زرع فيها غرسًا حصد في آخرته.

*** حب وفداء:**

القلب بلا شك هو سيد الجوارح جميعًا، وهو ينضح بما فيه؛ فإذا دخله الإيمان تراه وقد انفسح وانشرح ويظهر ذلك على الأعضاء فتراها لا تتحرك إلا لطاعة ولا تسكن إلا عن معصية، وكلما زاد الإيمان في القلوب سمعت من أحوال أصحابها العجب العُجاب ... فهذا مثال فريد من نوعه في حب الله وحب كتابه والتواصل العجيب والتفاعل الغير مسبوق مع آي القرآن ونسوق على ذلك المثال ليتضح المقال:

*فهذا عبَّاد بن بِشر رضي الله عنه، ويحكي لنا ما كان من خبره ما جاء في مسند الإمام أحمد بسند صحيح أن واحدًا من صحابة النبي ﷺ في غزوة من الغزوات تبع رجلًا مشركًا ليقتله حتى دخل بيته، وكان الظلام دامسًا.

فلما سمع الصحابي صوتًا أخرج سيفه وضرب مَن أمامه ظنًّا منه أنه الرجل المطلوب غير أنه اكتشف أنه إنما قتل زوجته، وكان ذلك -طبعًا- عن طريق الخطأ؛ فلقد نهى ﷺ عن قتل النساء والأطفال والشيوخ.

الشاهد: أن هذا الرجل المشرك لما علم بما كان، قال: والله لأقتلن عشرين من أصحاب محمد، وسار في طلب الصحابة؛ حتى إذا حطُّوا

رحالهم ليستريحوا بعض الشيء، وعسكروا في مكانٍ ما، وجعلوا على حراستهم اثنين من الأنصار هما: عباد بن بشر، وعمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فقسَّما الليل بينهما للحراسة؛ فكان أول الليل من نصيب عبَّاد بن بشر، فلما نظر إلى السماء ورأى النجوم ذكَّره هذا المشهد بأن جميع المخلوقات تُسبح الله -جل وعلا-؛ فقام وصفَّ قدميه، واستفتح قراءته بسورة الكهف.

فرماه هذا المشرك بسهم؛ فوقع في بطنه فنزعه وأكمل صلاته، ثم رماه بآخر فنزعه أيضًا وأكمل صلاته؛ فلما رماه بالسهم الثالث أسرع في صلاته، وأيقظ عمار بن ياسر؛ فلما سمع هذا الرجل المشرك صوت عمار وقد قام من نومه فرَّ هاربًا.

فقال عمار لعباد: لِمَ لَمْ تخبرني عندما ضربك بالسهم الأول؟ فقال: «والله لقد كنت أقرأ سورة من أحب السور إليَّ فكرهت أن أقطعها!! والله لولا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمرني بحفظ ثغر من ثغور الإسلام ما قطعت هذه السورة ولو خرجت روحي».

إنه قيام الليل دأب الصالحين الذين صدق فيهم قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(١)]؛ فكان الجزاء من جنس العمل؛ فأعد لهم سبحانه ما لا يخطر على قلب بشر؛ فقال (جل وعلا): ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

وهذا ثابت البناني رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقول: «كابدت قيام الليل عشرين سنة ثم

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان: (١٧، ١٨).

(٢) سورة السجدة: الآية: (١٧).

تلذذت به عشرين أخرى حتى إني لأدخل في الصلاة فأحمل هَمَّ خروجي منها»..سبحان الله يدخل في الصلاة ولا يريد الخروج منها.

* وهذا نموذج آخر من القلوب الرقيقة التقيَّة النقيَّة التي تحب الله ورسوله.

إنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي رُوي أنه كان له خطان أسودان في وجهه من البكاء من خشية الله تعالى؛ فكان رضي الله عنه يُقسم الليل ثلاثة أقسام: قسم ينام فيه، وقسم يصلي فيه قيام الليل، وثالث يتفقد فيه أحوال رعيته.

فسأله رجل: ألا تنام يا عمر؟! فقال له: «إن نمت الليل كله ضيعت نفسي وإن نمت النهار كله ضيعت رعيتي».

وكيف لا وهو الذي كان يقول: «لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله تعالى يوم القيامة..لِمَ لم تمهد لها الطريق يا عمر؟!».

وقد جاء في الأثر أنه كان يمر ذات ليلة يتفقد أحوال رعيته كعادته؛ فسمع أعرابيًا يُصلي بالليل ويقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾[1]؛ فسقط رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مغشيًا عليه بعد أن قال: «قَسَمٌ حقٌّ وربك الكعبة»، وظل مريضًا طريح الفراش يعوده الناس شهرًا كاملًا لا يدرون ما به.

إن هؤلاء وأمثالهم من الصحابة والتابعين علموا حقيقة الدنيا فهانت عليهم فاستوى عندهم تبرها بترابيها، ولذلك كان حاتم الأصم، وهو من

(١) سورة الطور: الآيات: (١-٨).

أعلام التابعين قد فاتته صلاة العشاء في جماعة؛ فجاءه ثلاثة يعزونه في مصابه!

فبكى حاتم واشتد بكاؤه فلما سألوه عن سبب ذلك، قال: «أبكي لأنني قد فاتتني صلاة العشاء في جماعة فجاءني ثلاثة من أهل المدينة يعزونني، ولو مات ولد من أولادي لجاءني أهل المدينة كلهم ليعزونني ... فوالله لموت أولادي جميعًا أهون عندي من فوات صلاة العشاء في جماعة».

ولا عجب فقد كان هؤلاء يعلمون يقينًا أن كل مصيبة تهون ويسهل أمرها طالما لم تكن في الدين ... يرفعون بذلك شعار: «دينك دينك لحمك ودمك».

*** صدق ووفاء وصبر على البلاء:**

إنه الحب الصادق والعزيمة التي لا تلين، والثبات على الحق حتى الرمق الأخير..إنه الفداء والبذل والعطاء الذي لا يحدُّه حدود، والرجولة المتناهية التي عَزَّت في زماننا.

إنه خبيب بن عدي هذا الصحابي الجليل الذي يعلمنا كيف يكون الصبر على البلاء، واستعذاب العذاب فداء لدين الله ورسوله ﷺ.

فلقد لقي الله تعالى مقبلًا غير مُدبرٍ راغبًا فيما عند الله -جل وعلا- من الثواب العظيم متأولًا قول سيده ومولاه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، وقول رسوله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ**»[2].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٨) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٣) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

ويروي لنا الإمام البخاري ما كان من خبر هذا الصحابي الجليل حين غدر به القوم وسجنوه فلما أرادوا قتله ثأرًا لمن قتل منهم من الرءوس في بدر؛ خرجوا به من الحرم إلى أرض التنعيم؛ فلما صلبوه قال لهم: دعوني حتى أصلي ركعتين ففعلوا؛ فلما سلَّم قال: والله لولا أن تقولوا: أنَّى جزعت من الموت لزدت -أي: أنني لم أزد في صلاتي حتى لا تقولوا إنما هو جزع وخوف من القتل-.

وكان خبيب أول مَن سَنَّ الركعتين عند القتل، وكان رضي الله عنه قد رآه أحدهم وهو أسير يأكل قطفًا من العنب، وما بمكة عنب حينها!!

ثم دعا عليهم فقال: «اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تُبق منهم أحدا»، ثم قال كلماته الجميلة التي تنمُّ عن حُبٍّ وفداء لا مثيل له وعن شجاعة تتضاءل أمامها شجاعة الأسود في عرينها..أنشد يقول:

إلىٰ الله أشكو غربتي بعد كُربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مضجعي

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا ... علىٰ أي جنبٍ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك علىٰ أوصال شلوٍ ممزعِ

فقال له أبو سفيان وكان لا يزال مشركًا: أَيُسُّرك أن محمدًا عندنا نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال: «لا..والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه».

إنه الحب الحقيقي لله ولدينه ولرسوله ﷺ، والذي يفجِّر الطاقات ويبعث الهمم ويحرك القلوب إلى بذل المُهَج في سبيل ربها ونصرة لدينها ومصدر عزها.

*** الطيور على أشكالها تقع:**

إذا كان العبد صالحًا طائعًا لربه وفقه الله -تبارك وتعالى- لكل خير، ورزقه من الدنيا ما تقرُّ به عينه وما يسكن به فؤاده وما يرضى به عن ربه -جل وعلا- وإذا كان الأمر كذلك فإن خير متاع الدنيا كما أخبر النبي ﷺ الزوجة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرَّتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك.

وأخبر أيضًا ﷺ أنه ما استفاد العبد المؤمن من هذه الدنيا بعد تقوى الله ﷻ إلا بامرأة صالحة.

ونذكر مثالًا على ذلك ما كان من القاضي شُريح واسمه شرحبيل بن حسنة وكانت كُنيته أبو أميَّة، وذلك عندما لقي الإمام الشعبي -وكان من أعلم التابعين- فسأله: كيف حالك يا شريح؟ قال: بخير والحمد لله؛ فقال له: وكيف حال أهلك؟ فقال: والله يا شعبي بخير حال؛ فلقد تزوجت منذ عشرين سنة فلم أَشْكُ منها مرة واحدة!

فتعجب الشعبي وقال له: وكيف ذلك؟!

فقال شريح: لما دخلت على زوجتي وجدت بها حُسنًا باهرًا وجمالًا نادرًا؛ فقمت أصلي لله تعالى شكرًا على هذه النعمة فلما انتهيت من صلاتي وجدتها خلفي تصلي بصلاتي وتُسلم بسلامي؛ فلما اقتربت منها قالت: على رِسلك يا أبا أمية.

ثم قامت فحمدت الله وأثنت عليه، ثم قالت: يا أبا أمية إني امرأة غريبة عنك لا علم لي بأخلاقك فبيِّن لي ما تحب فآتيه وما تكره فلا آتيه.. يا أبا أمية لقد كان من نساء قومك من هي كُفءٌ لك وقد كان لي من رجال

قومي من هو كفء لي..أما وقد قضى الله أمرًا مفعولًا فاصنع ما أمرك الله به؛ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك.

يقول: والله لقد أحوجتني يا شعبي للخطبة؛ فقمت فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه وصليت على رسوله ﷺ ثم قلت: أما بعد فلقد قلتِ كلامًا إن تثبتي عليه يكن حظك وإن تدَّعيه يكن حجة عليك، أما إني أحب كذا وكذا وأكره كذا وكذا.

قالت: فما تحب من زيارة أهلي؟

فقلت لها: ما أحب أن يملَّني أصهاري -أي لا أحب كثرة الزيارة-.

قالت: فما تحب من زيارة الجيران؟

فقلت: قوم فلان قوم صالحون، وقوم فلان قوم سوء، وما رأيت من حسنة فانشريها، وما رأيت من سيئة فاستريها، وأقول قولي هذا وأستغفر لي ولك.

ثم قال شريح: ووالله لقد بِتُّ معها بأنعم ليلة ومكثت معها عشين سنة، والله ما شكوت منها إلا مرة واحدة وإني أُشهِد الله ﷻ أني كنت لها ظالمًا.

فقال الشعبي: يا لها من عيشة هنية!!

وقد صدق من قال:

رغيف خُبزٍ واحدٍ تأكله في زاويه ... وكوز ماءٍ باردٍ تشربه من صافيه

وغرفة نظيفة نفسك فيها هانيه ... وزوجة مطيعة عينك عنها راضيه

وطفلة جميلة محفوفة بالعافيه ... واختارك الله له حتى تكون داعيه

خيرٌ من الدنيا وما فيها ... وهي لعمرو الله كافيه

هكذا كانت الزوجة الصالحة التي تقول لزوجها حين يخرج سعيًا في طلب الرزق: اتقِ الله ولا تُطعمنا إلا من حلال؛ فإنَّا نصبر على الجوع والعطش ولا نصبر على نار جهنم.

وعندما يعود إليها تقرأ عليه ويقرأ عليها سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[1].

فيسألها عن صلاتها وقراءتها للقرآن وعن عبادتها وكيف هي مع الله تعالى، ولذلك كانت هذه البيوت عامرة بالإيمان والبركة من الله -جل وعلا- على الرغم من الفقر الشديد والمعاناة التي كابدوها إلا أنهم كانوا يعيشون جنة الدنيا قبل الآخرة في سعادة لا يذوق طعمها إلا من عرف طريق العبادة ولذة القرب من ربه ومولاه.

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ... ولكن التَّقيَّ هو السعيد

ومن عجب ألا يكون في بيت فسيح إلا ثوبًا واحدًا يستر به الزوج نفسه حين يخرج إلى الصلاة ثم يعود إلى زوجته لتلبسه فتصلي فيه.

والأعجب من ذلك أن هذا الصحابي كان قد تأخر عن صلاة الجماعة..لا لشيء إلا لأن هذا الثوب -الوحيد- كان مُبتلًا ولم يجفَّ بعد؛ فلما رآه النبي ﷺ سأله عن سبب تخلفه عن الصلاة فقصَّ عليه القصص..أتدرون عندما عاد إلى زوجته وحكى لها ما دار بينه وبين النبي ﷺ ماذا قالت له؟؟

---

(١) سورة العصر.

قالت: أتشكوا الله تعالى لرسوله ﷺ؟!

فماذا نقول نحن الذي نعيش في رغد من العيش؟ ووالله لسوف نُسأل عن هذه النعمة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1] .

يقول: بعض أهل العلم من المفسرين: أن المقصود بالنعيم هنا «الماء البارد على الظمأ» فهلا شكرنا نِعم ربنا علينا والتي لا تُعد ولا تُحصَى باستعمالها في مراضي الله تعالى وفي الغاية التي من أجلها خُلقنا؟

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح وأن يجعلنا أحرص الناس عليه وأسبقهم إليه وأكثرهم توفيقًا له وأن يستعملنا لنصرة هذا الدين وأن يجعلنا من الفالحين الناجحين في الدنيا والآخرة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين..والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) سورة التكاثر: الآية: (٨).

علو الهمة في الدعوة إلى الله

* **الدعوة إلى الله ثمرة العمل بعد العلم:**

أسلفنا أنه لا سبيل للعبد للوصول إلى عبادة الله تعالى كما أمر ووفق منهج الشريعة الغراء؛ إلا بالعلم وأن العلم وحده لا يكفي، وإنما لابد من العمل به ثم تعليمه للناس ونشر نوره بينهم ليُخرجهم الله تعالى به من ظلمات الجهل والشرك والضلال إلى نور العلم والتوحيد وسبيل الهدى والرشاد.

ولذلك كان لزامًا على من رزقه الله علمًا أن يعمل به ثم يدعو الناس إلى تعلمه والعمل به فيكون قدوة لغيره سلوكًا وعملًا قبل القول، ولقد صدق من قال: «فعل رجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل لرجل».

ورحم الله القائل:

يا أيها الرجل المُعلِّم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليمُ؟

تصف الدواء لذي السقام من الضَّنىٰ ... ومن الضَّنَىٰ تمسي وأنت سقيمُ!

لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

فهناك يُقبل ما تقول ويُقتدىٰ ... بالقول منك وينفع التعليمُ

واعلم -أخي وحبيبي في الله- أن الشيطان عليه لعنة الله يقف لك بالمرصاد يتصيد أخطاءك وينتظر زلاتك؛ فلا تدعه ينال منك؛ وإذا

خسرت جولة في حربك معه فليس معنى ذلك أنك قد خسرت المعركة.

فقف على قدميك مرة أخرى وشمِّر عن ساعديك لتصد تلك الهجمات الشرسة التي لن تتوقف حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ فلا تحملنك المعصية الناشئة عن غفلة في لحظة ضعف أن تتخلى عن غايتك وتُغيِّر وجهتك وتتنكب طريق الصالحين.

فالكمال لله وحده، والعصمة لرسوله ﷺ؛ فإذا ألممت بذنب فسارع إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، كما أمر النبي ﷺ بذلك فقال: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(١)، وقال رب العزة من قبل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٢).

فهيا بنا نسابق الزمن لدعوة الناس جميعًا إلى معرفة ربهم ومراده منهم ليكون ذلك في ميزان حسناتنا يوم القيامة، فكل الناس يُختم على عمله إلا الداعي إلى الله ومن سار على منواله فنفع الله به الناس وجعله سببًا في هدايتهم.

*** من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم:**

الأصل أن المسلمين على وجه الأرض جسدٌ واحد؛ إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فلا يتصور أبدًا أن يرى المسلم الحق ما يدور حوله من بُعد المسلمين عن دينهم وعن كتاب ربهم وسُنة نبيهم ﷺ ولا يحترق قلبه كمدًا وحزنًا على ما يراه.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (١٩٨٧) كتاب البر والصلة، وأحمد في «المسند» (٢٠٨٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).

(٢) سورة هود: الآية: (١١٤).

ولذا كان أول ما تُحتمه عليه الضرورة أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ولكن بالضوابط الشرعية والشروط التي إن توافرت في دعوته كان لها أعظم الأثر في قلوب الناس، ولولا الدعوة والحركة لدين الله تعالى لما خرج الإسلام من شبه الجزيرة العربية، ولما جاء عمرو بن العاص لفتح مصر ولما دخل الإسلام فيها، ولذلك يقول رب العزة -جل وعلا- آمرًا نبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

فالأمم السابقة على أمة الإسلام جاءت لتكون أممًا عابدة لله؛ أما أمة النبي ﷺ فهي آخر الأمم فلن يبعث بعدهم أمة، ولذلك كانت عابدة داعية؛ فالدعوة إلى الله هي وظيفة الانبياء والمرسلين في الدعوة إلى الله تعالى، وهي كرامة لا تدانيها كرامة وشرف لا يعدله شرف، ولذلك يقول الإمام ابن القيم تعليقًا على هذه الآية الكريمة: «فمن كان من أتباع النبي ﷺ حقًّا فلابد أن يدعو إلى ما دعا إليه النبي ﷺ على بصيرة».

ولذلك قال ﷺ: **«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**(٢).

ووالله إن الله -جل وعلا- إنما يصطفي من خلقه من يخبر عنه ويدل الناس عليه ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٣)؛ فإذا أردت أن تعرف عند الله مقامك

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) سورة فصلت: الآية: (٣٣).

فانظر فيم أقامك، وإن أردت أن تعلم قدرك عند الله -جل وعلا- فانظر في قدر الله تعالى عندك ... فاحرص على هذا الشرف العظيم، والخير العميم، لتفوز بالأجر العظيم والنعيم المقيم.

*** إذا أردت الوصول فعليك بالأصول:**

وهذا أصل عام في جميع الأمور، ولاسيما الدعوة إلى الله، فإن هناك أمورًا ينبغي على الداعي إلى الله تعالى أن ينتبه إليها ويضعها بعين الاعتبار لتؤتي دعوته ثمرتها وتشق طريقها بسهولة ويُسرٍ إلى قلوب الناس، وأول هذه الأمور:

* أن يكون عنده من العلم ولاسيما فيما يأمر الناس به من المعروف وما ينهاهم عنه من المنكر حتى لا يَضل ولا يُضل ولذلك صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[(١)].

ولذلك تجد من الناس من يتكلم في مسألة ليس عنده من دليل عليها من القرآن، أو السنة ليقيم به الحجة على من يأمره بالمعروف، أو ينهاه عن المنكر؛ فتكون النتيجة عكسية بأن لا يُسمَع له، ولا يُوثَق بكلامه.

وكذلك من الناس من يُصدر الفتاوى لكل من هبَّ ودبَّ بغير ضابط ولا رقيب، ويظن أنه بمجرد أنه يحفظ شيئًا من القرآن ويتعلم اليسير من السنة ومسائل الفقه أنه صار بذلك عالمًا فقيهًا، ونسي بذلك قول

(١) صحيح: رواه البخاري (١٠٠) كتاب العلم، ومسلم (٢٦٧٣) كتاب العلم.

النبيﷺ : «وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١) .

فهناك فارق بين الحكم والفتوى..ذلك أن حكم الشيء من حيث مشروعيته وعدمها لا يتغير؛ فالحرام ما حرمه الشرع والحلال ما أحله الشرع.

أما الفتوى فقد تتغير بتغير الظروف والملابسات والأشخاص، وتحكمها بعض القواعد والضوابط المستقرة عند علماء الأصول والتي منها مثلًا: «أن التيسير يرفع الحرج»، وفيه: «الضرورات تبيح المحظورات»، ومنه: «لا ضرر ولا ضرار»، ومنه: «الضرورة تقدر بقدرها»..إلى غير ذلك من الأصول التي من شأن إعمالها أن تتغير الفتوى.

ومن ذلك أنه جاء رجل إلى ابن عباسرضي الله عنهما فسأله: هل للقاتل المؤمن توبة؟ فقال له: «نعم»، ثم جاءه آخر فسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ فقال له: «لا».

فما سبب تغير الإجابة إذا كان السؤال واحدًا؟

إن الأول جاء ويعلوه همٌّ وغمٌّ وإنكسار لما قارفه من المعصية؛ فقد قام بالقتل فعلًا، فلم يُرد ابن عباسرضي الله عنهما أن يُغلق أبواب التوبة في وجهه.. كما فعل الراهب عندما ذهب إليه قاتل التسعة والتسعين نفسًا فأخبره أنه لا توبة له؛ فأكمل به المائة.

وأما الثاني فقد جاء إلى ابن عباسرضي الله عنهما والشرر يتطاير من عينيه،

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

فعُلم من ذلك إقباله على ما عزم عليه من القتل فكان الجواب من ابن عباس رضي الله عنهما بالنفي ليحقن دمًا وينقذ روحًا من القتل.

* ويجب على الداعي ثانيًا أن يأمر بالمعروف بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر بغير منكر..أي: أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فيلين الكلام ويهش ويبش في وجه من يدعوه.

فهذا فرعون -عليه من الله ما يستحق- الذي ادعى الألوهية والربوبية؛ ماذا قال الله تعالى لموسى وهارون حينما أمرهما بالذهاب إليه لدعوته على الرغم من أنه قد سبق في علم الله تعالى أنه لا يؤمن؟ قال - جل وعلا - : ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1] .. يا سبحان الله ... رجل طغى وبغى، أي: تجاوز الحد في الظلم وعلى الرغم من ذلك أمرهما رب العزة أن يدعواه بالحسنى.

كذلك إذا كان النهي عن المنكر سيترتب عليه منكر أكبر منه فلا يجوز أن يخاطر الداعي بنفسه وبدعوته، وأن يتحين الفرصة المناسبة والمناخ الملائم ليبذر بذور دعوته فيراها تنمو أمام عينيه كما يرى الزارع ثمرة ما كابد المشاق في سبيل تحصيله والوصول إليه.

وإنما تكون المفاسد المترتبة على عدم مراعاة هذه الأصول ناشئة عن سوء فهم لحديث النبي ﷺ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**[2].

فإنه ينبغي أن تعلم أن التغيير باليد إنما يكون للقادر عليه ممن ولّاه

---

(١) سورة طه: الآيتان: (٤٣، ٤٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

الله السلطة كالحاكم، ورب العمل، ورب الأسرة..وغير ذلك.

وأما التغيير باللسان فإنه ليس حكرًا على العلماء فحسب وإنما هو منوط بكل من يقدر عليه طالما كان ذلك في إطار الأصول والضوابط التي ذكرناها.

وأما التغيير بالقلب فإنما يكون بالانصراف عن موطن المعصية إذا لم تستطع أن تفعل شيئًا حيال ذلك؛ فإذا لم تستطع إزالة المنكر فزُل أنت عنه.

*** الدال على الخير كفاعله:**

لا شك أن العبد مهما بلغ من العبادة والعمل الصالح فهو مقصِّرٌ في حق ربه -جل وعلا-؛ فقد يحال بينه وبين العمل الصالح أو قد يعمل العمل؛ فلا يأخذ الأجر عليه كاملًا لسبب من الأسباب كعُجب أو رياء أو أي آفة من هذه الآفات.

فإذا ما دعا غيره إلى العمل الصالح وإلى ما فهي الخير فإن ذلك يكون في ميزان حسناته، ولذلك جاء في الحديث أن النبي ﷺ، قال: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[1].

فالفقه ليس معناه مجرد الفهم وإنما العمل بالعلم من الفقه وعدم العمل به من الجهل؛ فإ، قصَّر الداعي في عمله عوَّض ذلك بعمل غيره بما دعاه إلى عمله، ولذلك جاء عند الإمام مسلم أنه ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا**

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٥٦) كتاب العلم، وابن ماجة (٢٣٦)، وأحمد في «المسند» (١٢٩٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٦٦).

إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»[1]، ولا حرج على فضل الله تعالى؛ فهو سبحانه يعطي الأجر الجزيل على العمل القليل إذا وافق ذلك نية صادقة وإخلاصًا لله تعالى وإرادة وجهه بالعمل.

*** ما هي صفات الداعية الناجح؟**

الحقيقة.. أننا إذا استطردنا في الحديث عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها الداعي إلى الله تعالى فلن يسعنا المقام، ولكن حسبنا أن نشير إلى طرف منها على سبيل المثال لا الحصر، فأذكر خمس صفات وأغلب الظن عندي إنها إن توفرت في الداعية كتب الله -جل وعلا- لدعوته الخلود وجعل لكلماته أبلغ الأثر في نفوس من يدعوهم إلى الله.

أول هذه الصفات وأهمها على الإطلاق، بل وفي جميع الأقوال والأفعال إخلاص النية لله تعالى فهو السبيل الأكيد إلى نجاح دعوة الداعي إلى الله تعالى.

فما كان لله دام واتصل وكان له أعظم الأثر، وما كان لغير الله انقطع وانفصل فلا نفع صاحبه ولا غيره.

ولقد حُكى عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان له جار لا يصلي فأراد أن يدعوه إلى الله تعالى؛ فلما رآه في الطريق سار وراءه وألقى عليه السلام، وقال له: إني لأرى في وجهك نورًا؛ فهلا أَذِنت لي بالسير معك؟ فقال له الرجل: نعم.. فأخذ الحسن يحدثه عن الله وعن الدار الآخرة ويذكره بالجنة والنار.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) كتاب العلم.

فبينما هو كذلك؛ إذ مَرَّت جنازة؛ فقال الحسن للرجل: أرأيت لو أن الله تعالى أحيا هذا الميت؛ فماذا سيصنع؟ فقال الرجل: سيكون أكثر الناس طلبًا للعمل الصالح من الصلاة والزكاة والبر والصلة وغير ذلك؛ فقال الحسن: فتخيل أنك مكانه وقد أعاد الله تعالى إليك الحياة مرة أخرى؛ فاصنع ما قلت.

فتاب الرجل من لحظته وعاد إلى الله -تبارك وتعالى-.

* وأما عن الصفات الأربع الباقية والتي يجب أن تكون من أبرز صفات الداعية؛ فتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[١].

وقد يقول قائل: ما علاقة هذه الآيات وما ورد فيها وما مناسبتها لما نتحدث عنه من صفات الداعية؟

فنقول له: يا أخي تأمل في سياق هذه الآيات؛ فكأن الله -جل وعلا- يقول لك: إن أردت أن تكون داعية ناجحًا فلابد أن تتسم بصفاتٍ أربع.

والتي هي: صبر الإبل، وسمو السماء، وثبات الجبال، وذلة الأرض لمن يمشي عليها.

فلابد للداعية أن يصبر على طلب العلم أولًا؛ فهو ليس بالهين وإنما يكابد صاحبه المشاق ويسهر الليالي ويُحصِّل العلم من هنا وهناك، ثم يصبر بعد ذلك على الدعوة إلى الله وعلى ما قد يقابله من الأذى ...

---

(١) سورة الغاشية: الآيات: (١٧-٢٢).

ولذلك قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾(١).

فالداعية لابد أن يكون كالنخلة يرشقه الناس بالحجارة فيلقي إليهم بالتمر.

وأما عن سمو السماء فمعناه أن الداعي إلى الله لا ينتظر المقابل من الناس؛ فهو إنما يريد بعمله وجه الله تعالى ليس إلا؛ فلا هو يريد مالًا ولا ثناءً، ولا شهرة.

وأما عن ثبات الجبال، فلا يختلف اثنان على أن طريق الدعوة محفوف بالأخطار ومليء بالأشواك، ولذلك يقول الله -جل وعلا-: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾(٢).

ولقد تحمل النبي ﷺ ما تنوء الجبال الرواسي بحمله في سبيل تبليغ دعوة ربه ورسالته؛ فلقد شُجَّ رأسه وكُسرت رباعيته -مقدمة الأسنان- وأُدخلت حلقات المِغفر في وجنتيه الشريفتين، وطُلقت بنتاه، وأُلقي سلا الجزور على ظهره وهو يصلي عند الكعبة، وسلطوا عليه صبيانهم وسُفهاءهم فرموه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، ويأتيه أمين الوحي جبريل عليه السلام، فيقول له: «**إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ**» قال ﷺ: «**فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ.. إِنْ شِئْتَ**

---

(١) سورة لقمان: الآية: (١٧).

(٢) سورة العنكبوت: الآيات: (١-٣).

أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ»؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[١].

وقد كان ... فلقد أخرج الله تعالى من ظهر أبي جهل ولده عكرمة، ومن ظهر الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد.

وأما عن القاسم المشترك بين ذلة الأرض وصفات الداعية، أنه يجب أن يكون الداعية متواضعًا لين الجانب ولاسيما لإخوانه ممن يدعوهم إلى الله تعالى، ولذا قال -جل وعلا-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢].

وقال أيضًا -جل وعلا-: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وبعد أن ذكر رب العزة هذه الصفات، جاء بالأمر بالتذكير مقترنًا بالفاء التي تفيد التعقيب مع السرعة، وكأنه سبحانه يقول: إذا توافرت فيك هذه الصفات فلا تضيع الوقت فيما لا طائل من ورائه، وادعُ الناس إلى الخير وذكِّرهم بالله تعالى، وما ينتظرهم يوم القيامة من الثواب العظيم لمن سعى إلى الهدى والصراط المستقيم.

وإذا ذكرت الناس بربهم على وفق ما بيَّناه؛ فقد انتهى دورك في الإرشاد والدلالة على طرق الخير والبر، وهنا تكون الهداية من الله تعالى جزاء لمن تذكَّر واعتبر، والضلالة لمن اتبع هواه وشيطانه ولم يتبع سبيل

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) سورة المائدة: الآية: (٥٤).

(٣) سورة الحجر: الآية: (٨٨).

المؤمنين؛ فما عليك إلا البلاغ، ولذلك لما رأى الله -جل وعلا- من نبيه ﷺ من الحزن العميق على ما قابله به الناس من الصدود عن سبيل الله، قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2].

فهذا نوح عليه السلام الذي ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما آمن معه إلا قليل؛ ففي رواية قيل إنهم ثلاثة عشر، وعلى أقصى تقدير جاءت الرواية بأنهم ثمانون، ولك أن تتخيل مدى ما كان يتحلى به سيدنا نوح من الصبر والعزيمة في سبيل تبليغ دعوته، وما تحمله من إيذاء قومه له وسخريتهم منه وتسليط صبيانهم عليه ورميهم إياه بالجنون، وعلى الرغم من ذلك لم يدخر جهدًا في دعوتهم؛ فاستعمل معهم كل أساليب الدعوة كما حكى القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[3].

ولذلك قال -جل وعلا-: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[4]؛ فالهداية رزق من الله وفضل لا يؤتيه إلا لمن سعى إليه وأخذ بأسبابه؛ فنال الرضا والسعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة القصص: الآية: (٥٦).

(٢) سورة النحل: الآية: (٨٢).

(٣) سورة نوح: الآيات: (٥-٩).

(٤) سورة الغاشية: الآية: (٢٢).

*** نماذج نادرة وهمة باهرة:**

إنه الفهم الحقيقي للحكمة من الخلق، والسعي الحثيث الذي لا يعرف الاستكانة والخنوع ... إنه حسن الاتباع لسيد الخلق ﷺ خير من دَعى إلى الله -جل وعلا-؛ فقد كان ﷺ دائم الفكر متواصل الأحزان لا يُرى إلا غاديًا أو رائحًا يدعو الناس إلى عبادة ربهم في البيوت والطرق والنوادي حتى يُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

أتدرون من كان أول من فهم هذه الحقيقة التي لا ينكرها إلا جاحد معاند؛ إنه صِدِّيق هذه الأمة..أول من آمن بالنبي ﷺ وصدَّقه من الرجال، ولم ينتظر رضي الله عنه حتى يأمره النبي ﷺ بالدعوة إلى الدين الحق، وإنما تفتقت طاقته عن نشاط غير مسبوق في الدعوة والعبادة، ولقد كان رضي الله عنه رجلًا مألوفًا محبوبًا سهلًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته.

فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، وكان ذلك في اليوم التالي من إسلامه؛ فآتت دعوته أُكُلها بإذن ربها؛ فأسلم ستة من الرعيل الأول من السابقين إلى الإسلام والمبشرين بالجنة، وهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم ؛ ليكونوا في ميزان حسناته يوم القيامة.

ويكون هو نفسه بل والأمة بأسرها في ميزان حسنات سيد الخلق وحبيب الحق محمد ﷺ ولا حرج على فضل الله تعالى؛ فهل من مشمِّر

صادق النية قوي العزيمة؟!

والداعي إلى الله له رسالة يسعى إلى توصيلها وقضية يدافع عنها ويؤمن بها وينتصر لها، ولذا تجده مهما لاقى من الصعاب والبلاء لا تنصرف همته ولا تتغير وجهته، ولا يفتر حماسه، بل تراه في أحلك الظروف وأسوأ الأحوال رافعًا لواء الدعوة إلى الله غير مُبالٍ بما قد يلاقيه من أعداء هذا الدين ممن يكيدون له ولأمثاله من الدعاة؛ ليصرفوا الناس عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

ويضرب لنا سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أروع المثل في هذا الأمر؛ فهو على الرغم من كونه قد سُجن زورًا وظلمًا وعدوانًا، لم يمنعه ذلك أن يمارس وظيفته التي من أجلها بعثه الله تعالى؛ فلما جاءه صاحباه في السجن وقصَّا عليه ما رآه كل منهما، تحيَّن الفرصة المناسبة ليصرف قلبهما وانتباههما إلى قضية خطيرة ... ألا وهي قضية التوحيد؛ فقبل أن يُفتيهما ويعبِّر لهما ويجيب عن سؤالهما، قال كما حكى القرآن الكريم: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: الآيات: (٣٧-٤٠).

ثم بعد ذلك فسَّر لهما رؤياهما، وهكذا يكون الداعية الفطن الذكي الواعي؛ فالدعوة لها فن وأسلوب يؤثر أيما تأثير في ما قد يترتب عليها من استجابة أو صدٍّ بحسب مراعاة الضوابط التي يجب أن يلتزم بها الداعية في دعوته إلى الله تعالى.

وهذا درس لابد أن يستفيد منه كل من أراد أن يدعو إلى الله، أيًّا كانت مهنته ومكانته أو حالته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ فالدعوة كما قلنا ليست حكرًا على العلماء والوعاظ، وإنما تتسع لتشمل كل طبقات المجتمع الإسلامي على اختلاف ثقافاته واتجاهاته ... فهذا طبيب -مثلًا- جاءه مريض، فاستقبله بكل بِشر وألان له الكلام ودعا له بالشفاء، ورأى ما عليه المريض من الفقر فلم يأخذ منه شيئًا بل وأعطاه علاجًا مجانيًا؛ ألا يكون ذلك من قبيل الدعوة العملية إلى الله تعالى.

ولربما ترك ذلك عظيم الأثر في نفوس الناس أصحاب الفطر السليمة.

ويُذكرنا ذلك بأحد سادة التابعين وهو إبراهيم ابن أدهم عليه رحمة الله حينما رأى رجلًا قد شرب الخمر حتى الثمالة، ومن شدة تلذذه بالخمر يقول: الله..الله.

فأخذت إبراهيم ابن أدهم الغيرة على هذا الاسم الجليل الذي يشمل الاسم الجامع لكل صفات الجمال والكمال والجلال؛ كيف يخرج من فمٍ قد تَنجَّس بشرب الخمر؟

فأخذ هذا الرجل وطهَّر فمه ودعا له بالهداية؛ فأصابته دعوته ببركة غيرته على الدين فلما كان من الغد رأى هذا الرجل في الصف الأول خلفه في صلاة الصبح؛ فتعجب؛ فسمع هاتفًا يقول: «يا إبراهيم..طهرت

فمه من أجلنا فطهرنا قلبه من أجلك».

إنها الهمة العالية والقلوب الصافية التي استحقت أن يجعلها الله - جل وعلا- عامرة بالإيمان به والتوكل عليه والإنابة إليه، وكيف لا..وهي محل نظر الرب القدير؟

*** عليك النداء وعلينا البلاغ:**

كانت هذه العبارة إجابة رب العزة جل في علاه على سؤال سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما أمره ربه -جل وعلا- أن يؤذن في الناس بالحج فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾[1].

فقال إبراهيم: يا رب..وما يبلغ صوتي؟ فقال له ربنا: يا إبراهيم عليك النداء وعلينا البلاغ.

وهذا إنما يعني أن يأخذ الداعي بالأسباب ويخلص النية لرب الأرباب فتكون دعوته مما يعانق السحاب.

ولا يُشترط كما قلنا من قبل أن يكون الداعي عالمًا، وإنما يكفي أن يُذكِّر الناس بعبارة بسيطة سهلة؛ فإذا كانت من القلب وصلت إلى القلب ولا ريب؛ أما إذا كانت من اللسان؛ فلن تتعدى الآذان ... ولقد صدق القائل:

حديث الروح للأرواح يسري ... وتدركه القلوب بلا عناء

* وهذا يُذكرني برجل أُميٍّ بسيط لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي يوم من الأيام حضر محاضرة لأحد المشايخ سمعه يقول، قال رسول الله

(١) سورة الحج: الآية: (٢٧).

ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(١).

فهو منذ سمع هذا الحديث قطع على نفسه عهدًا أن يحفظه ويعمل بما جاء فيه، بل ويبلغه لكل الناس؛ فصار إذا ذهب إلى البقال قرأه عليه وإذا ذهب إلى العمل قرأه على زملائه..وهكذا.

فظل على ذلك زمنًا طويلًا، ثم مرض مرضًا شديدًا فأُجريت له عملية جراحية، وكان من قدر الله تعالى أن الطبيب الذي يجري له العملية لم يسجد طيلة حياته لله تعالى سجدة واحدة.

الشاهد: أن هذا المريض قام فجأة -وكان قد تم تخديره كُليًّا- فنادى على ذلك الطبيب؛ فظن هذا الطبيب أن الرجل يشتكي وجعًا أو يريد علاجًا، وإذا به يقول للطبيب: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»، ثم مات من فوره، وقد كان بذلك سببًا في هداية هذا الطبيب، بل لقد أصبح بعدها من أنجب وأبرز طلبة العلم بل من أشهر الدعاة إلى الله تعالى.

فاللهم استعملنا لنصرة دينك وسنة حبيبك ﷺ، ولا تستبدلنا، وعلمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، واجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين مفاتيحًا للخير مغاليق للشر؛ خُدَّامًا للإسلام في كل مكان، وثبتنا على الحق حتى نلقاك به وأنت عنا راضٍ.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٦٨٢) كتاب الإيمان والنذور، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

علو الهمة في محبة النبي ﷺ

*** محبة النبي ﷺ بين الحقيقة والادعاء:**

إنك لا تكاد تجد واحدًا من المسلمين إلا وهو يدَّعي حب النبي ﷺ ولكن هل يكفي الكلام لإثبات تلك المحبة؟ والحق أن المحب الحقيقي للنبي ﷺ هو الذي ينتهج نهجه ويسير على هُداه ويدعو إلى ما دعا إليه، ويحب من أحب ويوالي من والى، ويعادي من عادى ﷺ؛ فإن فعل ذلك فهو محبٌّ صادق وإلا كان يقول بخلاف ما يعمل إما لنفاق أصابه أو لغفلة نالت منه، أو لعدم فهمٍ لحقيقة هذا الدين، ونقول لهذا وأمثاله:

أتحب أعداء الحبيب وتدَّعي ... حُبًّا له!! ما ذاك بالإمكانِ
وكذا تعادي جاهدًا أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطانِ؟!
شرط المحبة أن توافق من تحب ... على محبته بلا نقصانِ
فإن ادعيت له المحبة مع ... خلافك ما يحب فأنت ذو بهتانِ

«إن المفاضلة واجبة بين كل مسلم، وبين من يرفع راية غير راية الإسلام.

إن المسلم مأمور بأن لا يخلط بين منهج الله وبين أي منهج آخر وصفي.. لا في تصوره الاعتقادي ولا في نظامه الاجتماعي.. ولا في كل شأن من شئون حياته.. وإن الفوارق بين الإسلام والكفر لا يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة أو المصانعة أو المداهنة؛ وإن الذين يحاولون تمييع

هذه المفاضلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين الأديان أو التعايش السلمي يخطئون في فهمهم للدين الإسلام وفهمهم لمعنى التسامح الذي يقره الإسلام»[١].

ونقول لمن يدّعي حب النبي ﷺ إن كنت كذلك؛ فماذا تعرف عن نبيك؟ ما اسمه؟ ومتى وُلد؟ ومتى بُعث؟ ومتى هاجر؟ وكم زوجة تزوج؟ وكم ولدٍ أنجب؟ وكم كان سنُّه عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى؟

إن بعض من ينتسبون لهذا الدين ليعلمون عن الفنانين والراقصين ولاعبي الكرة أكثر بكثير مما يعلمون عن النبي المختار وأصحابه الأطهار رضي الله عنهم.

وذلك في الوقت الذي بيَّن فيه رب العزة أن محبة النبي ﷺ واتباعه من أعظم القربات بل ومن شروط كمال الإيمان، فمن قصَّر فيها فقد نقص إيمانه ولا شك، وكلما فرط في محبته لله ورسوله كان الخَطْبُ أكبر والمصيبة أعمَّ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢].

وجاء في الصحيحين أنه ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[٣].

---

(١) كتاب «الموالاة والمعادة في الشريعة الإسلامية».

(٢) سورة التوبة: الآية: (٢٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان.

ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الحديث قال: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من والدي وولدي إلا من نفسي!! فقال: «**لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**» فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي؛ فقال النبي ﷺ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**»[1].

*** المرء مع من أحب:**

إنه رجل بسيط من أمة النبي ﷺ ولكنه يحب حبًا حقيقيًا، وهذا مما لا يعلمه إلا الله فكان الجزاء من جنس العمل، والحديث عن عائشة: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنك لأحب إليَّ من نفسي، و إنك لأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك؟

فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[2].

* وهذا ربيعة بن كعب الأسلمي الذي كان يصب الماء للنبي ﷺ ليتوضأ، وكان من زمرة هؤلاء المحبين، وقد جاء خبر ذلك في الحديث الذي رواه الإمام مسلم.. أن ربيعة، قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٦٣٢) كتاب الإيمان والنذور.

(٢) سورة النساء: الآيتان: (٦٩، ٧٠).

بوضوئه وحاجته؛ فقال لي: «سَل»، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة؛ فقال: «أَوَ غَيْرَ ذلك»، قلت: هو ذاك، فقال: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بكثرة السجود**»[1].

*** يختار النبي ﷺ على أبيه!**

إنه زيد بن حارية رضي الله عنه الذي اختطفته إحدى القبائل حين كان ذاهبًا مع أمه لزيارة أخواله؛ فباعوه في سوق النخاسة، واشتراه حكيم بن حزام، ثم أهداه للسيدة خديجة، والتي أهدته إلى النبي ﷺ لما رأت من حبه الشديد له.

الشاهد: أن رجلًا من قبيلة زيد ذهب ليحج البيت فرأى زيدًا؛ فلما عاد إلى قبيلته ذهب إلى أهل زيد فأخبر أباه أنه رأى زيدًا؛ فما كان منه إلا أن ذهب مع صُحبة من قومه ليُعيدوا زيدًا إلى الديار؛ فلما سألوا عنه قيل لهم إنه عند النبي ﷺ -وكان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ- فذهبوا إليه فسألوه أن يعيد زيدًا إليهم فهم أولى وأحق به، ويأخذ من المال ما يريد ليفتدوا زيدًا.

فعرض عليهم النبي ﷺ أن يأتي به ويُخيِّره بين أن يذهب معهم وبين أن يظل مع النبي ﷺ وقال لهم ﷺ: إن اختاركم فسوف أرده إليكم بلا مقابل، وإن اختارني فما أنا بالذي يختار على من اختارني أحدًا؛ فقالوا: لقد أنصفت.

فلما جاء حارثة وعلم الخبر، قال لرسول الله: والله ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا أبدًا؛ فقال له أبوه: يا بُني أتريد أن تبقى عبدًا وتُفضِّل ذلك

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٩) كتاب الصلاة.

على أن تكون حرًّا بين أهلك وأحبابك فقال زيد: والله لا أفارقه أبدًا.

فذهب به النبي ﷺ إلى الحرم ووقف عند الكعبة ونادى على بطون قريش، وقال: أُشهدكم أن زيدًا ابني يرثني وأرثه؛ فكان يُسَمَّى زيد بن محمد حتى نزلت الآيات بتحريم التبني ... قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1]، ومن فرط محبة الصحابة للنبي ﷺ اشتهرت هذه العبارة التي يقولها المحبون: بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

*** صدق المحبة يصنع الأعاجيب:**

إن من الجفاء أن نتكلم عن محبة النبي ﷺ، ثم لا نذكر مَن ضرب أروع المثل في ذلك ... والسيرة مليئة بالمواقف التي تدلل على ذلك وتبرهن عليه، بما يفوق حد التصور والخيال، وسوف نسوق بعضها على سبيل الإيضاح والبيان، لتستبين سبيل المحبين الصادقين لمن أرسله ربه رحمة للعالمين ومنارة للتائهين وهداية للحائرين.

إنه صاحب النبي ﷺ ورفيقه في شبابه، وهو أول من آمن به، وأول من صلى معه وآخر من صلى به وهو الذي صدَّقه حين كذَّبه الناس وهو الذي بذل النفس والنفيس في سبيل ربه ومحبته ومحبة نبيه ﷺ.

لقد أحبَّ أبو بكر رضي الله عنه النبي ﷺ حبًّا ملك عليه فؤادي وجوارحه، حتى أنه كان يتمنى أن يفدي النبي ﷺ بنفسه وماله وولده والناس أجمعين.

* وها هو موقف من المواقف التى تعرَّض لها أبو بكر رضي الله عنه.

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٤٠).

ففى يوم من الأيام اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً فألحَّ أبو بكر على النبى ﷺ فى أن يُعلنوا إسلامهم أمام قريش فقال له النبى ﷺ: يا أبا بكر إنَّا قليل.

فلم يزل أبو بكر يُلح على النبى حتى وافقه رسول الله ﷺ.

ودخل النبى ﷺ وأصحابه المسجد وقام أبو بكر فى الناس خطيبًا يدعو الناس إلى الله جل وعلا فقام المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين فضربوهم ضربًا شديدًا... وكان النصيب الأكبر من الضرب لأبى بكر فقد ضربه عتبة بن ربيعة ضربًا شديدًا حتى اختفت معالم وجهه بعد أن تورَّم وانتفخ.

وجاء بنو تيم (قوم أبى بكر) وأنقذوه من قريش وحملوه حتى أدخلوه منزله وهم لا يشكُّون فى أنه قد مات فعادوا إلى قريش وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ابن ربيعة.

ثم عادوا إلى أبى بكر وحاولوا أن يكلموه لكنه كان مُغمىً عليه من شدة الضرب فما تكلم إلا آخر النهار.

فكان أول كلمة تخرج من فمه أنه قال: ما فعل رسول الله ﷺ.

فقالت له أمه: والله يا بُنى لا علم لى بصاحبك.

فقال لها أبو بكر: اذهبى إلى أم جميل فاطمة بنت الخطاب.

فاسأليها عنه... فخرجت أمه وذهبت إلى فاطمة بنت الخطاب وقالت لها: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله.

فظنت فاطمة أنها جاسوسة جاءت إليها من عند قريش.

فقالت لها: لا أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين

أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت... قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا فدنت أم جميل وأعلنت الصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسقٍ وكفرٍ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شىء عليك منها.

قالت: سالمٌ صالحٌ. قال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله علىّ ألا أذوق طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى آتى رسول الله ﷺ.

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس خَرجَتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ، فقبَّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله، ليس بى بأس! إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه أمى برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت[1].

إنه الحب فأين المحبُّون؟

وذهب النبى ﷺ إلى أبى بكر وأخبره بأن الله قد أذن له بالهجرة ففرح أبو بكر حتى بكى بكاء شديدًا من شدة الفرح.

وأعدَّ أبو بكر الراحلتين وأعدَّ الزاد والماء وبدأت رحلة الهجرة التى كانت أعظم حدث فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٩- ٣٠).

وخرج النبى ﷺ من مكة ومعه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه حتى وصلا إلى غارٍ قريب من مكة.. وهو غار «ثور» فدخل أبو بكر الغار حتى يطمئن على أنه ليس فيه شيء يؤذى النبى ﷺ.

فلما دخل إلى الغار مسحه ونظفه ووجد فى جدار الغار بعض الفتحات فقام وسدَّها كلها ما عدا واحدة فما كان منه إلا أن جلس على الأرض وسَّدها بقدمه ثم نادى على الرسول ﷺ ليدخل الغار آمنًا مطمئنًا.

ودخل النبى ﷺ وأراد أن ينام ويستريح فوضع رأسه على رجل أبى بكر ونام...

وفى تلك اللحظة جاء ثعبان أو عقرب ولدغ أبا بكر ومع ذلك لم يوقظ الرسول ﷺ من نومه واشتد الألم على أبى بكر فبكى بلا صوت ونزلت دموعه على خد النبى ﷺ فاستيقظ النبى ﷺ وسأله: «ما بك يا أبا بكر؟».

قال: لُدغت يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ: **«ولماذا لم تخبرنى؟»**.

فقال أبو بكر: خشيت أن أوقظك وأنت بحاجة إلى النوم لكى تستريح يا رسول الله.

فقام النبى ﷺ فبصق على قدم أبى بكر فشُفيت بإذن الله ودعا له النبى ﷺ بالجنة.

* وفى هذه اللحظة كان المشركون يتتبعون آثار أقدام الرسول ﷺ وصاحبه... وبحثوا عنهما فى كل مكان حتى وصلوا إلى الغار الذى كان

فيه النبى ﷺ وأبو بكر.

فنظر أبو بكر إلى أقدام المشركين فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.

فقال له النبى ﷺ بكل ثقة ويقين: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»(١).

* لقد حفظ الله نبيه ﷺ وأعمى أبصار المشركين عن رؤية النبى ﷺ وصاحبه رغم أنهم كانوا على بُعد أمتار قليلة منهما.

* ومكث النبى ﷺ وأبو بكر فى الغار ثلاثة أيام.

وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتى بالطعام إليهما وكانت قد شقَّت نطاقها(٢) نصفين فجعلت الطعام فى أحدهما وربطت وسطها بالآخر ولذلك سماها النبى ﷺ بذات النطاقين وقال لها: «**أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة**».

* وكان عبد الله بن أبى بكر يأتى كل ليلة ويبيت مع النبى ﷺ ومع أبى بكر فإذا أصبح الصباح عاد إلى مكة وكأنه كان فيها لم يخرج منها حتى يستمع إلى كلام المشركين وما يدبرونه للنبى ﷺ وصاحبه ثم يعود إلى الغار فى الليل ليخبر النبى ﷺ بكل ما سمعه.

* وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يخرج بالأغنام لتمسح آثار أقدامها آثار أقدام عبد الله بن أبى بكر فلا يعرف أحدٌ شيئًا عن ذهابه إلى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٥٣) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) النطاق: هو حزام تربطه المرأة على وسطها..

النبى ﷺ ولا يشك أحدٌ فى أمره.

* وكان النبى ﷺ وأبو بكر قد استأجرا رجلاً كافرًا اسمه (عبد الله ابن أُريقط) ليدلهما على الطريق فقد كان ماهرًا بالطريق يحفظ طُرق الصحراء وشعابها.

وكانا قد دفعا إليه الراحلتين وواعداه أن يأتى إليهما بالراحلتين فى غار ثور بعد ثلاثة أيام.

* ولما وصل عبد الله بن أُريقط انطلق معه النبى ﷺ وأبو بكر وعامر بن فهيرة... وبدأت الرحلة إلى المدينة المنورة.

محبة تفوق الخيال:

* وكان أبو بكر يسير أمام النبى ﷺ مرة وخلفه مرة وعن يمينه مرة وعن يساره مرة فتعجب النبى ﷺ وقال: «**ما لك يا أبا بكر؟**».

فقال أبو بكر: يا رسول الله أذكر الطلب - أى الكفار الذين يطاردونك - فأمشى خلفك ثم أذكر الرَّصَد - أى الجواسيس الذين يرصدونك ويُعدون لك الكمائن - فأمشى أمامك وعن يمينك وعن شمالك فأنا أخشى عليك منهم يا رسول الله.

فقال له النبى ﷺ: «**يا أبا بكر لو كان هناك أذى ينتظرنى لأحببت أن يكون بك دونى؟**».

فقال أبو بكر: أجل يا رسول الله... فلئن قُتلتُ أنا فإنما أنا رجلٌ واحد.. ولئن قُتلت أنت ضاعت الأمة كلها.

* وبينما هم فى الطريق إذ أحسَّ النبى ﷺ بشىء من التعب فنظر أبو بكر حتى رأى ظل شجرة ففرش للنبى ﷺ تحت ذلك الظل ثم قال

للنبي ﷺ: اضطجع هنا يا رسول الله... فاضطجع النبي ﷺ.

ثم ذهب أبو بكر يبحث ويرى إذا كان هناك أحدٌ من المشركين يتبعهم فوجد راعي غنم فسأله: يا غلام هل عندك من لبن؟ قال: نعم. فأمره أبو بكر أن يحلب له بالأجر ثم أمره أن ينفض ضرعها من الغبار وأن ينفض كفيه من التراب ثم حلب اللبن وأخذه أبو بكر وانتظر حتى استيقظ النبي ﷺ فقال له: اشرب يا رسول.. فشرب.. ثم قال له: اشرب.

يقول أبو بكر: فشرب النبي ﷺ حتى ارتويت... يا له من حب لا يخطر على قلب بشر.

ولذلك كان الجزاء من الله ومن رسوله ﷺ في بيان فضل هذا الرجل ومكانته عند الله وعند رسوله ﷺ فقد قال ﷺ: «**مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ**[1] **إِلَّا وَقَدْ كَافَأْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافئه اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نفعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»[2].

ومما يدل على مدى ما كان من التواصل بين قلب أبي بكر المفعم بالحب وبين النبي ﷺ وما كان يكنُّه لأبي بكر من الحب ما رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**»؛ فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا؛ فعجبنا له،

---

(١) يدٌ، أي: فضلٌ.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٦١) كتاب المناقب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦١).

وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يُخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا؛ فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَّا خُلَّةَ الإِسْلَامِ لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**»(١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما عرَّض الرسول ﷺ على المنبر باختياره اللقاء على البقاء و لم يُصرح خَفِي المعنى على كثير ممن سمع و لم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به ثاني اثنين إذ هما في الغار وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ؛ فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى و قال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا فسكَّن الرسول ﷺ جزعه و أخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر ليعلم الناس كلهم فضله ولا يقع عليه اختلاف في خلافته فقال: إن منِّ أمنّ الناس عليَّ في صُحبته و ماله أبو بكر»(٢).

* وهذا أبو أيوب الأنصاري الذي استضاف النبي ﷺ حين قدم المدينة قرابة سبعة أشهر، فكان يقدم إليه الطعام والشراب؛ فيتحسس هو وزوجته مواضع أصابع النبي ﷺ فيأكلان ويشربان منها التماسًا للبركة ... وذات مرة انكفأ كوب من الماء في الطابق الأعلى الذي كانا يعيشان فيه -نزولًا على رغبة النبي ﷺ- فخشيا أن يصيب النبي ﷺ شيء من

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٩٠٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٢) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) لطائف المعارف.

الماء فأخذا قطعة من القطيفة فشقَّاها نصفين فأخذا يجففان الماء وكانا لا يملكان سواها.

* وهذا أبو ذر الغفاري الذي أهداه النبي ﷺ غلامًا وأوصاه أن يُحسن إليه فأمر زوجته بأن تقدم له أفضل الطعام والشراب واللباس، ثم قال لها: لقد أوصاني الرسول ﷺ به خيرًا، وليس أفضل من أن أُعتقه لوجه الله، فقال له: يا غلام اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله.

* وهذا سواد بن غُزية ... كان النبي ﷺ يسوِّي بين صفوف الجيش بالعصا فكانت بطن سواد هذه بارزة عن الصف بعض الشيء لبدانته؛ فلمس العصا بطنه عن غير عمد من النبي ﷺ فقال: لقد أوجعتني يا رسول الله، فأقِدني منك ... يريد أن يقتص من النبي ﷺ؛ فما كان منه ﷺ إلا أن كشف عن بطنه -في وسط ذهول من الصحابة- فانكبَّ سواد على بطن النبي ﷺ يُقبِّلها؛ فتعجب النبي ﷺ وسأله ماذا تصنع يا سواد؟ فقال: يا رسول الله..حضر ما ترى -أي: من القتال- فقد أُقتل في سبيل الله وأردت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمسَّ جلدي جلدك يا رسول الله!!

*** الحب الصادق يظهر وقت الشدائد:**

تعرَّض الحبيب ﷺ يوم أُحد إلى ما لم يتعرض له من قبل؛ فقد كُسرت رباعيته -مقدمة أسنانه- وهُشِّمَت البيضة على رأسه، وكانت ابنته فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تغسل عنه الدم ... وكان علي ابن أبي طالب يسكب عليها بالمجن، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة؛ أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادًا فألصقته بالجرح، فاستمسك الدم؛ حتى أُشيع أنه مات؛ فهبَّت القلوب المحبة لتناصر وتناضل عن حبيبها؛ فكانت

البطولات الخارقة والمحبة الصادقة.

وذلك أنه لما قال رسول الله ﷺ: «**هَلُمَّ إليَّ أنا رسول الله**» هاجمه القوم وأرادوا قتله؛ فقام تسعة من الرجال الأفذاذ من أصحابه ليدافعوا عنه بما لم يعلم التاريخ مثله من الحب.

ويحكي لنا سيدنا أنس ما كان من خبر هؤلاء فيقول رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أُفرد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه - أي: أدركوه ودنو منه- قال: «**من يردّهم عنًّا وله الجنة**»، أو هو: «**رفيقي في الجنة**»؛ فتقدم رجل من الأنصار؛ فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضًا؛ فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة**»، أو هو: «**رفيقي في الجنة**»؛ فتقدم رجل من الأنصار؛ فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضًا، فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة**»، أو هو: «**رفيقي في الجنة**»؛ فقام رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل؛ فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة؛ فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «**ما أنصفنا أصحابنا**»(١).

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، وقد قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط، وبعدما قُتل لم يبقَ مع النبي ﷺ سوى طلحة وسعد رضي الله عنهما.

أما سعد فقد كان يرمي بالنبل دفاعًا عن النبي ﷺ الذي كان يناوله النبل وهو يقول: ارم سعد فداك أبي وأمي؛ حتى أنه كان يناوله السهم ما له من نصل، فيقول: ارم به.

ولقد قال علي رضي الله عنه تعليقًا على ذلك: ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٨٩) كتاب الجهاد والسير.

لأحد إلا لسعد بن أبي وقاص.

ويحكي سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طرفًا من هذه المعركة وهذا الموقف الرهيب المهيب الذي عاين فيه الموت بل شارف عليه وكان قاب قوسين أو أدنى منه، يقول: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين -أي قتلًا وجرحًا- فقال رسول الله ﷺ: «ارم فداك أبي وأمي»، فنزعت بسهمٍ ليس فيه نصل؛ فأصبت جبهته؛ فوقع وانكشفت عورته؛ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[1].

وأما طلحة -هذا البطل الهمام المغوار- فيقص علينا سيدنا جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كان من تضحيته وشهادة النبي ﷺ له يوم أُحد، فيقول: «لما كان يوم أُحد وولى الناس..كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلًا منهم طلحة؛ فأدركه المشركون؛ فقال النبي ﷺ: «**من للقوم**»؟ قال طلحة: أنا..قال: «**كما أنت**» فقال رجل: أنا، قال: «**أنت**»؛ فقاتل حتى قُتل ثم التفت؛ فإذا المشركون؛ فقال ﷺ من لهم؟ قال طلحة: أنا، فقال: «**كما أنت**»؛ فقال رجل من الأنصار: أنا، قال: «**أنت**»؛ فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي الله طلحة فقال: «**من للقوم**»؟ فقال طلحة: أنا؛ فقاتل قتال الأحد عشر حتى قُطعت أصابعه؛ فقال: «حَسّ»؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون**»..ثم رَدَّ الله المشركين[2].

ولقد جُرح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تلك الغزوة تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤١٢) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه النسائي (٣١٤٩) كتاب الجهاد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٧١).

جُرحًا وشُلَّت أصابعه -أي: السَّبابة والتي تليها-، وقال النبي ﷺ فيه يومئذ: «**مَن أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة ابن عبيد الله**»(١).

ولقد كان يوم أُحد بحقٍّ يوم طلحة، ولقد احتمل طلحة النبي ﷺ مغشيًا عليه وهو أقرب ما يكون إلى الموت، وكان كلما دنا منه المشركون قاتل دونه حتى أسنده إلى الشِّعب؛ حتى أنه ﷺ قال عنه: «**أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع**»(٢)، أي: وجبت له الجنة.

* وهذا كعب بن مالك صاحب الفطنة والذكاء والتضحية والفداء والحب والوفاء وهو يحكي لنا قائلًا: «لما كان يوم أُحد وصرنا إلى الشِّعب كنت أول من عرفته، فقلت: هذا رسول الله ﷺ فأشار إليَّ بيده أن اسكت، ثم ألبسني لَأْمته -أي درعه- ولبس لَأْمتي، فلقد ضُربت حتى جُرحت عشرين أو قال: بضعة وعشرين جرحًا كل من يضربني يحسبني رسول الله ﷺ».

* ولو استطردنا في الحديث عن هذه الغزوة وما كان فيها من البطولات النادرة لما وسعنا المقام ولكن حسبُنا أن نهمس في آذان من يدَّعون محبة النبي ﷺ وهم أبعد الناس عن سنته ومنهجه، فنحن لا

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٧٣٩) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٢).

(٢) حسن: رواه الترمذي (١٦٩٢) كتاب الجهاد، وأحمد (١٤٢٠)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٠).

نطلب منك أن تجود بنفسك كما كان يفعل هؤلاء وإنما نريدك أن تسير على الطريق الحق حتى تصل إلى رضا ربك وجنته ودار مقامته.

*** مشهد عجيب لحب الحبيب ﷺ:**

جاء في الصحيحين عن عروة بن مسعود عندما أرسلته قريش ليعقد صلح الحديبية مع النبي ﷺ -وكان لا يزال مشركًا- قال: «لقد وفدت على الملوك، ووالله ما رأيت ملكًا يُعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، فوالله ما تنخَّم نُخامة إلا وقعت في كف رجلٍ منهم فدلك بها جلده ووجهه وما أمرهم بأمره إلا ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون النظر إليه تعظيمًا له»[١].

*** الجمادات والحيوانات تحب النبي ﷺ:**

ولا عجب..فلا تظنن أن هذه الجمادات لا تحب ولا تشعر؛ فإنها تُسبِّح الله تعالى ليل نهار في الوقت الذي يغفل فيه كثير من الناس عن ذكر الخالق (جل وعلا) ... وتلك الجمادات تتفاعل مع النبي ﷺ كما جاء عند البخاري أنه ﷺ قال: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[٢]، وجاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»[٣].

وهذا عبد الله بن مسعود يقول: «والله إنَّا كنا نسمع صوت تسبيح

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٣٤) كتاب الشروط.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٤٨٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٣٦٥) كتاب الحج.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٧) كتاب الفضائل.

الحصى في يد النبي ﷺ»..بل وتسبيح الطعام أيضًا.

وهذا جذع نخلة بكى لفراق النبي ﷺ إياه، فقد كان ﷺ إذا خطب صعد عليه فجاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله: ألا نصنع لك منبرًا لتخطب عليه؛ فقال: «**نعم**»؛ فلما صعد النبي ﷺ المنبر سمع الجذع يحن حنين الناقة العُشراء، وكأنه يبكي فنزل النبي ﷺ من على المنبر واحتضن الجذع فسكن(١).

وفي رواية أنه ﷺ أسرَّ إلى الجذع بكلام؛ فقال له: «**اسْكُنْ إِنْ تَشَأْ غَرَسْتُكَ فِي الْجَنَّةِ فَيَأْكُلُ مِنْكَ الصَّالِحُونَ وَإِنْ تَشَأْ أُعِيدُكَ كَمَا كُنْتَ رَطْبًا**»؛ فسكن الجذع وكفَّ عن البكاء.

وفي رواية ثالثة قال ﷺ عن الجزع: «**والذي نفسي بيده لو لم ألتزم الجزع لظل يحن ويبكي إلى يوم القيامة**».

ولذلك كان الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول مندهشًا: جمادٌ يحن لرسول الله ﷺ وقلوب لا تحن لرسول الله ﷺ.

فإذا كنت حبيبي في الله محبًّا صادقًا لنبيك ﷺ فادع إلى ما دعا إليه والتزم بسنته لتكون ممن يُحشرون مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

جعلنا الله وإياكم منهم ومعهم إنه ولي ذلك ومولاه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

* * *

---

(١) صحيح: رواه البخاري..

محبة الملك جل جلاله

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] ؛ فلا يُتصور أن يَدَّعي واحد من الناس محبته لله تعالى ثم يسأل غيره ويدعو سواه.

فهذا مما لا يتصوره عقل ... ولذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود، قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»[2].

ولذلك أخبر -جل وعلا- أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله ... لتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له؛ فهم لا يشركون به شيئًا، ولا يعبدون إلا هو.

* ولقد صدق القائل:

تعصي الإله وأنت تزعم حُبَّه ... هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حُبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ

فإذا كنت تحب الله -جل وعلا- حقًّا فسل نفسك هل عملت عملًا صالحًا يقربك من الله؟

أم هل تركت معصيةً ابتغاء مرضاة الله؟ فإن كنت ممن فعل ذلك فأنت على الطريق وإلا فراجع نفسك وأعِد حساباتك وقِفْ وقفة

(١) سورة البقرة: الآية: (١٦٥).
(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٥٢٠) كتاب التوحيد، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.

محاسبة لترى أين أنت من الطريق؟ .... ولذلك جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»(١).

*** النبي إمام المحبين:**

وهذا رسول الله ﷺ يضرب لنا أروع المثل في محبته لله سبحانه فكان يقوم من الليل حتى تتورم قدماه، وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولما سألته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن ذلك، قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(٢).

وهو الذي تحمَّل ما تنوء الجبال الرواسي بحمله في سبيل تبليغ دعوته، ولاقى من قومه من الإيذاء ما الله به عليم.

ولقد ظل ﷺ مُحبًّا لله حتى آخر لحظة في حياته ... فهذا جبريل عليه السلام يُخيره بين كنوز الدنيا والخُلد فيها ثم الجنة وبين لقاء ربه فيقول ﷺ: «**بَلِ الرَّفِيقُ الْأَعْلَى**»(٣)، وفي رواية أخرى، قال: «**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**»(٤).

وهكذا اختار جوار ربه ... وكيف لا؟ وهو القائل: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ**

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٩٤١) كتاب الإكراه، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧١) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨١٩) كتاب القيامة والجنة والنار.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٢٥٨١٥)، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (١/ ٤٧٠).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٤٥٨٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٤٤٤) كتاب فضائل الصحابة.

اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»(١).

ولذلك يقول أحد السلف لابنه: أتحب الله؟ قال: أجل، قال: أتحب لقاء الله؟ قال: أجل، قال: إذًا فأحب الموت؛ فإنه ليس بينك وبين لقاء الله إلا أن تموت.

وما جزع الناس من الموت إلا لأنهم لم يستعدوا له بما ينفعهم من الأعمال الصالحة - إلا من رحم ربي وعصم - ولذلك إذا كان العبد يحسن الظن بربه فإنه يتمنى لقاء ربه في أقرب وقت لشدة شوقه إلى لقاء ربه (جل وعلا) .... ولذلك حين حضر الموت سيدنا بلالًا رضي الله عنه بكت زوجته وصاحت: واحزناه..واحزناه؛ فقال لها وهو يبكي فرحًا بلقاء ربه: بل..قولي: وافرحاه غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

*** يحبهم ويحبونه:**

جاء في صحيح البخاري كما في الحديث القدسي أن رب العزة –جل وعلا– قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٨) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٣) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

وقال ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»(١).

بل تأمل هذا الحديث الجميل أن النبي ﷺ قال: «وَاللهِ لَا يُلْقِي اللهُ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ»(٢).

*** علامات حب الله للعبد:**

إذا أراد العبد أن يعلم ما إذا كان الله -جل وعلا- يحبه أم لا؛ فهل لذلك من علامة؟

نعم..ولكن ما هي تلك العلامات؟ فمن هذه العلامات: الثبات على الطاعة والعمل الصالح ... فمن علامات قبول الطاعة أن يوفقك الله لطاعة أخرى.

ومنها الصحبة الصالحة التي تعينك على طاعة الله ... ومن ذلك أيضًا أن يفقهك الله في الدين فلقد قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(٣)، ومن ذلك أيضًا أن يستعملك في نصرة دينه وتبليغ رسالته إلى خلقه وأن يجعلك سببًا في هدايتهم، وغير ذلك.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٠٤٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة الآداب.

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٠٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣١٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

* **نماذج أحبها الله ﷻ:**

فهذه السيدة خديجة رضي الله عنها ينزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فيقول له: **«يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ»**[١].

والسؤال: ما الحكمة من نزول جبريل عليه السلام بتلك البشرى العظيمة ولم يبقَ على وفاة خديجة سوى دقائق معدودات؟ إنه إشهاد للبشرية على حب الله تعالى للسيدة خديجة وبيان فضلها لتكون قدوة لغيرها.

* بل ها هو الحق (جل وعلا) يأمر نبيه ﷺ أن يقرأ سورة البينة على أُبي بن كعب رضي الله عنه.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ لأُبى بن كعب: **«إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن»**، وفى لفظ: **«أمرنى أن أُقرئك القرآن»**، قال أُبى: الله سمَّانى لك؟: قال: **«نعم»** قال: وذُكرت عند رب العالمين؟ قال: **«نعم»** فذرفت عيناه[٢].

وفى رواية: عن عبد الرحمن بن أبزى، قال: قال أُبى بن كعب قال لى رسول الله ﷺ: **«أُمرتُ أن أقرأ عليك القرآن»** قلت: يا رسول الله! وسُمِّيت لك؟ قال: **«نعم»** قلت لأبى: فرحت بذلك؟ قال: وما يمنعنى وهو تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٣][٤].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٨٢١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٩٩) كتاب صلاة المسافرين، والبخارى (٤٩٥٩) كتاب التفسير وأحمد (٣/ ١٣٠).

(٣) سورة يونس: الآية: (٥٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٢، ١٢٣) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٥١).

* وهذا عرش مالك المُلك وملك الملوك سبحانه يهتز لموت سعد ابن معاذ رضي الله عنه فرحًا بقدومه، وينزل سبعون ألف ملك يشيعون جنازته؛ بل ويضحك الله -تبارك وتعالى له يوم موته-؛ فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

*** وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها:**

ينبغي لمن أراد أن يغرس بذور حب الله -جل وعلا- في قلبه أن يتذكر عظيم نعم الله عليه، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1]، ولذلك صدق أحدهم حين قال: «نظرك فيك يكفيك»، ولو استعرضنا نعم الله التي لا تُعد ولا تحصى فإن الكلام ينتهي ولا تنتهي النِّعم.

فهذه نعمة البصر ... فالعين كما قال العلماء بها خمسة آلاف عدسة منها ما هو مختص بتقريب الصورة وبُعدها ومنها ما هو مختص بالعمل في الظلام، أو في النور، ومنها ما هو مختص بالألوان وغير ذلك ... وما سبب الأمراض التي تصيب العين إلا نتيجة اختلال وظائف بعض تلك العدسات.

وهذا القلب الذي ينبض في السنة الواحدة ما يقارب ٤٢ مليون نبضة لا يملك الإنسان منها نبضة واحدة، وكل قطرة دم يضخها القلب إلى جارحة من الجوارح فعصى بها العبد ربه فسوف يُسأل عن ذلك ويحاسَب عليه.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]، ولله -جل وعلا- في كونه سنن

---

(١) سورة الذاريات: الآية: (٢٦).

(٢) سورة فصلت: الآية: (٢١).

لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحدًا من الخلق كائنًا من كان مهما ادَّعى لنفسه من أسباب المجاملة ومقومات المحاباة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(١)، وإنما يكون شكر النعمة باستعمالها في مراضي الله لا في معاصيه ... ولقد أحسن القائل حين قال:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم

وحُطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النِّقم

وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم

وسافر بقلبك بين الورىٰ ... لتبصر آثار مَن قد ظلم

فإذا نظرت بعين المتأمل إلى ما حباك الله به من نعم فلن تجد بُدًّا من محبته والتقرب إليه والتوكل عليه وإفراده وحده بالعبادة والسعي الحثيث إلى ابتدار أمره والمسارعة إليه واجتناب نهيه والبعد عنه لتكون عبدًا حقيقيًا ومُحبًّا صادقًا فما من قولٍ بلا عمل إلا ويعود على صاحبه بالوبال.

يا مسلمًا يدَّعي الإسلام مجانًا ... هلَّا أقمت على دعواك برهانًا

* **محبة الله ورضاه في مراقبته وتقواه:**

وإنما أسوق هذه القصة للعبرة والعظة.

فهذا عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه الذي أرسله أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب إلى مشارق (قيسارية) فأسره ملك الروم ومن معه من الصحابة.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٧).

فلما أراد هذا الملك أن يعلم السر الخفي وراء انتصار هؤلاء أمر جنوده أن يراقبوهم وينظروا أكثرهم عبادة لله ليضعه في السجن وينظر ماذا يصنع؛ فوقع الاختيار على عبد الله بن حذافة، وكانت الكرة الأرضية في ذلك الوقت منقسمة بين الفرس والروم كأكبر دولتين عظيمتين؛ فأراد ملك الروم أن يساوم عبد الله بن حذافة؛ فقال له: سأعرض عليك أمرًا؛ فقال عبد الله بن حذافة: وما هو؟ فقال له الملك: أعطيك نصف ملكي على أن تتنصر وتترك دين محمد؛ فتبسَّم عبد الله تَبسُّم الواثق من موعود ربه، وقال: «مُلك!!.. والله لا مُلكك ولا ملك العرب والعجم ولا ملك آبائك وأجدادك يساوي عند الله جناح بعوضة، هيهات.. هيهات».

فزاد الملك في عرضه، فقال له: أعطيك نصف ملكي وأُزوجك ابنتي، وهذا معناه أن المُلك سيؤول إليه إن فعل ذلك، ولكن عبد الله ثبت على موقفه؛ فأمر الملك به فصُلب على خشبة وجيء بواحدٍ من أمهر الرماة فأخذ يرميه حول رقبته ويديه وبين رجليه ليلقي الرعب في قلبه وكلما قال له الملك أتتنصر؟ يقول: هيهات..هيهات، وينطق بشهادة الحق.

فأمر الملك جنوده فأعدُّوا قِدرًا من زيت مغلي وأُتي باثنين من أصحاب عبد الله بن حذافة فأُلقي بهما فيه فما أن وقعوا فيه حتى انفصلت لحومهم عن عظامهم وطفت الجماجم على سطح الزيت، فأعاد الملك نفس السؤال على عبد الله، قال: أتتنصر؟ فأجابه بنفس الجواب، فأمر به أن يُلقى في القدر فلما همُّوا بإلقائه بكى؛ فقال الملك ائتوني به -ظنًا منه أنه يبكي جزعًا من الموت-؛ فقال له: أتتنصر؟ فقال: لا، قال: فما الذي

جعلك تبكي؟ قال: أبكي؛ لأن لي نفسًا واحدة ستُقتل في سبيل الله وكنت أتمنى لو أن لي بعدد شعر رأسي أنفسًا لتُقتل في سبيله.

فأشار بعض حاشية الملك عليه أن يحبسه ويرسل إليه أجمل نساء الروم حتى يقع في الفاحشة فقد فارق أهله منذ أربعة أشهر، وبالفعل أدخلوها عليه في سجنه، فخلعت ثيابها وحاولت إغرائه وإيقاعه في شباكها ولكنها لم تفلح وأعيتها الحيل في سبيل ذلك، حتى أنها قالت: «والله ما أدري..أأدخلتموني على بشر أم على حجر، ووالله لا يدري أأنثى أنا أم ذكر».

وهكذا تتحطم الشهوات والإغراءات حين تصطدم بأول صخرة من صخور الإيمان، فلما لم يصل الملك إلى مراده، رأى أن يُجَوِّع عبد الله ثلاثة أيام، ثم يضع له خمرًا ولحم خنزير فيكسر شوكته ويرغمه على فعل المحرم، ولو على سبيل الاضطرار.

ولما فتحوا عليه زنزانته بعد ثلاثة أيام رأوا العَجب العُجاب.

فاللحم والخمر كما هو، وعبد الله بن حُذافة ﵁ وصل به الحال إلى أن انثنى عُنقه من قلة الطعام والشراب، بل وأشرف على الموت؛ فقالوا له: ما الذي منعك من أن تأكل لحم الخنزير وأن تشرب الخمر مع أن هذا مباح في شريعتكم في حالة الضرورة؟ فقال: والله لقد كرهت أن أُشمت أعداء الإسلام بالإسلام وأهله.

وعلى هامش الموضوع نوجه رسالة إلى أختنا التي لبست الحجاب ثم خلعته مرة أخرى فجعلت أعداء الإسلام يشمتون بها ... وهذا الذي لا يصلي ويعق أبويه ويؤذي جيرانه ولا يحسن إلى من يتعامل معه.

ولذلك إن أردنا أن ندعو غير المسلمين إلى الإسلام فمن الأولى والأجدر بنا أن نجعل من الإسلام وتعاليمه واقعًا عمليًا نعيشه في حياتنا ومنهجًا نسير على هداه لنكون من خير أمة أُخرجت للناس وكما قيل: «فاقد الشيء لا يعطيه»..

نعود لنستكمل قصة ابن حذافة.

فبعد أن رأى الملك ما رآه من ثبات عبد الله بن حذافة على دينه كما لو كان جبلًا راسيًا، قال له: سأُطلق سراحك ولكن شريطة أن تُقبِّل رأسي؛ فانزعج الصحابة ولم يوافقوا على ذلك، ولكنه قال للملك: نعم..أُقبِّل رأسك ولكن شريطة أن تُطلق سراح كل من معي، فوافق الملك.

فأطلق الملك سراحهم جميعًا بعد أن قبَّل عبد الله بن حذافة رأسه، فلما قدموا المدينة وعلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بما كان..بكى ودنا من عبد الله وقبَّل رأسه، وقال: «حقٌّ على كل مسلم أن يُقبِّل رأس عبد الله بن حذافة».

*** صدقوا الله فصدقهم الله:**

إنه الحب إذا مسَّ شغاف القلوب؛ فترى المحبَّ يستعذب العذاب ويتحمل كل الصعاب في سبيل إرضاء محبوبه والقرب منه، وهكذا كان أصحاب النبي ﷺ أطهر الناس بعد رسول الله ﷺ الذين قال الله جل وعلا عنهم: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

---

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٦).

ونضرب على ذلك مثالًا واحدًا خشية السآمة والملل وحتى لا نطيل..إنه عبد الله بن جحش صاحب القلب الكبير الذي امتلأ بحب العلي القدير فكانت أمنيته أن يُقتل في سبيل الله لينال كرامة الشهداء ليس هذا فحسب وإنما يريد ذلك بكيفية تنمُّ عن فداء وعطاء بلا حدود..

فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ: أن عبد الله بن جحش قال له يوم أُحد: ألا تدعو الله..فخلوا في ناحية فدعا سعد؛ فقال: «يا رب إذا لقيت العدو؛ فلقِّني رجلًا شديدًا بأسه..شديدًا حرده (غضبه وغيظه) أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه»[1]؛ فأمَّن عبد الله بن جحش، ثم قال: «اللهم ارزقني رجلًا شديدًا حرده..شديدًا بأسه.. أقاتله فيك فيقتلني..ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني؛ فإذا لقيتك غدًا، قلت: فيم جُدع أنفك وأذنك؛ فأقول: فيك؛ فتقول: صدقت».

قال سعد: «لقد كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، ولقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط».

* وعن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش: اللهم إني أُقسم عليك أن ألقي العدو غدًا فيقتلوني ويجدعوا أنفي وأذني ثم تسألني: بِمَ ذاك؟ فأقول: فيك..قال سعيد بن المسيب: «إني لأرجو أن يبرَّ الله قسمه كما برَّ أوله».

وهل يفعل ذلك إلا مخلص محب أحرق الشوق فؤاده للقاء ربه ومولاه؟

---

(١) سلبه، أي: فرسه وسلاحه ولأمته.

فـاللهم ارضَ عـنهم واحـشرنا معهـم وفي زمـرتهم، وإن لـم نعمـل بعملهم، فاللهم إنا نُشهدك أننا نحبهم، ونحبّ من عَمِل بعملهم وسار على منوالهم إلى يوم الدين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

❊ ❊ ❊

علو الهمة في طلب الجنة

*** والله يدعو إلى دار السلام:**

إذا كنا ننشد علو الهمة في طلب العلم والعبادة والجهاد وفي محبة الله تعالى ورسوله والصالحين؛ فهل هذا مقصود لذاته أم أنه وسيلة لغاية أعظم؟

لا شك أنه يصبُّ في وعاء واحد ألا وهو أن يَمُنَّ الله تعالى علينا بجنته ورضوانه في دار كرامته ... وها هو رب العزة يدعونا إليها فهل نجيب دعوته؟

وهل من عاقل يرفضها.. أو يقصِّر في طلبها والحرص عليها؟!

وها هو رسول الله ﷺ يدعوك إلى الجنة والتشمير عن ساعد الجد لنيلها؛ فيقول: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ**»(١).

وجاء عند الترمذي أيضًا أنه ﷺ قال: «**إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلَيَّ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا؛ فَقَالَ اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ وَاعْقِلْ عَقَلَ قَلْبُكَ إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ فَاللهُ هُوَ الْمَلِكُ وَالدَّارُ الْإِسْلَامُ وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولٌ فَمَنْ أَجَابَكَ**

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٥٠) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٢٢).

دَخَلَ الْإِسْلَامَ وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مَا فِيهَا»(١).

ويؤكد ذلك ما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(٢).

* ولنا في عمر بن عبد العزيز -خامس الخلفاء الراشدين- الأسوة والقدوة في الهمة العالية للجنة، وكان ذلك عندما كان لا يزال واليًا على المدينة؛ فقد أرسل وزيره «رجاء بن حيوة» ليشتري له ثوبًا جديدًا، فاشترى له ثوبًا بخمسمائة درهم؛ فلما آتاه به، قال له: ما رأيك في هذا الثوب؟ فقال: إنه ثوب جميل لولا أنه رخيص الثمن.

ولما أصبح عمر بن عبد العزيز أميرًا للمؤمنين؛ لا أقول أميرًا على إمارة واحدة، وإنما هو رئيس على ستٍّ وعشرين دولة، فقال لرجاء: اشترِ لي ثوبًا جديدًا؛ فاشترى له ثوبًا بخمسة دراهم؛ فقال له: ما رأيك يا أميرَ المؤمنين في هذا الثوب؟ فقال: إنه ثوب جميل لولا أنه غالي الثمن؛ فبكى رجاء وقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين؟ أشتري لك ثوبًا بخمسة دراهم، وأنت أمير المؤمنين فتقول: إنه غالي الثمن؟! قال: أجل، ثم قال: يا رجاء إن لي نفسًا توَّاقة -أي: لا تصل إلى شيء إلا وتتمنى ما هو أفضل وأعلى منه- فلقد تاقت نفسي في بداية الأمر إلى الزواج من فاطمة بنت عبد الملك؛ فلما تزوجتها تاقت نفسي إلى أن أكون واليًا على

(١) صحيح: أخرج الترمذي (٢٨٦٠) كتاب الأمثال، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٥٩٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

المدينة؛ فلما أصبحت واليًا عليها تاقت نفسي إلى أن أكون أميرًا للمؤمنين؛ فلما أصبحت كذلك تاقت نفسي إلى الجنة، وها أنا ذا أعمل لها وأسعى إليها.

* ولذلك عندما جاء صحابي إلى النبي ﷺ يقول له: ماذا تقول بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فإني لا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ؛ فيسأله النبي ﷺ، ويقول له: «**وماذا تقول أنت؟**»؛ فيقول الرجل بكل بساطة: أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار، فقال له النبي ﷺ: «**حولها ندندن**»[(١)]؛ فإن مدار ما يسأله العبد في كل أحواله ويرجوه، إنما هو الفوز بالجنة والنجاة من النار.

*** ألا هل من مشمر للجنة؟؟**

ويبين الحبيب ﷺ طرفًا من نعيم الجنة وما فيها وأنه لا مجال للمقارنة بين عُشر معشار ما فيها وبين الدنيا بما فيها وما عليها؛ فيقول ﷺ كما عند البخاري: «**لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ**»[(٢)].

بل لقد قال ﷺ: «**لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ**»[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٧٩٢)، وابن ماجة (٩١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٦٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٢٥٣) كتاب بدء الخلق.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٥٣٨) كتاب صفة الجنة، وأحمد في «المسند» (١٤٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٥١).

* وكيف يُقدَّر قدر دار غرسها الله تعالى بيده وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، ومُلكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهَّرها من كل عيبٍ وآفة ونقص؛ فإن سألت عن أرضها وتُربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن ملاطها(١) فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من ذهب ولبنة من فضة، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فمن ماءٍ غير آسِن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وإن سألت عن طعام أهلها ففاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير، وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيف الرياح لأشجارها فإنها تستفز بالطرب من يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُسرِع في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير في مُلكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام، وإن سألت عن خيامها وقبابها؛

(١) ملاطها، أي: المونة التي توضع بين اللبنات.

فالخيمة الواحدة من دُرة مجوفة طولها ستون ميلًا من تلك الخيام، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار، وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من استبرق مفروشة في أعلى الرتب، وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرَّة عليها البشخانات وهي الحجارة مزررة بأزرار الذهب.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحُسنهم فعلى صورة القمر، وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاثٍ وثلاثين على صورة آدم عليه السلام، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين وأعلى منه سماع أصوات الملائكة، والنبيين وأعلى منه خطاب رب العالمين، وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها فنجائب تسير بهم حيث شاءوا من الجنان، وإن سألت عن حُليِّهم وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ على الرؤوس ملابس التيجان، ناهيك عن الحور والقصور والسعادة والحبور بعد النجاة من دار الغرور.

*** للذين أحسنوا الحسنى وزيادة:**

فالحُسنى هي الجنة والزيادة هي رؤية وجه الله تعالى في الجنة..وفي يوم المزيد حين يزورون العزيز الحميد سبحانه وتعالى، ويرون وجهه المُنزَّه عن التمثيل والتشبيه كما يرى أحدنا الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ

وَزِيَادَةٌ﴾(١)، وقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ؛ فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؛ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ يَعْنِي إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ»(٢).

وتأمل قول الله ﷻ بقلبك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾(٣).

فحيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونَسلمُ

* **الجنة منتهى الآمال وغاية الغايات:**

ولذلك كان النبي ﷺ كلما أراد أن يرفع من همَّة أصحابهُ يذكرهم الجنة؛ فترى منهم من يجود بماله وولده بل وبنفسه في سبيل الحصول عليها والوصول إليها وإليك بعضًا من هذه الصور المشرقة التي فَهِمت عن ربها وفقهت عن رسولها ﷺ فعملت وتعبت حتى نالت الرضا من رب الأرض والسموات فخلَّد ذكرهم ورفع شأنهم وقدرهم عنده وجعلهم قدوة يُهتدي بها وأسوة تُحتذى لمن أراد اللحاق بالسابقين إلى الله.

فهذا نبي الله ﷺ يندب أصحابه للصدقة ... يقول عمر بن الخطاب: فوافق ذلك عندي مالًا؛ فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا؛ فأتيت

(١) سورة يونس: الآية: (٢٦).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان، والترمذي (٣١٠٥) تفسير القرآن.
(٣) سورة القيامة: الآيات: (٢٢-٢٥).

بنصف مالي ووضعته في حجر النبي ﷺ؛ فقال له النبي ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ»، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ»؛ فقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله؛ فقلت: والله لا أسبقه إلى شيءٍ أبدًا(١).

ونوجه هذا الكلام لمن يبخل من مال الله على بيوت الله وعياله في الأرض، وهم الفقراء الذين ليس لهم إلا الله؛ فنقول لهؤلاء: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(٢).

والنبي ﷺ يقسم وهو الصادق الذي لا يحتاج للقسم وإنما يؤكد حتى لا يكون في الأمر شك ولا ريبة في قلب أحد، فيقول ﷺ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ»(٣).

*** ربح البيع أبا يحيى:**

لما أراد صهيب الرومي رضي الله عنه أن يلحق بالنبي ﷺ ومَن هاجر معه..تَربَّص له القوم في طريقه للخروج من مكة، وقالوا له: يا صهيب جئتنا صعلوقًا لا مال لك والآن وبعد أن اغتنيت تريد أن تذهب بهذا المال؟ والله لا يكون هذا أبدًا -وكان رضي الله عنه أمهر الرماة، وكانوا يعرفون عنه ذلك؛ فلقد اشتهر به- فقال لهم: إنكم لتعلمون أنِّي أرماكم فلو رميت لقتلت بكل سهم رجلًا منكم..ثم قال: هل أدلكم على ما هو

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٦٧٥) كتاب المناقب، وأبو داود (١٦٧٨)، وحسنه العلامة الألباني في المشكاة (٦٠٢١).

(٢) سورة النحل: الآية: (٩٦).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٥) كتاب الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

أفضل لكم من ذلك؟ فقالوا: وما هو؟ فقال: تتركوني أذهب إلى النبي ﷺ وأدلكم على المكان الذي ادَّخرت فيه مالي.

فوافقوا ... فلما قدم المدينة -وكان الوحي سبقه إلى النبي ﷺ ونزل قرآن يُتلى إلى يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1]- فلما رآه النبي ﷺ هشَّ وبشَّ في وجهه، وقال: «**ربح البيع أبا يحيى..ربح البيع أبا يحيى**»، وكانت هذه كُنية صهيب رضي الله عنه.

* ولقد تجلت أروع الصور في البطولة والفداء وطلب الجنة وبذل المهج والنفوس ثمنًا لها في غزوة بدر الكبرى فقد كان الدافع الرئيس وراء بذل هؤلاء الرجال كل ما في وسعهم من طاقة هو تحفيز النبي ﷺ وتبشيرهم بوعد ربهم بجنة عرضها السموات والأرض ... لا يكون بين الواحد منهم وبينها إلا أن يُقتل في سبيل الله، ويلقي ربه وهو عنه راضٍ تمام الرضا.

* فهذا عمير بن الحمام ... ما كان منه في غزوة بدر الكبرى وهي أول لقاء بين الموحدين والمشركين وكان عدد المسلمين حينها يزيد على الثلاثمائة بقليل وعدد المشركين يناهز الألف بعدتهم وعتادهم وحديدهم ولك أن تتصور قدر الخوف والفزع والهلع الذي قد يكون فيه المرء حينها، ولذا حفزهم النبي ﷺ؛ فقال: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**» فتحمس الصحابة رضوان الله عليهم، فقال عمير:

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٠٧).

بخٍ بخٍ[١]، فقال له النبي ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ**»، فقال: لا شيء إلا أني رجوت الله أن أكون من أهلها، فنزل جبريل عليه السلام في التو واللحظة ليخبر النبي ﷺ أن عُميرًا من أهلها؛ فبشره النبي ﷺ قائلًا: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**» وكانت بيده تمرات فنظر إليها وقال: لئن أنا بقيت أو عشت حتى آكل تلك التمرات إنها لحياة طويلة فألقاها ودخل المعركة وقاتل وقُتل في سبيل الله[٢].

* وهذا أنس بن النضر كان يتمنى أن يشهد بدرًا مع النبي ﷺ ولكن منعه مرض شديد نزل به، فقال: لئن أشهدني الله مشهدًا آخر ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد قاتل رضي الله عنه قتالًا مريرًا حتى لقي سعد بن معاذ فقال له: واهًا لريح الجنة، والله إني لأجد ريح الجنة دون أُحد.

فكان رضي الله عنه من القلة القليلة التي ثبتت في أرض المعركة حين فرَّ الكثيرون ولاسيما حين أُشيع أن النبي ﷺ قد قُتل؛ فلما سمع أنس ذلك، قال: وإن قُتل الرسول ﷺ فماذا تصنعون بعد قتله..قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ؛ فقاتل رضي الله عنه حتى قُتل، ولم يعرفه أحد إلا أخته ببعض بنانه لما كان به من جراح تناهز بضعًا وسبعين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم.

فنزل أمين وحي السماء جبريل عليه السلام يشق السبع الطباق بقرآن يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ

---

(١) بخٍ بخٍ: تعجب، ودهشة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٠١) كتاب الإمارة.

نَّحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾(١).

* ومن المشاهد التي تثير العجب والدهشة في الغزوة أيضًا ما كان من خيثمة بن الحارث رضي الله عنه، وكان له ولد اسمه سعد فأراد أن يستخلفه على أمه وأخواته البنات ليخرج للجهاد مع رسول الله ﷺ وكان سعد لا يزيد عن خمسة عشر سنة، فماذا قال له ولده؟

قال: «والله يا أبت لو كانت الدنيا لآثرتك بها..ولكنها الجنة فوالله لا أوثر اليوم أحدًا بها»؛ فقاتل سعد فقُتل شهيدًا؛ فلما ذهب الصحابة ليواسوا والده في مصابه بولده، قال: «أواه..أواه، والله لقد فاز بها دوني، والله لقد كان أعقل مني، والله لقد رأيته البارحة يسرح في الجنة ويأكل من ثمارها وينادي ويقول: أبتاه إلحق بنا فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا».

* ولقد ربط النبي ﷺ بين أنواع شتى من العبادة وبين الجنة ليبرهن على العلاقة الوثيقة بينهما؛ فالجنة ونعيمها نتيجة للعمل الصالح الذي يحتاج إلى دافع وغاية وكفى بالجنة غاية يسعى العاقل للوصول إليها فيرتاح من كبد الدنيا وعنتها.

فتارة يقول: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٢).

ويقول لأصحابه: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا**

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٢٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣١١٦) كتاب الجنائز، وأحمد في «المسند» (٢١٢٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

شَاءَ»[١]، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[٢]، وهما الصبح والعصر، وأخبر أيضًا: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»[٣]، فرب العزة -جل وعلا- يريد بنا الخير وحسن العاقبة، وكما يقال: «يُثاب المرء رغم أنفه»، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٤].

*** آخر أهل الجنة دخولاً إليها:**

جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا فَيَقُولُ اللهُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ تَسْخَرُ مِنِّي أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ»؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَكَانَ يَقُولُ: «ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً»[٥].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود أيضًا قال: قال ﷺ:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤) كتاب الطهارة، والترمذي (٥٥) كتاب الطهارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٧٧٣) كتاب الحج، ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج.

(٤) سورة النساء: الآية: (١٤٧).

(٥) صحيح: رواه البخاري (٦٥٧١) كتاب الرقاق، ومسلم (١٨٦) كتاب الإيمان.

«آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً؛ فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ؛ فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا؛ فَيَقُولُ اللهُ: عَزَّ وَجَلَّ يَا ابْنَ آدَمَ لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا؛ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا فَيَقُولُ لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا قَالَ بَلَى يَا رَبِّ هَذِهِ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا قَالَ يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ قَالَ هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ العَبْدُ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»(١).

*** أدنى أهل الجنة منزلاً:**

وحاشاهم أن يكون فيهم دنيّ ولكنه التفاضل فيما بينهم في الدرجات والمنازل؛ فما بين كل درجة والتي فوقها في الجنة كما بين السماء والأرض.

عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ فَيُقَالُ لَهُ أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ».

وأما عن أعلى أهل الجنة منزلة كما جاء في تكملة هذا الحديث: يقول: «فَأَعْلاهُمْ مَنْزِلَةً، قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢) .. الآية»(٣).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٧) كتاب الإيمان.

(٢) سورة السجدة: الآية: (١٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٩) كتاب الإيمان.

*** تفاوت الهمم علوًا وقصرًا:**

فمن الناس من يصرف همَّه وهمته إلى الدنيا وما فيها من شهوات؛ فيتيه في بحارها ويضل في شعابها، ولا يناله منها إلا ما قسمه الله تعالى له، ومنهم من يصرف همه وهمته إلى دينه الذي هو عنده أغلى من كل شيء ويضع نصب عينيه حديث النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[1]..ومن رُزق همَّة عالية فإنه يُعذَّب بمقدار علوها، كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسام

وبيان ذلك أن من علت همته طلب العلوم كلها، ولم يقتصر على بعضها، وطلب من كل علم نهايته، ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك.

* فلنحرص جميعًا ونحن ما زلنا في دار السباق على أن نكون من السابقين إلى أعالي المعالي ... فلنتسابق في طلب العلم، وفي العبادة، وفي الدعوة إلى الله، وفي كل طاعة تُقربنا من الله، وتجمعنا في الجنة مع رسول الله ﷺ ... ولنحرص كل الحرص على أن نُخلص النية لله (جل وعلا) لنفوز بمعيته وتوفيقه في الدنيا ولنظفر برضوانه ورؤيته في الجنة.

نسأل الله -جل وعلا- أن يرزقنا وإياكم أعلى الهمم في المسارعة إلى فعل الخيرات والبعد كل البعد عن المحرمات والمنكرات وأن يرزقنا

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٦٥) كتاب صفة القيامة الرقائق والورع، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠).

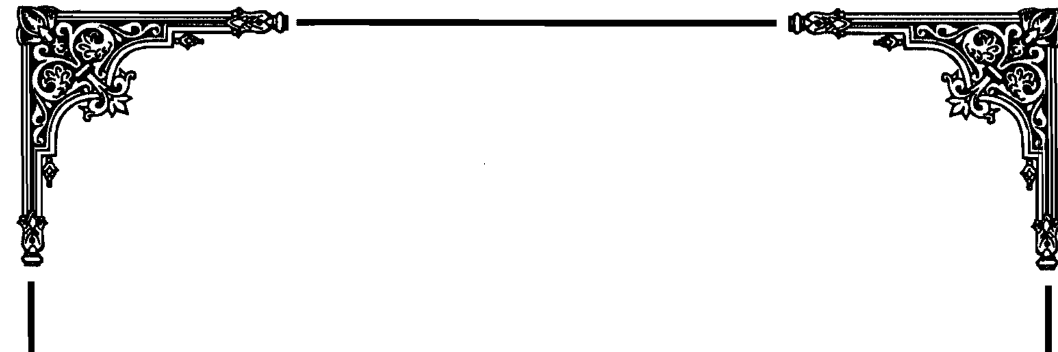
الإخلاص في القول والعمل وأن يجعلنا من ورثة جنة النعيم وفي زمرة سيد الخلق أجمعين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين.

والحمد لله رب العالمين.

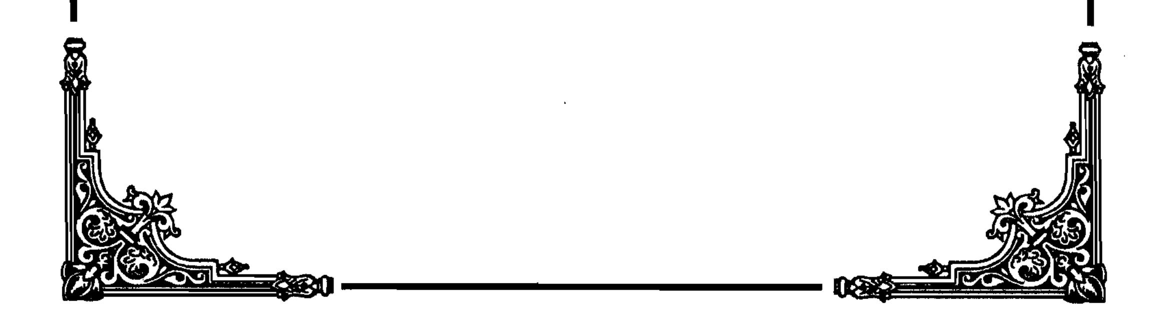
وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري

أبو عمار



فهرس الموضوعات







فهرس الموضوعات

كن مع السابقين

الانشغال بالآخرة

علو الهمة

أيقظ همتك

همة السالك وعلمه

إيثار الحق على الباطل

متاع الدنيا حقيقة أم خيال؟

علو همة الشباب

تَشَبَّه بالرجال

وما زلنا مع الشباب

كن رجلاً

أمثلة لعلو همة الشباب

جيل فريد

الدعوة الرحيمة

حقيقة الدنيا

كلكم راعٍ

صبيان .. وقلوب رجال

علو همة النساء

همة تعانق السماء

نساء صدقن ما عاهدن

نساءٌ على الدرب

علو همة الشيوخ

علو الهمة في طلب العلم

علو الهمة في العبادة والاستقامة

علو الهمة في الدعوة إلى الله

علو الهمة في محبة النبي ﷺ

محبة الملك جل جلاله

علو الهمة في طلب الجنة


السابقون

